مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 45 . العدد 5

1444 هـ - 2023 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب

رئيس جامعة البعث

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. محمود حديد	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

مديرة مكتب مجلة جامعة البعث

بشرى مصطفى

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. **دفع رسم نشر (40000) ل.س أربعون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.**
2. **دفع رسم نشر (100000) ل.س مئة الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .**
3. **دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .**
4. **دفع مبلغ (6000) ل.س ستة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.**

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
دراسة حقلية للفتحات الكارستية المملوءة بالمياه (السينوتي)، في حوض نهر الأبرش ونهر الغمقة، وإمكانية الحصول منها على المياه الجوفية	د. سعيد إبراهيم	44-11
السفارات العربية ــ البيزنطية في العصرين الراشدي والأموي	د. ناهد حسين	114-45
الآثار المعمارية لأسعد باشا العظم في دمشق (قصر وخان العظم) (1163-1171هـ/ 1749- 1757م).	د. نزار سلطان	152-115
الآثار البيئية للحرب في سورية والإجراءات المتخذة والمقترحة لمعالجتها	د. نسرين السلامه	194-153

دراسة حقلية للفتحات الكارستية المملوءة بالمياه (السينوتي)، في حوض نهر الأبرش ونهر الغمقة، وإمكانية الحصول منها على المياه الجوفية

الدكتور سعيد إبراهيم*

الملخص

تم في هذا البحث، والأول مرة، القيام بدراسة حقلية للمجاري والفتحات الكارستية المملوءة بالمياه في حوض نهر الأبرش، ونهر الغمقة. حيث يمكن تسمية هذه الفتحات سينوتي (Cenote)، والتي تتصفُ بأنها عبارة عن فتحاتٍ وكهوفٍ كارستية مملوءةٍ بالمياه الساكنة، ومتصلة مع شبكة من المجاري الكارستية تحت سطحية.

وبنتيجة هذه الدراسة تمكنا من تفسير وجود المياه الساكنة في التي تملأ فتحات التجاويف الكارستية (السينوتي) في أربعة أماكن هي: نبع الغمقة، ومغارة الشماميس في حوض نهر الغمقة؛ وكهف الحومة، ودوار بدادا في حوض نهر الأبرش.

كما تم، في سياق هذا البحث، تقديم الاقتراحات المناسبة التي توضّح إمكانية استثمار المياه الجوفية من مواقع هذه الفتحات. وكذلك إيضاح العلاقة التي تربط شبكة الأنفاق الكارستية تحت السطحية مع الينابيع تحت البحرية الموجودة في عدة أماكن مقابل شواطئ محافظة طرطوس وكيف تتم تغذية هذه الينابيع عبر شبكة أنفاق كارستية باطنية.

الكلمات المفتاحية: سينوتي – كهوف كارستية – نبع الغمقة – مغارة الشماميس – كهف الحومة – ينابيع تحت بحرية.

* أستاذ مساعد في قسم الجغرافيا (اختصاص جيولوجيا)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طرطوس، سوريا.

A Field Study of the Karstic (cenote) openings in the "Alabrash" and "Al Gamka" river basins, and the possibility to its groundwater exploitation

Dr. Said Ibrahim*

ABSTRACT

In this research, for the first time, we defined Karstic cenote openings sites in the "Alabrash" and "Al Gamka" river basins. This opening characterized by Karstic openings and caverns full of statistic water connected with subsurface Karstic holes and tunnels.

In the result of this study we could assure the definition of this openings in five places are: "Algamka spring" and Shamamis cave" situated in Algamka river basin, and Alhoome cavern, Bedada Dawar situated in Alabrash river basin, in addition to another situations may have same openings as JouretAlhossan spring in Markieh river basin.

Finally we suggested in this research the possibility of groundwater exploitation from this sites, and explained the relations between the subsurface Karstic tunnels network and sub marine springs situated in different situations in front of Tartous shore and the recharge of this springs through the tunnels network.

Keywords: Karstic cenote, Karstic caves, Algamka spring, Shamamis cave, Alhoome cavern, sub marine springs.

* Associate Professor (geologist) in the Department of Geography, Faculty of Arts and Humanities; Tartous University, Syria.

مقدمة:

اشتقّت التسمية سينوتي (cenote) في اللغة الاسبانية من كلمة دزونوت (Dzono'ot) والتي تعني في لغة حضارة المايا القديمة التي عاشت في المكسيك (Maya Civilization) ، فجوة أو فتحة مملوءة بالمياه، أو تجويف مملوء بالمياه [1]. وتمثل مجموعة الفجوات أو الحفر الصخرية المعرفة محلياً باسم (سينوتي) نظاماً مائياً وبيئياً فريداً من نوعه في العالم، حيث ينتشر في الشمال الشرقي لشبه جزيرة يوكاتان (Yucatan Peninsula) في المكسيك أعدادٌ كبيرةٌ من هذه الفتحات (أكثر من 6000 سينوتي) المختلفة الأحجام والأعماق (شكل 1)، وكذلك استخدمت هذه التسمية لوصف الحفر الكارستية المشابهة الموجودة في دول أخرى مثل كوبا، وأستراليا، وكندا، والولايات المتحدة، وجمهورية الدومنيكان. أما التسمية العلمية التي تستخدم أحياناً لوصف هذه الفتحات الموجودة في الصخور الكلسية فهي آبار الكارست، أو فتحات الابتلاع الكارستية (Sink Holes)، وبالتالي فإن فتحات السينوتي هي أحد أشكال الدحول الكارستية التي تتشكل في مناطق وجود الصخور الكلسية، والتي ترتبط عادة مع شبكة الأنفاق الكارستية تحت السطحية أو شجرة الكارست [2].

الشكل رقم 1: نموذجين من فتحات السينوتي التي تملئها المياه الساكنة في المكسيك (صوة من الانترنيت).

يمكن من خلال التعريف السابق ملاحظة أن فتحات السينوتي هي حالة خاصة من فتحات الابتلاع الكارستي أو آبار الكارست (Sink Holes) التي ترتبط في الأسفل مع شبكة من الأنفاق أو الأنهار الكارستية الباطنية، ولكن في الوقت الذي يمكن أن

تصبح فيه آبار الكارست جافة بعد توقف الأمطار، فان فتحات السينوتي أو تجاويفه تبقى مملوءة بالمياه الساكنة طيلة أيام السنة.

تنحدر الأنفاق أو الممرات الباطنية المرتبطة مع فتحات السينوتي مع ميل الطبقات الصخرية العام في المنطقة، وتستمر هذه الأنفاق بالامتداد تحت الأرض مسافات بعيدة، وذلك حتى تنتهي في نهاية المطاف في أماكن تصريف المياه الكارستية العذبة تحت سطح البحر (شكل 2). ولقد تمكن العلماء نتيجة دراستهم لفتحات السينوتي، ولشبكة الأنفاق الكارستية المرتبطة معها في شبه جزيرة يوكاتان من تحديد شبكة متفرعة من هذه الأنفاق التي تمتد تحت الأرض مسافة مئات الكيلومترات، وهي تنتهي تحت سطح مياه خليج المكسيك بفتحات تتوضع فيها المياه العذبة القادمة من البر فوق المياه البحرية المالحة الكثيفة [3].

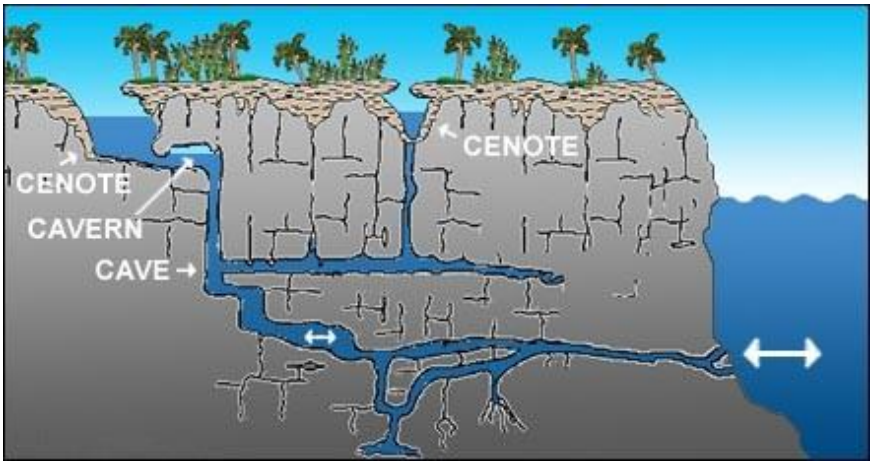

الشكل رقم 2: شكل يوضح شبكة الأنفاق الكارستية تحت السطحية واتصال مياه فتحات السينوتي مع مياه البحر.

وبما أن فتحات السينوتي والأنفاق الباطنية المرتبطة معها تكون مملوءة بالمياه العذبة، فإن هذه الأماكن تكون صالحة لحياة الأسماك وغيرها من أشكال الحياة المائية في الكهوف مثل الثعابين، والضفادع، والقشريات [4]. كما يمكن أن تدخل اسماك

الحنكليس المهاجرة من البحر عبر هذه الأنفاق لتصل إلى بعض الأماكن في المجاري المائية وتظهر هناك في فتحات السينوتي بشكل غير متوقع، كما يلاحظ في الكثير من الأحيان امتداد جذور النباتات والأشجار لتصل إلى هذه المياه. وبالتالي يمكن في حال العثور على أسماك داخل بعض المغاور والفتحات الكارستية الاستدلال على وجود فتحات السينوتي.

ونظراً إلى وجود المياه العذبة بكميات كبيرة في تجاويف السينوتي أو فتحاته، فلقد كان لها أثرها الكبير على التاريخ الحضاري لسكان شبه جزيرة يوكاتان؛ فعلى سطح هذه الجزيرة لا توجد أنهار أو بحيرات رئيسية، ولا يمكن العثور على المياه العذبة إلا في باطن الأرض حيث تمتد منظومة الكهوف المغمورة بالمياه، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فتحات السينوتي [1]. ولذلك اعتمد الأهالي في حضارة المايا القديمة على هذه الفتحات في الحصول على المياه العذبة. أما محلياً فلقد استفاد سكان منطقة صافيتا القدماء (الفينيقيون أو الرومان) من مياه السينوتي الموجودة تحت نبع الغمقا (بير الروزنة) كمصدر دائم للمياه، وقاموا بتطوير آلة ميكانيكية معينة لرفع المياه إلى السطح من عمق حوالي 20 متراً، حيث لا تزال آثاره هذه الآلة موجودة في المكان حتى يومنا هذا. ولذلك يأمل الباحث من خلال هذا البحث أن يستطيعَ إيضاحَ الأهميةِ الكبيرة لوجود فتحات السينوتي في المنطقة، وذلك من خلال إيضاح أماكن وجودها، وإمكانية الاستفادة منها كمصدر قليل التكلفة للمياه الجوفية.

أجريت على فتحات السينوتي في شبه جزيرة يوكاتان الكثير من الدراسات التي تناولت الأهمية البيئية، والاقتصادية، والتاريخية، والسياحية لهذه المواقع، نذكر منها:

بحث قام به بول مورنو و ماريلو زوريتا [1]، تمت خلاله دراسةُ دور السينوتي في التاريخ الحضاري والاجتماعي لشبه جزيرة يوكاتان. حيث تم في هذا البحث تسليط الضوء على ما يمكن تسميته تاريخياً (النهر المفقود)، وذلك لأنَّ كلَّ الحضارات القديمة ارتبط

وجودها وازدهارها بوجود نهر معين تقوم عليه، مثل الحضارات التي قامت على أنهار الفرات، ودجلة، والنيل، والغانج. ولكن شبه جزيرة يوكاتان تمثل مكاناً فريداً حيث لا مصادرَ مياهٍ صالحة للشرب فوق سطح الأرض. وفقط يمكن العثور على المياه العذبة في شبكة واسعة الامتداد من الكهوف المغمورة بالمياه، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال الفجوات الصخرية المملوءة بالمياه (السينوتي). ولقد ارتبطت التطورات التي حدثت في شبه جزيرة يوكاتان عبر التاريخ مثل ازدهار حضارة المايا، والفتوحات الاستعمارية، وتمرد السكان المحليين، والأنشطة التجارية والاقتصادية المختلفة مع وجود هذه السينوتي. وبالتالي تم في هذا البحث تسليط الضوء على التفاعل بين الطبيعة الفريدة والتاريخ الحضاري للمجتمعات البشرية. والنتائج الاجتماعية والطبيعية والاقتصادية والبيئية والسياسية لهذا التفاعل.

كما قام شميتير – سوتو وآخرون [3]، بدراسة الخصائص الهيدروجيوكيميائية والبيولوجية لفتحات السينوتي في شبه جزيرة يوكاتان (شمال شرق المكسيك). حيث تمت في هذا البحث الإشارة إلى أن السينوتي هي النظام المائي – البيئي الأكثر غرابةً في العالم. فلقد لوحظ وجودُ تنوعٍ في هذه الكهوف المملوءة بالمياه الجوفية. ففي الكهوف القريبة من البحر توجد المياه المالحة تحت المياه العذبة، حيث تشكل ما يسمى (Meromixis)، ويحدث ذلك بسبب وجود طبقة رقيقة من المياه العذبة (سماكتها حوالي 10 متر) تطفو فوق المياه المالحة الأكثر كثافةً. ويشاهد التقسيم الشاقولي لطبقات المياه بشكل واضح خلال موسم الأمطار الدافئة التي تستمر من شهر أيار وحتى شهر تشرين الأول. ففي فتحات السينوتي ذات الاتصال الهيدروليكي الجيد مع مع بقية الخزان الجوفي تبقى المياه صافية طيلة أيام السنة، في حين تتميز مجموعة الفتحات ذات الاتصال الهيدروليكي الضعيف مع خزان المياه الجوفية بوجود المياه العكرة ذات الشفافية المنخفضة للضوء. وفي هذه المجموعة من السينوتي يحتوي عمود الماء على تركيزٍ عالٍ

من الكلوروفيل (Chlorophyll)، ويعود ذلك غالباً إلى وجود مركب الكلوروفيسين (Chlorophyceans)، والبكتريات الزرقاء، والدياتوميت، والدينوفلاجيلات (Dinoflagellates)؛ والهوبوليمونون (Hypolimnion)؛ والعوالق الغنية بالمواد العضوية والبكتريا اللاهوائية وذلك لأن العمليات البيوجيوكيميائية هي السائدة. كما يمكن أن تتغطى الأجزاء العليا من الجدران الصخرية المعرضة للضوء بشكل جيد بطبقة رقية من الأشنيات المتنوعة. كما يمكن أن تحتل النباتات العائمة جزءاً من سطح المياه. كما يوجد في هذه الفتحات أعداد قليلة من الحيوانات مثل القشريات والأسماك. وبالنتيجة تعد فتحات السينوتي في شبه جزيرة يوكاتان جزراً للحياة المائية، فغالباً ما يوجد غطاء نباتي كثيف وطويل من الأشجار الكبيرة في فجوات السينوتي، أما الفتحات القريبة من الساحل قد تكون محاطة بأشجار المانغروف، وبنباتات مائية أخرى بالإضافة إلى الطحالب.

أما الدراسات المحلية التي تناولت شبكة الأنفاق الكارستية والينابيع تحت البحرية، فهي الدراسة التي قدمها (شريف، ال) في العام 2009 م، والتي تم خلالها إجراءُ تقييمٍ كميٍّ ونوعيٍّ للينابيع تحت البحرية على الساحل السوري وذلك بإجراء قياسات على الينابيع البحرية تترافق مع قياسات لسطح المياه الجوفية في آبار محفورة في طبقة المياه الجوفية العائدة للكريتاسي. وكانت نتيجة البحث تحديد سرعة جريان مياه الينابيع تحت البحرية وغزارتها، وذلك تبعاً لفروق الكثافة والضاغط الهيدروليكي وسرعة الجريان بين مياه الينابيع تحت البحرية ومياه البحر. حيث تختلط مياه هذه الينابيع مع مياه البحر عند السطح لتشكل مزيجاً تتراوح نسبة المياه العذبة فيه بين (20 – 90 %)، وذلك تبعاً للظروف الجيولوجية ولحالتي الطقس والبحر [5].

أما الدراسات المحلية التي تناولت الأحواض النهرية والمظاهر الكارستية الموجودة في المنطقة المدروسة فهي:

دراسة قام بها (كابر، ي) في العام 2003 م، تَمَّ خلالها تقييم المَوَارِد المَائِيّة في حَوْض نَهْر الأَبرَش، وتقدير الجريانات السَّطحِيّة والجَوفِيَّة، مع التَّركِيز على المَوَارِد المَائِيّة المُتَاحَة بِهدفِ تَأمينِ المِيَاه للحاجات الاِجتِمَاعِيَّة والاِقتِصَادِيَّة في المستقبل [6].

كذلك قدم (إبراهيم، س) في العام 2018 م، دراسة جيومورفولوجية لنبع الغمقة الكارستي، تناول فيها أقسام هذا النبع السطحية وتحت السطحية، وقدم تفسيراً علمياً لسبب تدفقه بشكل نافورة غزيرة خلال فصل الشتاء [7]. كذلك قام (إبراهيم، س) في العام 2022 م، بدراسة حقلية لأهم المظاهر الجيومورفولوجية الكارستية في حوض نهر الأبرش، قدم خلالها وصفاً حقلياً لأهم الكهوف والمغاور الكارستية الموجودة في هذا الحوض، وكذلك دراسة مفصلة لمقتطع تحت السطح الممتد بين دوار بدادا وينابيع عيون الغار [8].

منطقة البحث: تقع منطقة البحث في القسم الجنوبي من سلسلة الجبال الساحلية السورية، حيث سوف يتركز البحث في البداية على دراسة فتحات السينوتي الكارستية الموجودة في واديين نهريين متجاورين؛ هما؛ وادي نهر الغمقة، ووادي نهر والأبرش (شكل 3). وبعد ذلك سوف يتم الانتقال إلى إيضاح أماكن امتداد الأنفاق أو الممرات الكارستية التي تنقل المياه من مناطق المنابع والتغذية (قمم الجبال الساحلية في الشرق)، وحتى مناطق التصريف تحت سطح مياه البحر في الغرب. وإذاً فان منطقة البحث سوف تشمل أراضي محافظة طرطوس بشكل عام بالإضافة إلى قسم من الرصيف القاري المجاور لها.

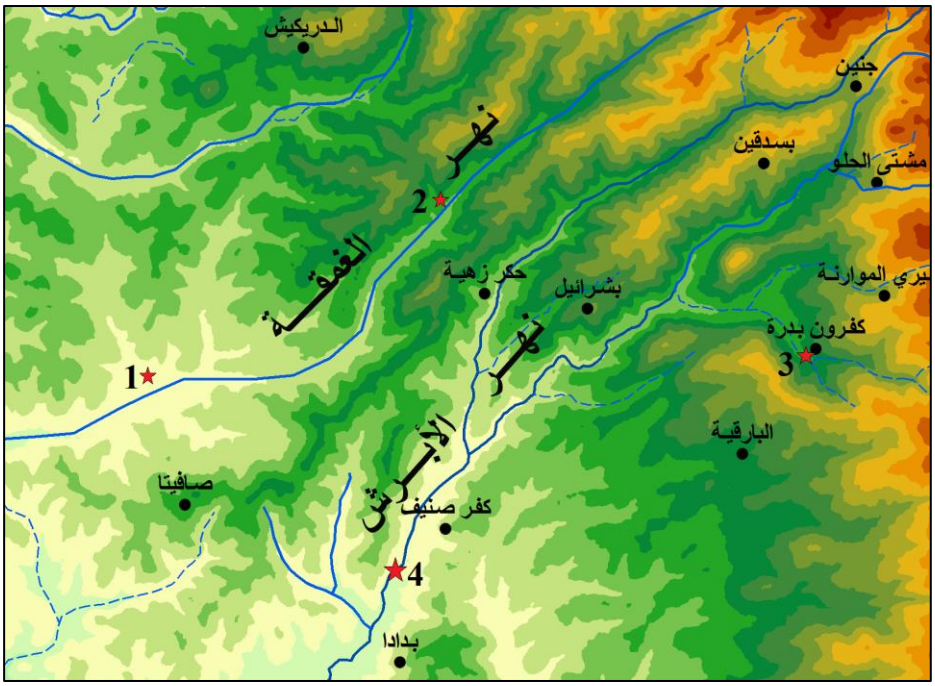

الشكل رقم 3: يوضح مواقع فتحات السينوتي المؤكدة في المنطقة حسب الأرقام وهي: 1- نبع الغمقة. 2- مغارة الشمامية. 3- كهف الحومة. 4- دوار بدادا. ولقد تم الحصول على الصورة باستخدام نموذج الارتفاع الرقمي (DEM)، دقة 12.5 متر (فارق الارتفاعات بين الدرجات اللونية 50 متر).

أهمية البحث وأهدافه:

تأتي أهمية هذا البحث بكونه، للمرة الأولى، تتم دراسة الفتحات المملوءة بالمياه الساكنة في حوضي نهري الأبرش والغمقة وتصنيفها بأنها فتحات سينوتي، وكذلك تسليط الضوء على علاقة الينابيع الموجودة تحت البحر مع شبكة الأنفاق الكارستية الممتدة من قمة الجبال الساحلية في الشرق، وحتى منطقة وجود هذه الينابيع تحت البحرية في الغرب. وسوف يتحقق ذلك من خلال الأهداف التالية:

1. دراسة فتحات السينوتي المملوءة بالمياه الساكنة في حوضي نهر الأبرش، ونهر الغمقة.

2. تقديم الاقتراح حول إمكانية الاستفادة من المياه الجوفية الموجودة في هذه الفتحات.
3. تقديم دراسة توضيحية للعلاقة بين شبكة الأنفاق الكارستية تحت السطحية الممتدة في المنطقة مع الينابيع تحت البحرية الموجودة مقابل شواطئ محافظة طرطوس.

طرائق البحث ومواده: تم في سياق البحث الاعتماد على جملة من المعطيات والبيانات المتوفّرة عن المنطقة وهي:

1. الخرائط الطبوغرافية لرقع الخرائط التي تغطي أراضي محافظة طرطوس مقياس $\frac{1}{50.000}$.
2. الخرائط الجيولوجية لرقع الخرائط الطبوغرافية السابقة، مقياس $\frac{1}{50.000}$، مع مذكراتها الإيضاحية [9].
3. الصور الفضائية للمنطقة المدروسة من خلال الموقع (Google Erath Pro).
4. الصور الرقمية للمنطقة المدروسة (D. E. M) وتحليلها باستخدام البرنامج (Global Mapper 21).
5. الجولات الميدانية التي قام بها الباحث لمنطقة الدراسة مستخدما كاميرا تصوير، وجهاز G P S.

النتائج والمناقشة:

1- البنية الجيولوجية للمنطقة المدروسة: ترتبط البنية الجيولوجية للمنطقة المدروسة مع البنية الجيولوجية لسلسة الجبال الساحلية السورية، والتي تُعَدُّ محدباً وحيد الميل تميل طبقاته الصخرية، بشكل عام، نحو الغرب بزاوية حوالي 10 درجات. حيث تتكشف في المناطق الشرقية (قمة الجبال السّاحلية) الصّخور الأقدم عمراً والتي تعود إلى دوري الترياسي والجوراسي، ويتوضع فوقها (نحو الغرب) طبقات الصّخور الأحدث عمراً والتي تعود إلى الدور الكريتاسي.

تتألف صخور الدور الجوراسي من صخور كلسية، وكلسية دولوميتية سميكة التطبق، تتميز في الطبيعة بلونها الرمادي المزرق، ونظراً إلى قساوتها المرتفعة فهي محطمة نتيجة الحركات التكتونية التي أصابت المنطقة، ومتأثرة بشكل كبير بعمليات الحت الكارستي [10]، مما تسبب بتشكل بعض المظاهر الكارستية المدروسة في سياق هذا البحث. يليها نحو الغرب طبقات دور الكريتاسي المتوضعة بشكل طبقات مختلفة السماكة، والمؤلفة من صخور كلسية، وكلسية دولوميتية مع المارن وبعض العقيدات الصوانية [11].

2- دراسة حقلية لمواقع وجود فتحات السينوتي المؤكدة في حوضي نهري الغمقة والأبرش: سوف نقدم في البداية دراسةً وصفيةً لفتحات سينوتي ظاهرة بشكل واضح في منطقة نبع الغمقة (شمال صافيتا)، لنستدل من خلالها على الخصائص التي تتصف بها فتحات السينوتي الموجودة في المنطقة. ثم نقدم بعد ذلك دراسة حقلية لفتحات السينوتي الواضحة والمؤكد وجودها في حوض نهر الغمقة، وحوض نهر الأبرش المجاور له.

آ- حفرة نافورة نبع الغمقة كنموذج لفتحات السينوتي الظاهرة فوق سطح الأرض: يمكن مشاهدة مياه فتحة السينوتي الساكنة وعلاقتها مع المياه المتحركة في الأنفاق الكارستية السفلية بشكل واضح في حفرة نافورة نبع الفمقة (شمال صافيتا)، وذلك عندما تتوقف نافورة هذا النبع عن التدفق وتتحول إلى حفرة مملوءة بالمياه الساكنة (شكل 4، A). وفي هذا الوقت تستمر المياه بالخروج من النبعين (نبع الصغير، ونبع الشمالي) الواقعين أخفض من مستوى حفرة النافورة بعدة أمتار (شكل 4، B) [7]. إن ما نشاهده في هذه الأماكن الثلاثة خلال هذا الوقت هو حالة فتحة سينوتي نموذجية. فالمياه الساكنة تملأ فتحة السينوتي في الأعلى (حفرة النافورة)، في حين تستمر المياه بالحركة والجريان عبر النفق الكارستي في الأسفل لتخرج من النبعين المذكورين سابقاً (شكل 5). ولو أن الطبقات الصخرية كانت لا تزال تغطي هذين النبعين (الصغير والشمالي) لما استطعنا

مشاهدة استمرار حركة المياه عبر النفق الكارستي وخروجها منه في الأسفل. وكنا نشاهد فقط فتحة مملوءة بالمياه الساكنة، وهذا الأمر يقودنا إلى استنتاج مهم يؤكد لنا أن المياه الساكنة في الأعلى يمكن أن ترتبط مع مياه متحركة عبر النفق الكارستي في الأسفل.

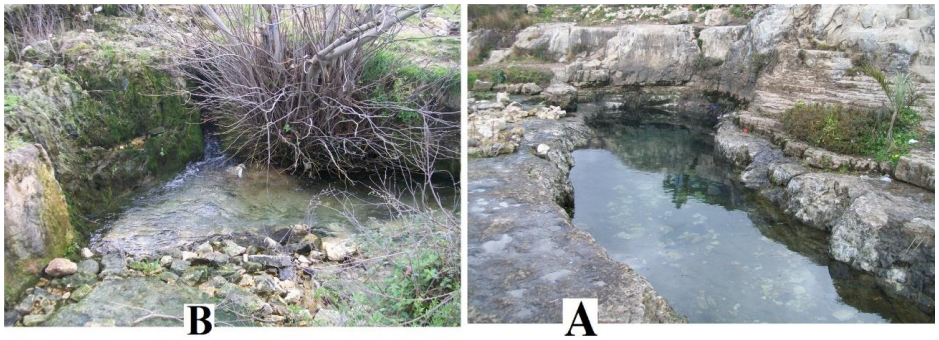

الشكل رقم 4: المياه الساكنة تملأ حفرة نافورة نبع الغمقة (A)، فتحة نبع الصغير في الأسفل حيث تستمر المياه بالجريان (B).

إن عودة المياه الساكنة في حفرة النافورة إلى الارتفاع والتدفق من جديد يتطلب قدومَ كمياتٍ جديدةٍ من المياه عبر النفق الكارستي الباطني لا يستطيع النبعان في الأسفل تصريفها (ارتفاع المنسوب الستاتيكي للمياه)، وبالتالي يحدث الانضغاط، وتعود المياه التي كانت ساكنتة لتتدفق بشكل نافورة من جديد [7].

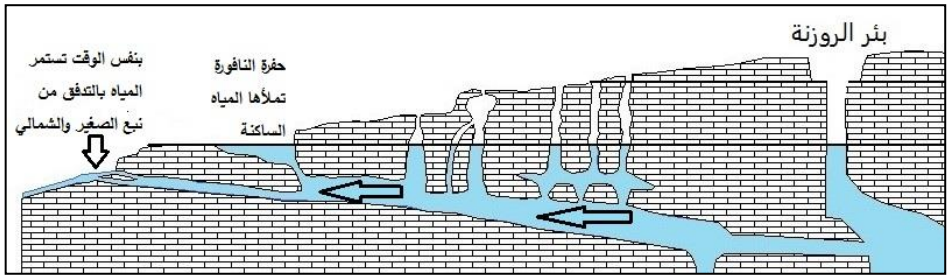

الشكل رقم 5: المياه الساكنة تظهر في بير الروزنة وتملأ فتحة حفرة نافورة نبع الغمقة، في حين تستمر بالجريان عبر النفق الكارستي في الأسفل لتخرج من نبع الصغير، ونبع الشمالي [7].

مثال آخر على ظهور المياه الساكنة في فتحة سينوتي هو تلك المياه التي تظهر في قاع مغارة نبع الغمقة أثناء فترات التدفق الشديد للنافورة. فهذه المغارة التي تقع في

مستوى أعلى من حفرة النافورة بحوالي 3 م، يشغل قاعها فتحة كبيرة قمعية الشكل شبه مغلقة بالأنقاض والحجارة، وعند قدوم كميات كبيرة من المياه عبر النفق الكارستي وحدوث عملية التخنيق في الأسفل (ظاهرة عنق الزجاجة)، فان المياه الساكنة تظهر في قاع هذه المغارة بارتفاع معين، يختلف باختلاف شدة عملية الانضغاط في النفق الكارستي الباطني (شكل 6، A). وإذا كانت عملية التخنيق والانضغاط كبيرة جداً فان المياه تستمر بالارتفاع داخل هذه المغارة حتى تسيل من فتحتها التي بجانب الطريق. ولكن هذه الحادثة نادرة الحدوث لأنها تتطلبُ استمرارَ هطول الأمطار الغزيرة عدة أيام. وفي هذا المثال نشاهد أن المياه الساكنة تظهر في فتحة مرتفعة، في حين تستمر بالجريان عبر النفق الكارستي في الأسفل لتتدفق بغزارة من نافورة نبع الغمقة (شكل 6، B). وهناك حالة مماثلة أيضاً تشاهد فيها المياه الساكنة في فتحة سينوتي، هي المياه التي تظهر في بير الروزنة المرتبط مع نافورة نبع الغمقا خلال فصل الشتاء (شكل 5)، حيث نشاهد مستوى المياه الساكنة متغيراً في بير الروزنة، في حين تجري المياه عبر النفق الكارستي في الأسفل نحو الغرب لتتدفق من نافورة نبع الغمقا [7].

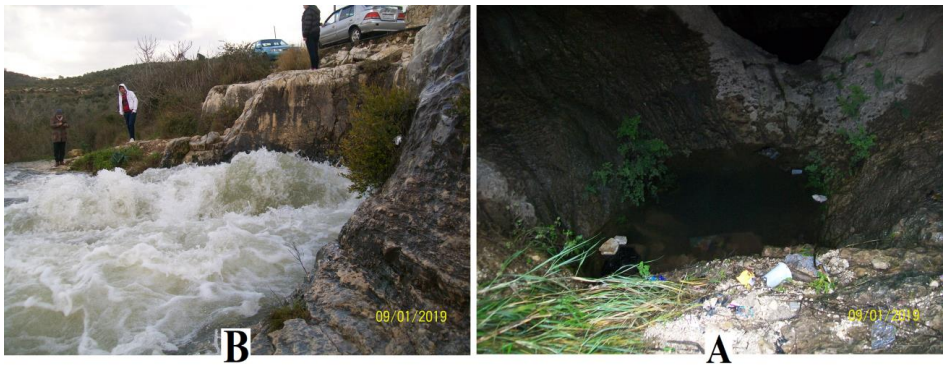

الشكل رقم 6: المياه الساكنة تظهر في أسفل فتحة مغارة الغمقة (A)، وبنفس الوقت تتدفق بشدة من نافورة الغمقة (B).

يمكن من خلال الأمثلة الثلاثة السابقة ملاحظة أن المياه الساكنة التي تظهر في فتحات السينوتي تمتاز بمستوى سطحها المتغير، والمختلف باختلاف شدة عملية التخنيق

والانضغاط التي تحدث داخل النفق الكارستي في الأسفل (ظاهرة امتلأ الوعاء الكارستي). وإذا كانت عملية التخنيق شديدةً فإن هذه الفتحات تتحول إلى ينابيعَ مؤقتةٍ قد تستمر عدة ساعات (كما يحدث أحياناً في مغارة نبع الغمقة)، أو عدة أسابيع أو أشهر (كما يحدث في نبع الصغير ونبع الشمالي). وإذا كانت الظروفُ سانحةً (انضغاط شديد) فقد يحدث هذا التدفق بشكل نافورة غزيرة، الأمر الذي نشاهده في نافورة نبع الغمقة [7].

لقد أوردنا الأمثلة السابقة للمياه الساكنة والمتحركة في منطقة وجود فتحات السينوتي للاستدلال من خلالها على سلوك المياه الساكنة في فتحات السينوتي الموجودة في مناطق أخرى، والتي تمكن الباحث من تأكيد وجودها في الأماكن التالية:

ب- فتحة السينوتي تحت بير الروزنة في نبع الغمقة: عند جفاف نبع الغمقة صيفاً تستمر المياه الساكنة بالوجود في مغارة تقع على عمق حوالي 20 م، إلى الأسفل من فتحة بير الروزنة (شكل 7، A)، وكذلك تشاهد المياه الساكنة في قاع جب أبو فارس القريب منها (شكل 7، B) [7]. إن المياه الساكنة في هاتين الفتحتين (المغارة وجب أبو فارس) هي مياه فتحات سينوتي متصلة مع بعضها عبر نفق كارستي في الأسفل (شكل 8). والمياه القادمة عبر هذا النفق هي التي تغذي ينابيع الغمقة. فخلال فصل الصيف تكون عملية التخنيق داخل هذا النفق ضعيفة نسبياً وتستطيع رفع المياه الساكنة لتظهر في فتحة المغارة وفتحة جب أبو فارس فقط بالشكل الذي أشرنا إليه سابقاً. ولكن بعد هطول الأمطار وتدفق كميات كبيرة من المياه داخل النفق الكارستي القادم إلى منطقة نبع الفمقة من الشرق، تزداد شدة عملية التخنيق وتندفع المياه التي كانت ساكنة سابقاً (خلال الصيف) بشكل نافورة داخلية تحت بير الروزنة لتملأ النفقَ المؤديَّ إلى حفرة النافورة وتسببُ تدفقَ نبع الغمقة بآلية كان قد سبق أن تم شرحها بشكل مفصل [7].

الشكل رقم 7: فتحة السينوتي تملأها المياه الساكنة في المغارة تحت بير الروزنة صيفاً، ومن هذا المكان تخرج المياه التي تتدفق من نبع الغمقة شتاءً (A)، كما تظهر المياه الساكنة في قاع جب أبو فارس بنفس المستوى الذي تكون عليه في المغارة (B) [7].

ومن الملاحظات التي سجلها الباحث والجديرة بالذكر هي أنه شاهد سمكة طولها حوالي 15 سم في حفرة النافورة أثناء توقفها عن التدفق (شكل 4، A)، كانت قد خرجت لفترة قصيرة (أقل من دقيقة)، ثم عادت واختفت عبر فتحة النفق الكارستي. إن هذه الحادثة تدل على وجود أسماك في الأنفاق الكارستية السفلية الموجودة داخل الأرض. كما أن وجود أسماك (الحنكليس) في بير الروزنة هو أمر معروف للسكان المحليين. إن وجود حياة داخل هذه الأنفاق يؤكد أنها فتحات سينوتي لها اتصال مع مياه البحر [4].

إن وجود المياه الساكنة في المغارة تحت بير الروزنة وفي جب أبو فارس يدل أن هاتين الفتحتين هما فتحات سينوتي متصلة مع نفق كارستي سفلي تستمر المياه بالحركة والجريان خلاله طوال فصل الصيف. ولقد حاول الباحث النظر إلى الأسفل داخل المياه الساكنة في هذه المغارة في بداية فصل الخريف مستخدما إنارة خاصة، فشاهد تجويف بشكل هوة عميقة جداً ليس لها نهاية واضحة (المغارة على الشكل 8). ويبدو أن هذه الهوة العميقة قد تصل إلى طبقات الجوراسي في الأسفل التي تحوي مجاري كارستية (نافذة هيدروجيولوجية). لذلك يقترح الباحث أن المياه الموجودة في هذا النفق يمكن

الاستفادة منها كمصدر للمياه الجوفية (كما استفاد منها السكان المحليون القدماء)، وهذا الأمر يتطلب مزيداً من الدراسة والاستكشاف.

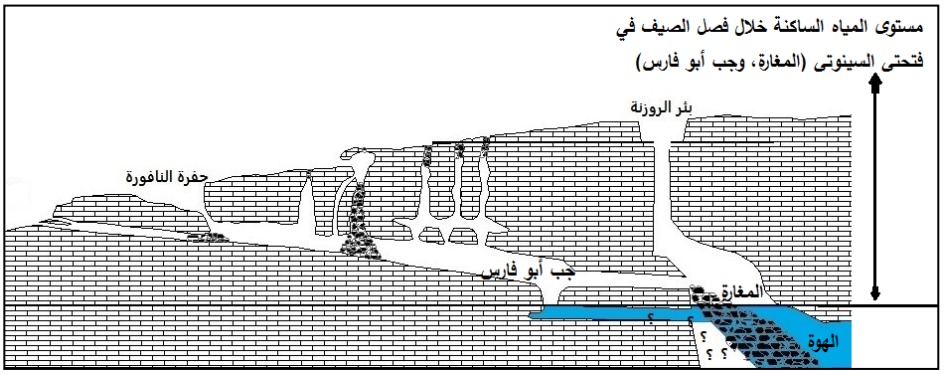

الشكل رقم 8: المياه الساكنة في المغارة وجب أبو فارس طيلة فصل الطيف متصلة مع بعضها بواسطة نفق كارستي من الأسفل [7].

ج – فتحة السينوتي تحت مغارة الشماميس: إن التعرف على حفرة السينوتي الموجودة تحت مغارة الشماميس يتطلب معرفةَ أقسامِ هذه المغارة وآلية تشكلها (شكل 9). لأن هذه المغارة هي من أنواع المغاور التي كانت تبتلع المياه، أي أن فتحة المغارة هي فتحة دخول للمياه، ويؤكد ذلك أن قاع النفق الكارستي الموجود داخل هذه المغارة يميل نحو الداخل (شكل 10، A). وكانت المياه بعد اجتيازها النفق الكارستي تسقط بشكل شلال عبر هوة شاقولية (مكان وجود السلم المعدني حالياً، شكل 10، B)، لتتابع طريقها المنحدر نحو الغرب حتى تلتقي مع نهر باطني قادم من جهة الشرق. وبعد ذلك تتابع المياه طريقها نحو الغرب عبر نفق كارستي من نمط سطح التطبق، أي تشكل عبر سطح فاصل بين طبقتين، وبالتالي فهو نفق عريض وقليل الارتفاع (شكل 12، A). وبما أن النهر الباطني القادم من جهة الشرق يستمر بالجريان بشكل نبع جوفي صيفاً، فلقد تم استثمار مياهه وإيصالها إلى التجمعات السكانية المجاورة من خلال ما يعرف باسم

مشروع جر مياه مغارة الشماميس، حيث تم بناء حوض تجميع لمياهه، وحفر بئرين شاقوليين فوقه، تم من خلالهما ضخ المياه إلى خزان التوزيع في أعلى الجبل (شكل 9).

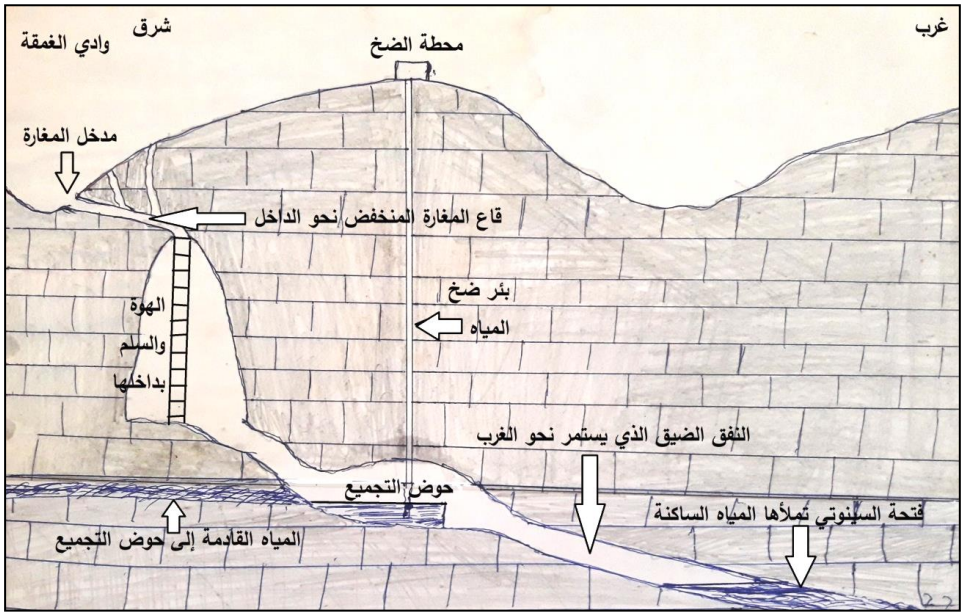

الشكل رقم 9: مخطط يوضح الأقسام الداخلية لمغارة الشماميس ومكان وجود فتحة السينوتي.

يشاهد أحياناً خلال فصل الشتاء تدفق المياه الغزيرة عدة أيام من فتحة هذه المغارة، ويمكن تفسير ذلك على الشكل التالي: بعد هطول الأمطار الغزيرة، ونتيجةَ قدوم كميات كبيرة من المياه عبر النفق السفلي تحدث عملية تخنيق في الأسفل، مما يرفع المياه الساكنة داخل الهوة الكارستية (مكان وجود السلم المعدني) مسافة معينة. وبالتالي تتحول هذه الهوة إلى فتحة سينوتي مؤقتة داخل الأرض. لأن المياه تبدو ساكنة بداخلها في حين يستمر الجريان عبر الأنفاق الكارستية في الأسفل. وإذا كانت كمية المياه القادمة داخل الأرض كبيرة فان المياه الساكنة في الهوة تستمر بالارتفاع حتى تتدفق من فتحة المغارة وتشكل نبعاً غزيراً يرفد نهر الغمقة القريب (شكل 11)، ويستمر ذلك عدة أيام، أي

حتى تتناقص عملية التخنيق في الأسفل، وتعود المياه الساكنة إلى التوقف في الهوة من جديد. ومع قدوم فصل الصيف يستمر تناقص كمية المياه المتحركة تحت الأرض، حتى تزول عملية التخنيق، وتأخذ المياه الفائضة عن حاجة المضخات بالجريان نحو الغرب بشكل رافد نهري باطني.

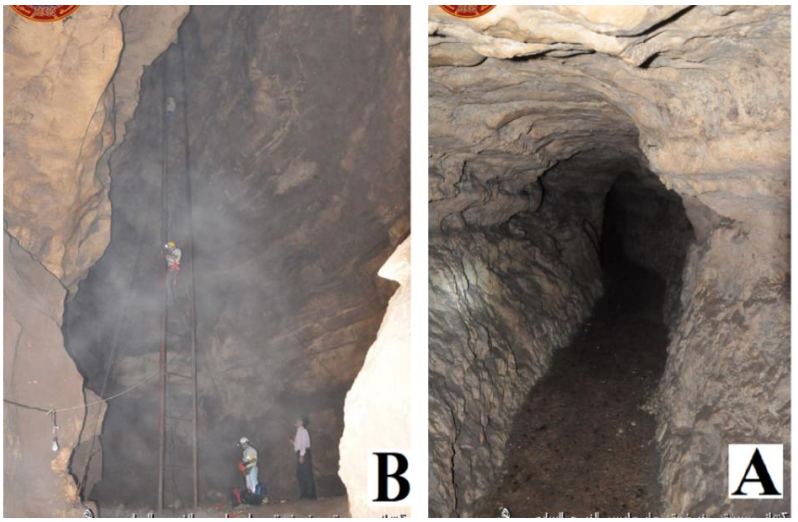

الشكل رقم 10: نفق ابتلاع المياه الذي كانت تدخل خلاله المياه إلى داخل مغارة الشماميس (A)، الهوة الكارستية وبداخلها السلم الحديدي الذي يتم النزول عبره إلى أسفل مغارة الشماميس (B).

الشكل رقم 11: المياه تتدفق من باب مغارة الشماميس بشكل غزير لترفد نهر الغمقة المجاور بعد هطول الأمطار الغزيرة.

الشكل رقم 12: النفق العريض والقليل الارتفاع من نمط سطوح التطبق المتجه نحو الغرب في أسفل مغارة الشماميس (A)، فتحة السينوتي التي تملأها المياه الساكنة وتغلق النفق المتجه نحو الغرب (B).

أما فتحة السينوتي المهمة التي تستمر المياه الساكنة بالوجود في داخلها خلال فصل الصيف، فهي موجودة عند مستوى أخفض من مكان وجود خزان التجميع بحوالي 7 أمتار، داخل النفق المتجه نحو الغرب (شكل 9). وعندما حاول الباحث في خريف العام 2015 (أي كانت المياه في أخفض منسوب لها)، وبالتعاون مع فريق كشاف سوريا، الدخول إلى هذا النفق واستكشافه، تمكنوا من الدخول لمسافة حوالي 50 متر فقط، ليجدوا بعد ذلك أن المياه الساكنة تملأ النفق وتغلقه بشكل لا يمكن اجتيازه (شكل 12، B).

تدلُّ المياه الساكنة في هذا المكان على وجود فتحة سينوتي، وأن هذه الفتحة تتصل مع أنفاق كارستية أعمق تستمر المياه بالجريان خلالها طيلة فصل الصيف. وإن المياه التي يتم استغلالها حالياً في مشروع مغارة الشماميس هي فقط تلك المياه التي تتحرك في مجرى كارستي أعلى من المستوى الموجودة فيه فتحة السينوتي.

من ناحية البنية الجيولوجية تقع مغارة الشماميس وتفرعاتها داخل طبقات طابق الألبيان، والذي هو أحد طوابق الكريتاسي الأسفل. وتدل الملاحظات الحقلية التي توصل إليها الباحث من خلال مراقبة عمق تواجد فتحة السينوتي داخل الأرض، أن هذه الفتحة تقترب بموقعها من أعماق وجود صخور الجوراسي المعرضة بشدة للعمليات الكارستية، والتي تحوي أعداداً كثيرة من الأنفاق الكارستية، وبالتالي يفترض وجود علاقة بين المياه

الساكنة داخل فتحة السينوتي هذه، مع المياه المتحركة داخل أنفاق صخور الجوراسي في الأسفل (نافذة هيدروجيولوجية)، والتي قد يشكل الحقل الكارستي في عين الشمس مصدر تغذية لها [11].

يفيد العاملون في محطة الضخ الموجودة فوق هذه المغارة بأنهم يضخون المياه من خزان التجميع في الأسفل خلال فصل الصيف بشكل متقطع، وبفواصل زمنية تصل إلى حوالي النصف ساعة كي يمتلئ الخزان في الأسفل بالمياه من جديد (شكل 9). ويقترح الباحث أن هذا الشح في المياه يمكن استدراكه من خلال ضخ المياه من فتحة السينوتي هذه إلى خزان التجميع لرفعها بواسطة المضخات، وبالتالي يستمر ضخ المياه في مشروع الشماميس بشكل مستمر دون توقف.

د- فتحة السينوتي في كهف الحومة: يقع هذا الكهف بالقرب من قرية كفرون بدرة في وادي نهر الأبرش (شكل 13)، حيث توجد في سرير النهر حفرة كارستية عمقها حوالي 19.5 متر ، أما طول الفتحة فهو حوالي 7 أمتار، وعرضها حوالي 2 متر، وهذه الفتحة موجودة ضمن صخور الجوراسي [8].

الشكل رقم 13: المياه الساكنة تملأ فتحة السينوتي في كهف الحومة صيفاً (A)، الرمال والحصى الناعمة تتكدس على الجهة الغربية من فتحة السينوتي، أي باتجاه مغادرة المياه للحفرة (B).

هذا الكهف هو في الواقع فتحة سينوتي نموذجية تملئها المياه الساكنة طيلة أيام السنة، وفقط بعد هطول الأمطار الغزيرة يرتفع منسوب المياه في هذه الفتحة وتتدفق المياه القادمة من الأسفل بشكل نافورة غزيرة خفيفة الانضغاط تخرج منها مياه شديدة العكارة.

ويستمر تدفق هذه النافورة عدة أيام ليتخامد بعدها التدفق تدريجياً، ثم يتوقف نهائياً وتعود المياه لتصبح ساكنة من جديد. ولقد لاحظ الباحث أن مستوى المياه الساكنة في هذه الفتحة بعد توقف التدفق يكون مرتفعاً حوالي 2.5 متراً عن المستوى الذي يستقر عليه في نهاية الصيف، وبعد توقف التدفق فان هذا المستوى للمياه الساكنة لا يبقى ثابتاً، بل ينخفض باستمرار حتى يستقر في آخر فصل الصيف في أخفض مستوى له.

إن تدفق المياه العكرة بشكل نافورة من فتحة السينوتي (كهف الحومة)، وارتفاع مستوى المياه الساكنة بالشكل السابق يؤكد أن هذه الحفرة متصلة مع شبكة من الأنفاق الكارستية التي تغذيها بالمياه القادمة من جهة الشرق، أي من منخفضات بلعة ورامة الغميقة ورمتة [8]. حيث يتوافق انحدار هذه الأنفاق نحو الغرب مع ميل طبقات الجوراسي المعرضة بشكل كبير جداً لعمليات الحت الكارستي بنوعيه السطحي والباطني. كما توجد أنفاق أخرى تقوم بتصريف المياه من هذه الفتحة باتجاه الغرب أيضاً. ويمكن الاستدلال على ذلك من القسم الباقي من النفقين الكارستين الموجودين إلى الغرب من كهف الحومة بحوالي 200 م ضمن صخور الجوراسي [8]، فالمياه العكرة التي تتدفق من نافورة كهف الحومة حالياً تسلك في طريقها النفق السفلي (شكل 14)، ولو أن هذا النفق لا يزال مغطى بالطبقات الصخرية لما استطعنا مشاهدة ذلك.

B A

الشكل رقم 14: بقايا النفق الكارستي السفلي ضمن صخور الجوراسي إلى الغرب من كهف الحومة [8]، من الملفت شكله شبه المستدير الذي لم نشاهده في أي نفق آخر (A)، المياه العكرة تتدفق من كهف الحومة تسير عبر هذا النفق لتغذي نهر الأبرش (B).

أحد هذه الأنفاق الواضحة المرتبطة مع كهف الحومة هو النفق الممتد بين كهف الحومة وفتحة كهف الحومة الفوقا، والذي يبلغ امتداده تحت الأرض مسافة حوالي 120 م. ومن الملاحظات التي حصل عليها الباحث وتؤكد وجود هذا الارتباط هي ارتفاع مستوى المياه الساكنة في فتحة كهف الحومة الفوقا بشكل يتوافق مع ارتفاعها في نافوة كهف الحومة أثناء تدفقها. كما أن الفتحات الموجودة في الحقول الزراعية الممتدة بين كهفي الحومة السابقين تملئها المياه الساكنة بنفس الوقت، وتختفي هذه المياه عند انخفاض منسوب المياه في فتحة السينوتي في كهف الحومة وتوقفها عن التدفق. ويفيد السكان المحليون بأن تدفق المياه من فتحة كهف الحومة يترافق معه خروج أسماكٍ؛ مما يدل على وجود حياة مائية داخل الأنفاق الكارستية في الأسفل*، وهذا يذكرنا بالسمكة التي سبق أن شاهدها الباحث في حفرة نافورة نبع الغمقة. كما يشاهد تكدس كمياتٍ كبيرةٍ من الرمال والحصى الصغيرة (حوالي 0.5 سم) إلى الغرب من فتحة السينوتي، أي باتجاه مغادرة المياه لكهف الحومة. وهذه الرمال والحصى الناعمة ترفعها مياه النافورة المتدفقة من الأسفل مع العكارة والأوحال (شكل 13، B).

إن السلوك الذي تسلكه المياه في كهف الحومة يؤكد بأنها فتحة سينوتي، فارتفاع المياه فيها، وتدفقها بشكل نافورة يدل على حصول عملية تخنيق في الأسفل مختلفة الشدة (ظاهرة عنق الزجاجة)، وأن المياه القادمة إلى هذه الفتحة عبر الأنفاق الكارستية من جهة الشرق تفوق طاقة تصريف الأنفاق المتجهة نحو الغرب مما يتسبب بحدوث التخنيق وتدفق النافورة، ومع تناقص شدة عملية التخنيق في الأسفل، تتوقف النافورة عن التدفق، ويستمر انخفاض منسوب المياه الساكنة في فتحة السينوتي، حتى يحصل توازن بين كمية المياه القادمة والمنصرفة من هذه الحفرة، وعند ذلك تبدو المياه ساكنة في الأعلى، في حين أنها تستمر بالحركة والجريان عبر الأنفاق الكارستية في الأسفل. وبالتالي فإن

* يبدو أن تسمية الكهف (الحومة) جاءت من طيور الحوم (اللقالق) التي كانت تهبط فيه لتتغذى على الأسماك من هذا الكهف.

إمكانية استغلال المياه الجوفية من فتحة السينوتي هذه تتعلق بغزارة المياه المتحركة عبر الأنفاق الكارستية في الأسفل وهذا يتطلب إجراءَ تجاربَ ضخٍّ لتحديد هذه الغزارة، الأمر الذي نأمل من الجهات المعنية القيام به بناء على هذه المعطيات.

هـ – فتحة السينوتي في دوار بداد: يشاهد في الجدار الصخري (جدار صلنفة) الموجود في منطقة دوار بدادا عدة فتحات شبه أسطوانية متقاربة ومتعاقبة على امتداد المجرى النهري، وهذه الفتحات المتجاورة مملوءة بالمياه الساكنة طيلة فصل الصيف (شكل 15)، وبالتالي فهي فتحات سينوتي متصلة مع نفق كارستي باطني تجري المياه خلاله، ويملك هذا النفق اتصالاً مع منطقة ابتلاع المياه التي تحدث في مقتطع تحت السطح الذي يبدأ إلى الشرق من دوار بدادا [8]. ونظراً إلى حصول تبادل مائي بين المياه الساكنة الموجودة في أول فتحة من جهة الشرق، ومياه النفق الكارستي في الأسفل، فإن المياه في هذه الفتحة تتجدد باستمرار، ويطلق السكان المحليون عليها اسم الغلينة الباردة (تعبير غلينة يستخدم لوصف حالة المياه الساكنة)، أما الفتحة التي تليها نحو الغرب فيطلقون عليها اسم الغلينة السخنة، مما يدل على عدم تجدد مياهها، أو أن التبادلَ المائيَّ ضعيف مع النفق في الأسفل، ولذلك ترتفع حرارة مياهها بالمقارنة مع الفتحة المجاورة.

الشكل رقم 15: فتحات السينوتي تملأها المياه الساكنة في دوار بدادا.

إن المياه الموجودة في فتحات سينوتي دوار بدادا، هي مياه محدودة الأهمية، وتتعلق بعملية ابتلاع مياه نهر الأبرش التي تحدث في بالوعة غبيط السيد، وبالوعة علي ريمة حيث يبدأ مقتطع تحت السطح الذي يستمر حتى منطقة ينابيع عيون الغار في الغرب [8].

ز- **فتحات السينوتي في أماكن أخرى من محافظة طرطوس:** يمكن من خلال الخصائص التي تتمتع بها فتحات السينوتي، ملاحظةُ وجودِ بعض هذه الخصائص التي تشير إلى وجود فتحة سينوتي في أماكن أخرى، هي:

1- نبع اللبوة: يقع هذا النبع في وادي نهر قيس إلى الغرب من قرية البريخية، وهو نبع جاف في أغلب أيام السنة (شكل 16، A)، ولكن بعد هطول الأمطار الغزيرة يتدفق بشكل نافورة غزيرة ترتفع حوالي المترين، أو أكثر (شكل 16، B)، مما يدل على حدوث عملية تخنيق للمياه داخل النفق الكارستي في الأسفل. كما يفيد السكان المحليون بأن تدفق المياه من نافورة هذا النبع يترافق مع خروج بعض الأسماك أحياناً. ومن الجدير بالذكر أن المياه الساكنة لا تشاهد في هذه السينوتي صيفاً لأنها موجودة تحت الحجارة التي تغلق الفتحة.

2- نبع جورة الحصان: يقع هذا النبع في القسم الأوسط من وادي نهر مرقية (إلى الشمال من قرية الوردية)، وهو نبع دائم تُستَغلُّ مياهه بنقلها إلى المنازل في القرى القريبة من الموقع. ويشير تدفق المياه الغزيرة من هذا النبع شتاءً إلى وجود فتحة سينوتي، كما يفيد السكان المحليون بخروج أسماكٍ من هذا النبع أحياناً؛ وبالتالي يقترح الباحث أن المياه المستثمرة حالياً من هذا النبع هي تلك المياه التي تخرج عن الطاقة الاستيعابية للنفق الكارستي في الأسفل. وأن استكشاف فتحة السينوتي في هذا المكان يتطلب المزيد من الدراسة.

الشكل رقم 16: موقع نبع اللبوة صيفاً أثناء جفافه حيث لا نشاهد مياه ساكنة (A)، المياه تتدفق بشكل نافورة غزيرة من نبع اللبوة بعد هطول الأمطار الغزيرة (B).

وكذلك تدلُّ المعطيات الحقلية التي توصل إليها الباحث إلى وجود فتحات سينوتي أخرى مخفية تحت سطح الأرض، مثل نافورة القبيسة إلى الشرق من قرية الجوبيات في وادي الصرامطة، والتي تدل على حدوث عملية تخنيق ضمن مجرى كارستي باطني. وكذلك الحفرة التي تخرج منها المياه شتاءً إلى الغرب من مفرق بيت كمونة، والرامة في حي الرادار والتي تسيل منها المياه شتاءً. والعديد من أماكن وجود النوافير في مناطق مختلفة.

وبالذهاب إلى شواطئ محافظة اللاذقية فإن الفتحة الكبيرة الموجودة في شاطئ صليب التركمان (برج اسلام) شمال اللاذقية هي أيضاً فتحة سينوتي تتصل في الأسفل مع أنفاق كارستية متشكلة ضمن صخور البالوجين (شكل 17، A)، كما أن الكهوف ذات الفتحات شبه الدائرية المجاورة لها على الشاطئ هي أيضاً فتحات أنفاق كارستية. ولكنْ جفت السينوتي في هذا المكان بسبب تعرض المنطقة لعمليات رفع تكتوني، وهي بذلك تشبه فتحة السينوتي الجافة والتي تسمى الشاطئ المخفي (أو شاطئ الحب)، الموجودة على شواطئ جزر ماريتا (Marietas Islands) في المكسيك (شكل 17، B).

الشكل رقم 17: فتحة السينوتي الجافة في شاطئ صليب التركمان (A)، الشاطئ المخفي في جزر ماريتا في المكسيك (B).

وبالتالي فهذه الفتحة ليست ثقباً انفجارياً ناتجاً عن عمل الأمواج كما حاول بعض الباحثين تفسير تشكلها لأن الهواء الناتج عن ضغط الأمواج مهما كان كبيراً لا يمكن أن يشكل فتحة بهذا الاتساع. لذلك نود الإشارة إلى أن بعض الكهوف الموجودة في الشواطئ الصخرية الكلسية قد تكون في الواقع كهوف كارستية تشكلت نتيجة تعرض المنطقة لعمليات كارستية سابقاً قبل تقدم خط الشاطئ ووصوله إلى المنطقة، ويمكن الاستدلال من الامتداد الكبير لهذه الكهوف تحت سطح الأرض واتصالها مع الدحول الكارستية على اليابسة، ومن خلال فتحاتها ومساراتها شبه المنتظمة على أنها كهوف كارستية الأصل. في حين أن الكهوف الشاطئية الناتجة عن الحت البحري وفعل الأمواج على الشواطئ الصخرية تكون عادة قليلة الامتداد، وهي تتشكل على امتداد مناطق الضعف (الفواصل الطبقة والشقوق)، وبالتالي تكون فتحاتها غير منتظمة الشكل، وهي تضيق نحو الداخل لتنتهي بعد عدة أمتار.

استخدام الإنسان القديم لفتحات السينوتي في المنطقة من أجل الحصول على المياه الجوفية: هناك حالة وحيدة تدل على قيام السكان المحليون القدماء في منطقة صافيتا (على غرار حضارة المايا) بالحصول على المياه الجوفية الموجودة من إحدى فتحات السينوتي التي تم تحديدها في سياق البحث (تحت بير الروزنة، شكل 8). إن الحفرة

الأسطوانية المعروفة محلياً باسم (بير الروزنة) هي في الواقع ليست بئراً من صنع الإنسان، وإنما هي بالوعة كارستية أسطوانية الشكل قطرها حوالي 2 متر. كانت مياه الأمطار تتسرب إليها عبر مغارة حفرتها المياه بين سطحي تطبق. ومن أجل أنْ يتمكنَ الإنسانُ من الوصولِ إلى مياه السينوتي الموجودة في الأسفل تم حفرُ تجويفٍ داخل الصخور بطول حوالي 15 متر، وعرض 2.5 متر، وعمق 4 أمتار (شكل 18، A). كما تم بناء قنطرة فوق بالوعة بير الروزنة الأسطوانية، وتركت فتحة مربعة الشكل (85 × 65 سم) بشكل روزنة في الوسط. ولقد طور الإنسان قديماً آلية معينة لرفع المياه من فتحة السينوتي الموجودة في الأسفل على عمق حوالي 20 متر، حيث تشير آثار الفتحات الصغيرة المحفورة في الجدارين الصخريين المتقابلين إلى استخدام آلة ميكانيكية لرفع المياه كانت ترتكز على أربع دعائم خشبية عرضانية، كما تشير آثار النحر التي تركتها الحبال المتحركة على حواف البئر وجدرانها إلى استخدام هذه الآلة الميكانيكية التي تحتاج إلى المزيد من الدراسة والتفسير (شكل 18، B). ومن الجدير بالذكر أنه لا تشاهد حالياً آثار لتجمع سكاني بالقرب من نبع الغمقة كان يستفيد من هذه المياه، ومن المحتمل أنها كانت تنقل إلى برج صافيتا.

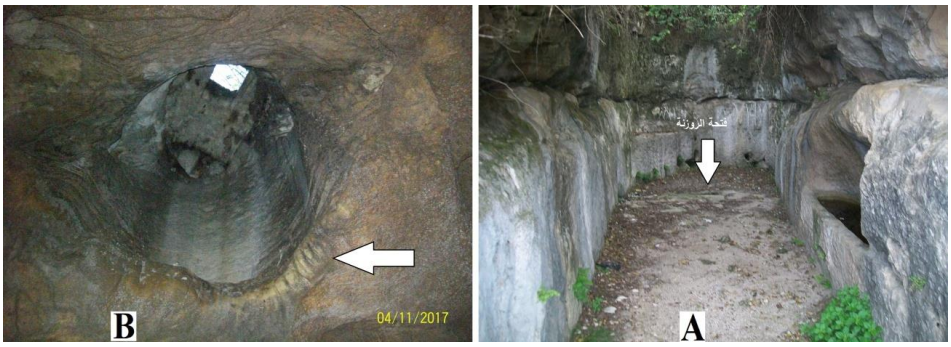

الشكل رقم 18: الحفرة التي وسعها الإنسان القديم حول بير الروزنة، ونشاهد جرن تجميع المياه على اليمين (A)، صورة لبير الروزنة من الداخل توضح أنه بالوعة كارستية تم إغلاق فتحتها جزئياً، ويشير السهم إلى آثار نحر الحبال لجدران البئر (B).

العلاقة بين فتحات السينوتي والينابيع تحت البحرية في محافظة طرطوس:

يمكن، بناء على معطيات الجيومورفولوجيا التطبيقية [12] الاستفادة من توزع مظاهر الكارست السطحي في تعقب أماكن التغذية ومحاور حركة المياه الجوفية وتحديدها. ويمكن بناء على ذلك تقسيم السفوح الجنوبية الغربية لسلسلة الجبال الساحلية إلى ثلاث مناطق رئيسية، وهي:

1- منطقة تغذية المياه الجوفية: وهي مناطق انتشار دولينات الانحلال الكارستي الموجودة ضمن صخور الجوراسي المتكشفة في مناطق القمم المرتفعة من الجبال الساحلية، حيث يشير وجود هذا النوع من الدولينات إلى مناطق التغذية، وإلى حدوث ابتلاع لمياه الأمطار، وذلك لأن دولينة الانحلال تتشكل عادة حول بالوعة كارستية. فصخور الجوراسي المتكشفة في هذه المناطق تكون مشققةً، ومعرضة، بشكل كبير، لعمليات الكارست بنوعيه السطحي والجوفي (خدوش، دحول، جوبات، أنفاق كارستية) وذلك نتيجة تعرضها لأكثر من دورة جيومورفولوجية كارستية [11]. كما أن هطول الأمطار بكميات كبيرة فوق هذه القمم المرتفعة يساهم بشكل كبير في حدوث التغذية الكبيرة للمياه الجوفية.

2- منطقة الجريان: وهي مناطق السفوح الغربية للجبال الساحلية، حيث تتحرك المياه الجوفية عبر الطبقات الصخرية التي تميل بشكل عام بزاوية حوالي 10 درجات نحو الغرب والجنوب الغربي [10]. أي تتم هذه الحركة من مناطق القمم الجبلية في الشرق، وحتى المناطق الساحلية في الغرب. ومن المهم جداً فهم حقيقة أن حركة المياه الجوفية تحدث غالباً عبر أنفاق وممرات كارستية محددة المسار تمتد داخل طبقات الجوراسي والكريتاسي، ويتوقف اتساعُ هذه الأنفاق على غزارة المياه، وعلى تاريخ تطور الكارست في المنطقة. ويمكن الاستدلال على وجود هذه المجاري من خلال انتشار دولينات الانهيار الكارستية [12]، وذلك لأن هذه الدولينات تتشكل نتيجة سقوط السقف فوق بعض

مناطق تلك المجاري (مثل هوة الصومعة، وهوة مشرفة كحلة)، كما أن المجاري (أو الأنفاق الكارستية) نفسها يمكن مشاهدتها في بعض المناطق (مثل الأنفاق الموجودة غرب كهف الحومة، أو تحت مغارة الشماميس، أو نبع الغمقة). وتتصل هذه الأنفاق عادة مع سطح الأرض بواسطة فتحات ابتلاع تساهم أيضاً بتغذيتها بالمياه المتسربة نحو الأسفل. وبالتالي فان حركة المياه الجوفية في هذه المنطقة لا تحدث بطريقة الارتشاح عبر كامل الطبقة الصخرية، كما ينظر إليها عادة من وجهة النظر الهيدروجيولوجية، وإنما تتم داخل شبكة أنفاق وممرات كارستية متشابكة ومتقاطعة بحيث يمكن القول: إنها أنهار تحت سطحية يزداد قطرها وتصريفها كلما اتجهنا نحو الغرب نتيجة تلقيها كميات متزايدة من مياه الأمطار المتسربة من الأعلى.

3- منطقة تصريف المياه الجوفية: يتم تصريف المياه القادمة من الشرق عبر شبكة الأنفاق الكارستية في المناطق المنخفضة الساحلية سواء على اليابسة، حيث تظهر بشكل ينابيع قرب شاطئية (مثل الينابيع الموجودة في عمريت، وبصيرة)، أو تحت سطح البحر بواسطة الينابيع تحت البحرية. حيث تمثل فتحات هذه الينابيع دحول كارستية (Sink Holes) تحولت حركة المياه فيها من دخول إلى خروج للمياه، مثل فتحات السينوتي الموجودة بالقرب من شواطئ شبه جزيرة يوكاتان تحت البحر الكاريبي. ويلعب انحدار هذه الأنفاق دوراً كبيراً في تحديد طبيعة تدفق هذه الينابيع وتلاقي المياه العذبة مع المياه المالحة، حيث يؤدي انحدار هذه الأنفاق القليل في شبه جزيرة يوكاتان (لا يتجاوز عشرات الأمتار) إلى حركة ضعيفة للمياه بداخلها؛ مما يؤدي إلى حدوث تطبق أثناء تلاقي المياه العذبة مع مياه البحر المالحة [3]. أما في المنطقة المدروسة فإن انحدار الأنفاق الكارستية يكون كبيراً (لأنها قادمة من أعالي الجبال) مما يتسبب بحركة قوية للمياه داخل هذه الأنفاق، وهذا يؤدي بالنهاية إلى تدفق المياه من الينابيع تحت البحرية بشكل نوافير غزيرة، ويمكن تمييز وجودها على سطح البحر بوجود منطقة شبه دائرية يكون سطح

المياه فيها شبه ساكن في حال كانت الأمواج البحرية ضعيفة (ولذلك تسمى منطقة اللاتموج). وبالتالي فان الينابيع تحت البحرية تتغذى بالمياه العذبة من خلال ممرات كارستية تمتد بشكل أنهار باطنية قادمة تحت سطح الأرض من المناطق الجبلية (شكل 2، وشكل 19)، وليس بتسربها عبر فوالق لتتجمع في منطقة الينابيع (شكل 20)، كما يفترض بعض الباحثين [5]، ومسار هذه الأنهار الباطنية يكون عادة تحت الأودية النهرية الرئيسية التي تصب في البحر، كما يمكن تحديده من خلال تتبع فتحات الابتلاع الكارستية، وفتحات إعادة التدفق والينابيع التي تربط هذه الأنفاق مع سطح الأرض. وبالتالي نقترح أنه يمكن الاستفادة من المياه الجوفية التي تخرج من هذه الينابيع بقطفها من المناطق الساحلية قبل دخولها تحت سطح مياه البحر، أو من فتحات السينوتي التي تظهر فيها هذه المياه أثناء حركتها نحو الغرب عبر هذه الأنفاق. ولذلك نأمل أن تولي الجهاتُ المختصَّةُ الاهتمامَ الكافي لوجهة النظر التي نقدمها في هذا البحث والمبادرة إلى الاستفادة من هذه المياه.

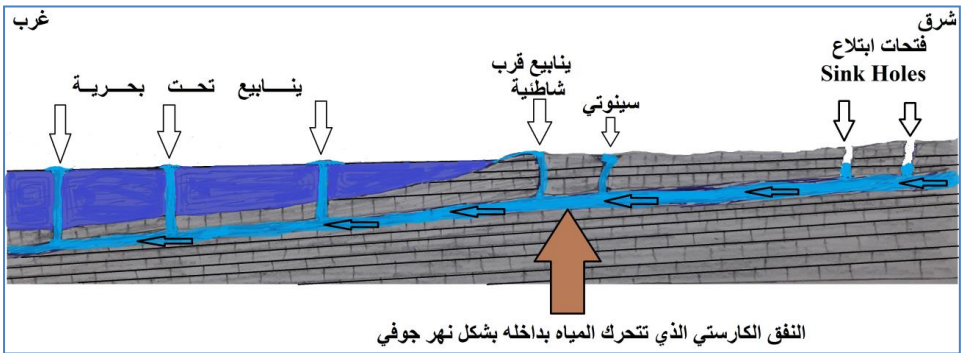

الشكل رقم 19: رسم تخطيطي يوضح كيف تأتي المياه عبر أنفاق تحت سطحية من الجبال الساحلية لتنصرف خلال الينابيع القرب شاطئية أو تحت البحرية. وهذا الشكل يقدم تفسيراً أفضل لتغذية الينابيع تحت البحرية بالمياه من الشكل (20) الذي يفسر قدوم مياه الينابيع تحت البحرية عبر خطوط الفوالق.

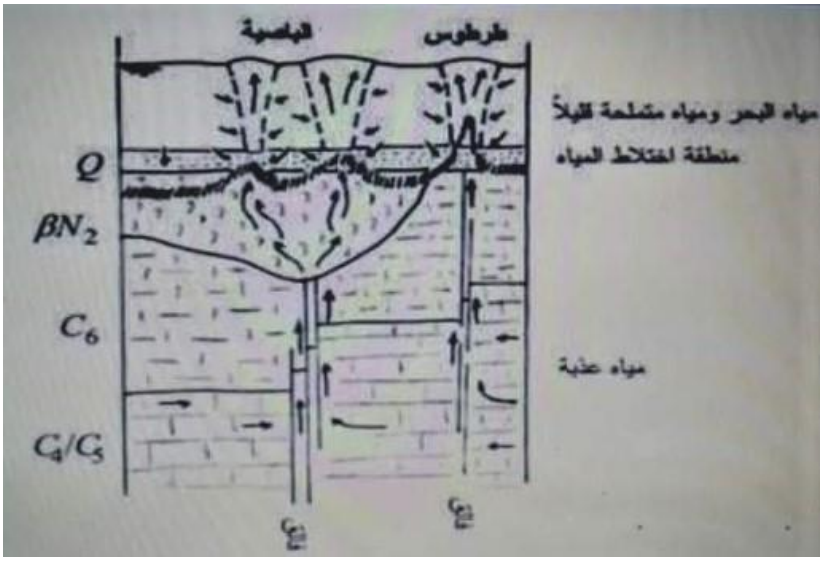

الشكل رقم 20: مخطط يقترح تجمع مياه الينابيع تحت البحرية من كل الاتجاهات وقدومها عبر الفوالق لتخرج عبر فتحة النبع [5].

3- الاستنتاجات والتوصيات:

1- يمكن تسمية الفتحات المملوءة بالمياه الساكنة في نبع الغمقة، ومغارة الشماميس، وكهف الحومة، ودوار بدادا، فتحات سينوتي، تشبه تلك الموجودة في شبه جزيرة يوكاتان، ومناطق أخرى من العالم.

2- تدل المياه الساكنة التي تملأ فتحات السينوتي على اتصالها في الأسفل مع مياه متحركة داخل الأنفاق الكارستية الباطنية. وإن ظهور هذه المياه الساكنة يتعلق بظاهرة امتلاء الوعاء الكارستي في الأسفل.

3- إن مستوى ظهور هذه المياه الساكنة متغير، وهو يمكن أن يرتفعَ، أو ينخفضَ، ويتعلق ذلك بمقدار (أو شدة) عملية التخنيق الحاصلة نتيجة حركة المياه داخل الأنفاق الكارستية الباطنية.

4- في حال حدوث عملية تخنيق شديدة داخل هذه الأنفاق الكارستية فان المياه التي كانت ساكنةً في فتحة السينوتي سوف تتحول إلى مياه متحركة (تصبح فتحة

السينوتي نبعاً مؤقتاً)، وقد تصبح هذه الفتحة نافورة شديدة التدفق قد تستمر عدة أيام، أو عدة أسابيع، مثل نافورة نبع الغمقة [7]، ونافورة كهف الحومة.

5- يمكن ضخ المياه الساكنة من هذه الفتحات، وسوف يسبب ذلك انخفاض مستوى المياه الساكنة، ويتعلق مقدار هذا الانخفاض بغزارة الضخ، وبحدوث عملية توازن بين كمية المياه المأخوذة، مع كمية المياه القادمة إلى الحفرة.

6- إن المياه تأتي إلى الينابيع تحت البحرية عبر شبكة من الأنفاق الكارستية قادمة تحت الأرض من الجبال الساحلية السورية في الشرق، وبالتالي يمكن الكشف عن هذه الأنفاق والحصول على المياه الجوفية منها قبل دخولها تحت سطح البحر مما يوفر كميات كبيرة من المياه الجوفية دون الحاجة لحفر آبار عميقة.

7- نقترح إجراء تحاليل كيميائية لتحديد نوعية المياه الساكنة الموجودة في فتحات السينوتي في الأعلى، ومقارنته مع تحاليل لنوعية المياه المتحركة عبر الأنفاق الكارستية في الأسفل.

8- نأمل من الجهات المعنية، وفي ظل الأزمة الكبيرة والنقص الحاد للمياه الجوفية التي تعاني منه التجمعات السكانية في المنطقة، أن تولي نتائج هذا البحث الاهتمام الجدي والاعتماد عليه في تحديد مصادر غزيرة للمياه الجوفية بتكلفة زهيدة.

Reference

[1]. MUNRO, P. G; ZURITA M. M. 2011 - The Role of Cenotes in the Social History of Mexico's Yucatan Peninsula, Environment and History 17.4 , 583-612 p.

[2]. ABDULSALAM, A. 1980 – Geomorphology. Almatpah Aljadedh, Damascus, Syria, 606 P. (In Arabic).

[3]. SCHMITTER-SOTO, J. J; et al. 2002 - Hydrogeochemical and biological characteristics of cenotes in the Yucatan Peninsula (S.E Mexico). Hydrobiologia 467.1 , 215-228 p.

[4]. Karl, V; Devos, F. 2022 - Use of cenotes and the cave environment by mammals on the Yucatán Peninsula, Mexico. Biotropica , 00, 1 - 12 p.

[5]. Sharif, B. H. 2009. A Contribution to the Study of Submarine Springs in the Syrian Coast, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Engineering Sciences Series Vol. (31) No. (2) 21- 41 p. (In Arabic).

[6]. KABER, Y. 2003 - Evaluation and Development of Water Resources at Al-ABrash Basin, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies – Basic Science Series, Vol. (25) No.15, 151 – 168. (In Arabic)

[7]. IBRAHIM, S. 2018 - Geomorphological Study of the Karstic spring "Al Gamka" "North of Safita", Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies – Arts and Humanities, Vol. (40) No.2, 354 – 373. (In Arabic)

[8]. IBRAHIM, S. 2022 - A field study to the more important Karstic Geomorphological aspects in "Alabrash" river basin, Tatous

University Journal for Research and Scientific Studies – Arts and Humanities, Vol. (6) No.5. (In Arabic).

[9]. GEOLOGICAL MAP OF SYRIA. 1979. (Safita sheet), scale $\frac{1}{50.000}$ And Explanatory notes. Damascus: Directorate of geological survey and studies. (In Arabic).

[10]. HUSAEN, K. M. 1978– Regional Geology of Syria (2). Damascus University Publication, Syria, 452 Pages. (In Arabic)

[11]. IBRAHIM, S. 2017- Geomorphological Study of the Karstic Polje in Ein Alshams “North Eastern of Safita”, Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies – Arts and Humanities, Vol. (39) No.5, 59 – 78. (In Arabic)

[12]. HASAN, S. 2004 - Principles of Geomorphology. Daralmassira for press, Amman, Jordan, 512 p. (In Arabic)

السفارات العربية ـ البيزنطية في العصرين الراشدي والأموي

الدكتورة: ناهد محمود حسين

كلية الآداب – قسم التاريخ – جامعة دمشق

الملخص

السفارة من أقدم وسائل الاتصال؛ لأن الإنسان مدني الطبع، فلا يمكن لأي فرد من أفراده أن يعيش منفرداً عن الآخرين، منعزلاً عنهم، سواء في الحياة الفردية أو الاجتماعية أو الدولية، ولا يختلف حال الأمم والشعوب عن حال الأفراد، وبذلك يظهر أن تبادل الرسالات والسفارات بين الأمم والدول حاجة ضرورية لتنظيم العلاقات في السلم والحرب، وفي مجالات سياسية وثقافية واقتصادية وحضارية وغيرها من حقوق الحياة الإنسانية.

فقد بودلت السفارات بين البيزنطيين والعرب في العصر الراشدي والأموي لأغراض شتى، منها ما يتعلق بالتجارة ومنها ما يتعلق بإيجاد حسن الجوار، وهذا الجانب يختلف عن العلاقات السياسية المقصورة على الحروب والحركات العسكرية. حيث يذكر البحث حركات السفراء والوفود سواء أكانوا من العرب إلى بيزنطة أو من بيزنطة إليهم في العصرين الراشدي والأموي.

كما أن السفراء كانوا يتحلون بجملة من الصفات حتى يتم تعيينهم من ذلك الحالة الصحية والفطنة والذكاء وسلامة اللغة وغيرها؛ لأن السفير هو صورة بلده ودينه لذلك كان هناك شروط لاختياره وضع قواعدها الرسول الكريم. وبقي الخلفاء المسلمون يتبعونها لاختيار سفرائهم، ولم تكن السفارة للدعوة لعقد الصلح فحسب، بل كانت لها مهام أخرى مثل: الدعوة للإسلام، التفاوض لعقد الصلح، أو حتى في بعض الأحيان للتجسس على العدو.

كلمات مفتاحية: السفارات، الرسل، البعثات، أموي، راشدي، صلح، اتفاقية، علاقات.

Arab-Byzantine Embassies in the Rashidun and Umayyad Eras

Abstract

The Embassy is one of the oldest means of communication; Because man is of a civil nature, so none of his individuals can live alone from others, isolated from them, whether in individual, social or international life. Relationships in peace and war, and in the areas of politics, culture, economics, civilization and other rights of human life.

The embassies were exchanged between the Byzantines and the Arabs in the Rashidun and Umayyad era for various purposes, including those related to trade and others related to finding good neighborliness, and this aspect differs from political relations limited to wars and military movements. Where the research mentions the movements of ambassadors and delegations, whether they were from the Arabs to Byzantium or from Byzantium to them in the Rashidun and Umayyad eras.

The ambassadors used to possess a set of qualities until they were appointed from this state of health, acumen, intelligence, soundness of language, and others. Because the ambassador is the image of his country and his religion, so there were conditions for his choice to set the rules for the Holy Prophet. And the Muslim caliphs remained following it to choose their ambassadors, and the embassy was not only to call for peace, but it had other tasks such as: calling for Islam, negotiating for peace, or even sometimes to spy on the enemy.

Keywords: Embassies, Messengers, Missions, Umayyad, Rashidi, Reconciliation, Agreement, Relations.

المقدمة

تتبوأ العلاقات الخارجية مكانة هامة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية على امتداد عصورها، فقد أقامت هذه الدولة علاقات متعددة مع عدد من دول العالم المعاصر لها، حتى صار لتلك العلاقات مجالات مختلفة سياسية وحربية واقتصادية وثقافية وأصبح لكل منها شأن ومراسم وتقاليد معينة. وتؤلف السفارات واحدة من أهم تلك العلاقات بين الدولة العربية الإسلامية وغيرها من الدول، فكان لها أهمية كبرى في الإسلام، فإنها وسيلة هامة لتنظيم العلاقات بين الأمم والشعوب والأفراد مما يزيد من عظمتها ومنزلتها أن الأنبياء كانوا سفراء بين الله وبين أممهم، والإسلام هو الدين الذي قدر السفارة حق التقدير وأعطاها الحرمة والكرامة، والشرف الذي لا يمس، وأحلها منزلة مرموقة، ومنزلة سامية، فقد وصلت السفارات الإسلامية في عصور مختلفة إلى بلاطات ملوك الصين والهند في الشرق وأباطرة الدولة البيزنطية في الشمال. فتعددت وفادات السفارات الإسلامية إلى تلك الدول واختلفت أهدافها ونتائجها وتفاوت إقامتها بين دولة وأخرى، وتفاوت أيضاً عدد أعضائها ومكانتهم في دولتهم، والاستقبال الذي لقوه في الدولة الموفدين لها، مما يستدعى الباحثين في التاريخ الإسلامي دراسة هذه السفارات بين الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة وبين كل دولة من الدول المعاصرة لها.

كما تُعَدُّ السفارات من أهم وأقدم الأنظمة التي عرفتها الدول، لأثرها الكبير في تمتين العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية، وتاريخ الدولة الراشدية والأموية حافل بالأحداث والتي تراوحت بين الحرب والسلم فيما بينهم وبين جيرانهم من الدول لهذا لا بُدَّ من إيجاد وسيلة للحوار من أجل نبذ الحروب وعقد المعاهدات، ولما كان للسفارات دور كبير في تطوير وتعميق العلاقات السياسية والاقتصادية فقد كلف الخلفاء الراشدين والأمويين من يمثلهم، فعدَّ السفير حلقة الوصل لتحقيق أهدافهم فجاءت هذه الدراسة بعنوان: "**السفارات العربية ـ البيزنطية في العصرين الراشدي والأموي**"، وجاء اختيار موضوع السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية مخصصاً بالسفارات الراشدية والأموية إليها وذلك لدراسة جانب مهم في علاقة الدولة الراشدية والأموية بإمبراطورية عظيمة عاصرتها وهي الدولة

البيزنطية التي كانت إحدى دول العالم الكبرى آنذاك، ومن ثم تتبع العلاقات وتحليلها قدر الإمكان وفق المتاح في المصادر والمراجع المختلفة.

فقد جرت بينهم السفارات وتبادلت الوفادات والمتاجرة لفترة من الزمن تعاقبت خلالها فترات الحرب ووفادات السفارات وتفاوتت في دوافعها ونتائجها ومراسم استقبالها وموقف البيزنطيين منها إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالسفارات. وهي موضوعات تحتاج إلى دراسة تاريخية تبرزها وتوضحها وتجمع شتاتها وتقارن بينها وتحلل أهدافها.

أهمية البحث:

تُعَدُّ دراسة السفارات موضوعاً بالغاً الأهمية في دراسة التاريخ السياسي للدولة الراشدية والأموية، حيث يعكس مدى التواصل الفكري أو المعرفي بين المسلمين وبيزنطة؛ إذ أن تلك السفارات كانت لسان حال السلطة في الدولة العربية الإسلامية وما يناظرها، فكان اتصال العرب بغيرهم عن طريق التجارة والحروب، لذلك مثلت تلك السفارات صورة مشرقة من الحوار السياسي والدبلوماسي. كما أنه يوضح لنا مدى التطور السياسي الذي شهدته الحضارة الإسلامية في فترة تُعَدُّ من أهم فترات التاريخ الإسلامي، دون أن ننسى أن السفارة والدبلوماسية الإسلامية مثلت صورة عن التعامل المنبثق عن تربية أخلاقية إسلامية وضع أسسها الرسول عليه الصلاة والسلام، أضف إلى ذلك أن تلك الرسائل والسفارات التي بُعثت في العصرين الراشدي والأموي حملت لنا الكثير من المعلومات والحقائق التاريخية لتلك الفترة الزمنية.

إشكالية البحث:

سيتم في هذا البحث إثارة العديد من التساؤلات:

- **ما هو الدور الذي لعبته السفارات في تمتين الروابط وتعزيزها بين الدولة الراشدية والأموية وبيزنطة؟**
- **إلى أي مدى نجحت الدولة الراشدية والأموية في استخدام السفارات والتقارب مع الدول المجاورة لها؟**
- **هل نجح حكام العرب في استخدام الدبلوماسية لغرض الاستقرار في بيزنطة؟.**

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الاستقرائي والتحليلي في دراسة الأصول والمصادر الكتابية الذي يعتمد على قراءة النصوص بشكل يساهم في تقديم المعلومة من أجل الوصول إلى النتائج الصحيحة واستقراء كافة المعلومات الواردة في المصادر والمراجع والقيام بتحليلها. إذ إن المعلومات التي جاءت في المصادر غير كافية لذلك كان لا بدَّ من استقراء ما بين السطور وتحليل المعلومة لتقديمها بطريقة علمية مُبسَّطة بعيدة عن الركاكة.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والاستقصاء تبين أنه لا يوجد دراسة سابقة تفصيلية عن السفارات الراشدية والأموية إلى بيزنطة على الرغم من كثرة الدراسات التاريخية التي تبحث في العلاقات السياسية للدولة الراشدية والأموية إلا أن الجانب الدبلوماسي وتاريخ النظم السياسية لم ينل بعد القسط الوافر من البحث والتحقيق.

أهداف الدراسة:

تفتقر المكتبة العربية إلى أبحاث أكاديمية تعالج موضوع السفارات الراشدية والأموية إلى بيزنطة، حيث ركزت أغلب الدراسات على صفات الرسل وواجباتهم ومهامهم وحقوقهم وواجباتهم وأهملت الخوض في تفاصيل السفارات لذلك فإن البحث يهدف إلى أن يكون إضافة علمية إلى المكتبة العربية وأن يقدّم للباحثين في مجال التاريخ الإسلامي مادة علمية أولية.

أولاً: معنى السفارة لغة واصطلاحاً وأدلة مشروعيتها

شهد العصرين الراشدي والأموي تنوعاً في العلاقات مع الدول المجاورة لهم، فكان لا بد من نظام دبلوماسي لإضفاء صيغة رسمية لهذه العلاقات، وشكلت السفارة أهم صور هذا التواصل والحوار السياسي، وهي من الوظائف المهمة في التاريخ الإسلامي ولذلك يجب التعرف على معنى السفارة لغة واصطلاحاً.

1- **معناها لغة:** كلمة مشتقة من سَفَرَ، أَسْفِرُ سَفَارَةً، أي كشف ما في قلبِ هذا وقلبِ هذا ليصلح بينهما[1]، والسَّفير هو الرَّسول المصلِحُ بين القومِ، والجمعُ سُفَراءُ[2]، ويقال: سَفَرَ بين القوم سِفَارة فهو سَافِر وسَفير إذا سعى في الإصلاح، أو أَصْلح بين النّاس لأنه أزال ما كان بينهم من عداوة وخلاف[3]. وفي حديث عليٍّ أنه قال لعثمان ﷺ: "إن النَّاس قد اسْتَسْفَرُوني بينك وبينهم" أي جعلوني سفيراً[4]. كما تدل على الانكشاف والجلاء، لأن الناس ينكشفون عن أماكنهم[5]. وكذلك وردت اللفظة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

---

[1] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت، 711هـ/1311م): لسان العرب، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ/1993م، ج4، ص370.

[2] الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت، 666هـ/1267م): مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، ط2، بيروت، صيدا، 1420هـ/1999م، ص148؛ المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت، 770هـ/1368م): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م، ج1، ص278؛ الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب أبو طاهر (ت، 817هـ/1414م): القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 1426هـ/2005م، ص408؛ القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت، 821هـ/1418م): صبح الأعشى وصناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج6، ص15.

[3] العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين الحنبلي (ت، 616هـ/1219م): المشرف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم، تح: ياسين محمد السواس، دار الفكر، دمشق، 1403هـ/1983م، ج2، ص357؛ ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص370.

[4] ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، 630هـ/1233م): النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ/1979م، ج2، ص372؛ ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص370.

[5] ابن زكريا، أحمد بن فارس القزويني الرازي (ت، 395هـ/1004م): مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م، ج3، ص82؛ الزمخشري، جار الله محمود

﴿**وُجُوهٌ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**"﴾[1]. والسفارة هي النيابة أو الرّسالة، أي نيابة شخص ما عن الملك أو الحاكم إلى قوم أو أمم آخرين، وأصلها في اللغة الإصلاح، وتعني: التوجُّه إلى القوم عندما يكون خصام أو حرب بينهم للقيام بالصلح أو المهادنة على وجه التحديد[2].

2- أما **معناها اصطلاحاً**: المتتبع لمفهوم السفارة في اللغة يجدها لا تخرج عن مفهومها الاصطلاحي، فهي كلمة تُطلق على مكان إقامة السفير وجمعها سفارات، كما أنها تعني: إيفاد شخص معتمد للقيام بمهمة معينة إلى دولة ما لإحلال السلم والإصلاح بين الدول، أو حتى في داخل الدولة الواحدة، وهي أيضاً بعث ولي الأمر أو الملك أو الحاكم لشخص معتمد من قِبَله إلى جهة معينة لمباشرة مهمة معينة كان قد كلفه بها[3]. هذا التعريف يتفق على ما حفلت به السنة النبوية من وقائع وأحداث، وذلك يتمثل فيما أرسله النبي ﷺ من رسل، ويؤكد هذا المعنى ما كان عليه الحال في زمن الصحابة

بن عمر بن أحمد (ت، 538هـ/1144م): أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م، ج1، ص457-458.

[1] القرآن الكريم: سورة عبس، الآية 38-39.

[2] ضميرية، عثمان بن جمعة: السفارة والسفراء في الإسلام، الطائف، 1421هـ/2000م، ص25-26.

[3] الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت، 816هـ/1412م): كتاب التعريفات، تح: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403هـ/1983م، ص110؛ توفيق، عمر كمال: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م، ص118؛ ضميرية، السفارة والسفراء في الإسلام، ص27؛ حميدية، أمينة؛ عليان، ملكية: السفراء والدبلوماسيون في التاريخ الإسلامي ما بين القرنيين 4 و6هـ/10 و12م، رسالة ماجستير، إشراف: فاطمة الزهراء مالكي، جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1435-1436هـ/2014-2015، ص10.

والتابعين، وما جاء في أقوال الفقهاء المسلمين[1]. ولذا فالسفير يقوم بدور الوسيط بين دولته والدولة التي أُرسِل إليها، فإذا أحسن أداء مهمته ساعد على تمكين العلاقات بين دولته وغيرها، أما إذا لم يحسن فإن ذلك يؤدي إلى خلل في العلاقات[2].

والسفير في الاصطلاح الحديث عرفه كثير من رجال العلم السياسي وعلماء القانون الدولي: "أعلى مراتب السلك الدبلوماسي، وهو رئيس بعثة سياسية تعرف بالسفارة"[3]. يقوم بتمثيل رئيس الدولة ذات السيادة لدى بلاط دولة أخرى، ويخضع لسلطانه سائر أفراد البعثة الدبلوماسية والموظفون في السفارة[4].

3-وبالنسبة **لأدلة مشروعية السفارة:** ثبتت مشروعية السفارة بالكتاب والسنة والإجماع، ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدل على مشروعيتها، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود**﴾[5]. وجاء في تفسير العقود أنها ستة، منها: عقد الحلف ويراد به المحالفات والمعاهدات[6]. ولا شك أن عقدها يتم بواسطة السفارات، ولما أفادت هذه الآية جواز المعاهدات ومشروعية عقدها، فإن عقدها يكون مشروعاً وجائزاً[7].

---

[1] الكتاني، محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي (ت، 1382هـ/1962م): نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط2، بيروت، د.ت،ج1، ص180.

[2] المهيري، سعيد عبد الله حارب، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، دراسة مقارنة، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1416هـ/1995م، ص290.

[3] عطية الله، أحمد: القاموس السياسي، دار النهضة العربية، ط3، القاهرة، 1968م، ص624.

[4] الكيالي، عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ج3، ص206-207.

[5] القرآن الكريم: سورة المائدة، الآية 1.

[6] الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (ت، 370هـ/980م): أحكام القرآن، تح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ/1994م، ج3، ص286.

[7] سفر، حسن بن محمد: السفارات في النظام الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز، 1417هـ/1996م، ص12.

وقال الله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾[1]، هذه الآية توضح أن الله يخبر الرسول ﷺ أنه بُعث لكافة الناس دون تمييز[2]. وقال جَلَّ شأنه مخاطباً رسول الله ﷺ: ﴿**وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون**﴾[3]. أي إلى جميع الخلائق من العرب والعجم[4].

وأما السنة فإنها تضمنت الكثير من التصرفات النبوية والأحاديث التي تدل على مشروعية السفارة، وذلك من خلال الكتب والرسائل التي حملها سفراء النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها، فقد أخرج النبي ﷺ رسله إلى الحارث الغساني ملك الحيرة، والحارث الحميري ملك اليمن، والمقوقس عظيم القبط، والنجاشي ملك الحبشة، وهرقل قيصر الروم، وكسرى ملك الفرس[5]. كان النبي ﷺ أول من أوفد السفراء في الإسلام وأول من استقبلهم وأعطاهم الأمان واحترم المواثيق والعهود[6]. وبطبيعة الحال فإنّ الرّسول ﷺ لا يمكنه تبليغ رسالة ربه لكل الأمة مباشرة، ولهذا كان لزاماً عليه أن يبعث رَسُلاً إلى مختلف الأمم لإيصال تعاليم ربه. وهذا دليل على مشروعية إيفاد الرسل والسفراء إلى مختلف الملوك.

ثانياً: صفات السفراء وطرق اختيارهم

نظراً لأهمية الرسل والسفراء والمبعوثين فقد أولت الدولة العربية الإسلامية عناية فائقة لحسن اختيارهم وتدريبهم على أصول العلاقات وحسن المعاملة، وضبط النفس وغير ذلك

---

(1) القرآن الكريم: سورة الأنبياء، الآية 107.

(2) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشيِّ الدِّمشقيِّ (ت، 774هـ/1372م): تفسير القرآن العظيم، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م، ج5، ص338.

(3) القرآن الكريم: سورة سبأ، الآية 28.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن، ج6، ص458.

(5) خطاب، محمد شيث: سفراء النبي ﷺ، دار الأندلس الخضراء، مؤسسة الريان، ط1، السعودية، بيروت، 1417هـ/1996م، ص40.

(6) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص12-13.

من الصفات، ووضعت لهم شروطاً وقواعد مختلفة يجب على المرشح لتولي السفارة أن يستكملها ليكون صالحاً للقيام بهذا العمل[1]. وقد كان الخلفاء والأمراء المسلمين يتشددون في اختيار سفرائهم، لأن السفير ليس فقط ممثلاً سياسياً لدولته، بل هو ممثل للإسلام وصاحب دعوة مأمور بتبليغها بأحسن الوجوه والطرق، فشخصية السفير المتصفة بالأمانة والخلق والتقوى هي عامل أساسي في انتشار هذا الدين[2]. فإذا حسن تصرفه وسلوكه فإنه يحسن لدينه ولدولته ولنفسه، أما إذا ساء تصرفه فإنه يعطي صورة سيئة خاطئة عن الإسلام[3]. وحرصت الدول منذ القديم على اختيار سفرائها من أفضل الرجال إليها،لأن السفير يمثل الخليفة الذي أرسله، فهو ينطق بلسانه وينوب عنه في مهامه[4]. قال الثعالبي: "اعلم أن الأيدي بأصابعها والملوك بصنائعها، وإن وزير الملك عينه، وأمينه أذنه، وكاتبه نطقه، وحاجبه خلقه، ورسوله عقله، ونديمه مثله، بهم تستقيم الأعمال وتجمع العمال ويقوى السلطان وتعمر البلدان، فإن استقاموا استقامت الأمور وإن اضطربوا اضطرب الجمهور"[5].

وهناك طريقة تتبع لاختيار السفراء من خلال تدريب المرشحين لتولي أعمال السفارة، ثم عقد اختبار لهم لاختيار من يستطيع أن يؤدي مهمة السفارة، وقد أنشأ لهذا الأمر ديوان سُمي "ديوان الرسائل" يختص بتدوين الرسائل والمكاتبات وحفظ الوثائق والمراسلات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول المجاورة[6]. ويعد ديوان الرسائل من أهم الدواوين،

---

(1) المهيري، العلاقات الخارجية، ص294.

(2) نجم، جمال أحمد جميل: أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، إشراف: جمال حشاش، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2008م، ص23.

(3) المهيري، العلاقات الخارجية، ص298.

(4) المهيري، العلاقات الخارجية للدولة، ص294، 297.

(5) الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت، 429هـ/1037م): الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1327هـ/1909م، ص62.

(6) المهيري، العلاقات الخارجية، ص295.

الدواوين، فقد كانت ولايته تسند لكُتاب عرفوا بسعة الأدب وبلاغة اللسان وجمال الصورة ورفعة النسب وحدّة الذكاء وصدق الحسب ولطف المذهب وغيرها من الصفات[1]. وقد كان لصاحب منزلة رفيعة عند الخلفاء، وفي وصف القلقشندي: "أنه ليس في منزلة خدم صاحب السلطان والمتصرفين في مهماته أخصمن كاتب الرسائل، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ولا غنى له عن مفاوضته وآرائه..."[2]. وهو الذي ينشئ المكاتبات الصادرة من الخلفاء إلى الملوك والأباطرة ويساعده كتّاب حاذقين في تحرير الرسائل ومراجعتها، ولهذا لا غرابة إن جاءت رسائل المسلمين إلى أباطرة الدولة البيزنطية بليغة دقيقة في معانيها ومقاصدها[3]. وكانت هذه الرسائل تكتب باللغة العربية على أفخر أنواع الورق لاسيما البغدادي الذي كانت تكتب عليه المصاحف لجودته. وأسلوب هذه الرسائل فصيحاً واضحاً تختلف عباراته حسب الدولة الصادرة منها ومكانة الإمبراطور الموجهة إليه، ولا تخلو من عبارات الثناء والتمجيد والمجاملة للأباطرة وتذكيرهم بالعلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين أجدادهم وبين المسلمين. ويشار في آخر الرسالة إلى اسم السفير ومكانته في دولته وذكر الهدايا التي يحملها للإمبراطور ويوقع عليها الخليفة[4].

إذن فالسفارة مهمة خطيرة لا يحق لأي شخص ممارستها والقيام بها، فقد كان الرسول ﷺ القدوة الحسنة في اختياره لرسله وسفرائه من أهل المكانة والنسب وممن يتصفون

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت، 808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1988م، ج1، ص306؛ الخلف، سالم بن عبد الله: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، المدينة المنورة، 1424هـ/2003م، ص338.

(2) صبح الأعشى، ج1، ص101.

(3) الرحيلي، سليمان: السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية "سفارات الدولة العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس، مكتبة التوبة، الرياض، 1414هـ/1993م، ص36-37.

(4) الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص39-40.

بالذكاء والفطنة، والقدرة على أداء المهمة الموكلة إليهم على أكمل وجه[1]. وجرت العادة بعد عصر الرسول ﷺ على اختيار السفراء من فئات معينة، وتكلم الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عن صفات الرسل فقال: "يؤذن لكم فيقدم أحسنكم اسماً، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجهاً، فإذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم، وكانت أعين الملوك تسبق إلى ذوي الرداء من الرسل..."[2].

ومن اهتمام المسلمين باختيار السفراء إن الخليفة يقوم باختيارهم واختبارهم بنفسه حتى يطمئن إلى حسن أدائهم لمهماتهم. ومثال ذلك اختيار الخليفة عبد الملك بن مروان لعامر بن شرحبيل الشعبي رسولاً إلى ملك الروم وكان أيّة من الفهم والذكاء والعلم، حتى حسد ملك الروم العرب عليه وحاول إغراء عبد الملك بقتله[3]. وكان عبد الملك إذا ولّى رجلاً بريداً، سأل عن صدقه وعفته، وقال: "إن كذبه يشكك في صدقه، وشرّه يحمله على كتمان الحق، وعجلته تهجم به على ما يندمه ويؤثمه"[4]. قال ابن الفراء: "يجب على السائس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له،.."[5]. فالسفير واجهة لدولته ومعد لمقابلة الملوك والأمراء ولا بد أن تكون هذه الواجهة لائقة تبعث في النفس المسرة وتغرس فيها

---

(1) التابعي، محمد: السفارات في الاسلام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص22؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص22؛ نجم، أحكام الرسل، ص21–22.

(2) التابعي، السفارات في الإسلام، ص90؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص24.

(3) ابن الفراء، أبو عليمحمد بن الحسين بن محمد بن خلف (ت، 458هـ/1065م): رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط2، بيروت، 1392هـ/1972م، ص48؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص23.

(4) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم القرطبي (ت، 463هـ/1070م): بهجة المجالس وأنس الجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تح: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م، ج1، ص278.

(5) رسل الملوك، ص 35.

روح المحبة وتقنع المحاورين بحسن التصرف[1]، وهذا مهم لنجاح مهمته ومظهره يدل على مدى الاحترام الذي يكنه المرسل للمرسل إليه في اختيار شخص كامل المواصفات[2]. ومن الصفات التي يراعيها المسلمين في اختيار سفرائهم:

1-**الصفات الجسمية أو الشكلية**: والتي تشمل حسن مظهر السفير من الاسم واللقب ووسامة الوجه وجهور الصوت وجمال المظهر وترتيب الهيئة فالنفس الإنسانية مطبوعة على تعظيم الجمال، مضطرة إلى تكريمه، لما لمظهره من دور كبير في نجاح مهمته[3]. ويؤكد هذا ما فعله الرسول ﷺ والخلفاء من بعده فقد كانوا يختارون رسلهم ممن عُرِفُوا بجمال المنظر وحُسن الخلقة، ومن سفراء النبيﷺ دحية الكلبي الذي كان أجمل أهل زمانه، فقد روي أنه قال: "إذا أبردتم إليَّ بريداً، فابعثوه حسنَ الوجهِ، حسنَ الاسم"[4]. وذلك لأن صورة السفير من نظافة الجسم والملبس الأنيق وترتيب الهيئة والتناسق في ألوان ملابسه ونوعيتها هي أول ما تقع على أنظار الناس ويجب أن تلائم أذواقهم

---

(1) الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص30؛ الفتلاوي، سهيل حسين: الدبلوماسية الإسلامية، دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الاردن، 2006م، ص176.

(2) عطية، أمال سالم: السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14)، أطروحة دكتوراه، إشراف: عبيد بوداود، جامعة اسطمبولي معسكر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، 1436-1437هـ/2015-2016م، ص22.

(3) الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص30؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص25؛ الفتلاوي، الدبلوماسية الإسلامية، ص171.

(4) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (ت، 360هـ/970م): المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د.ت،ج7، ص367-368؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص32.

وعاداتهم[1]. فليس مقبولاً أن يكون السفير دميم الصورة، أو مفرطاً في الطول أو القصر أو فاقداً لأحد أعضاء جسمه ومصاب بعاهة وتشويه أو مهملاً لهيئته وهندامه، وقال ابن الفراء: "يُستَحَبَّ في الرَّسول تمام القدر وعبالة الجسم، حتَّى لا يكون قميئاً، ولا ضئيلاً....."[2]. ويشترط في السفير أن يكون جيد اللسان فصيح البيان بليغ العبارة، فلم يكن مقبولاً عند المسلمين أن يكون السفير ألدغ اللسان سيء النطق، أو ضعيف الرأي متردداً حيناً ومتهوراً أحياناً، ولا يحسن الإجابة إن سئل. كما كانوا يراعون في السفير أن يكون أصيل النشأة، لأن عراقة النسب لا يصدر عنها إلا التصرفات الكريمة. يقول ابن الفراء: وليكن من أهل الشرف والبيوتات، ذا همَّةٍ عالية...."[3].

2- **الكفاءة:** من أهم الشروط التي يجب أن تتوفر في السفير وهي تأتي إلا من الخبرة والتدريب، وكان يشترط أن يكون السفير ذا سياسة فطنة وبصيرة نافذة، يتصرف بحنكة ودراية حسب المواقف دون أن يحييد عن مبادئ دولته، يجمع بين سياسة اللين والشدة المبطنة باللين[4]. فقد يتعرض السفير لمواقف أثناء أداء مهمته تحتاج منه إلى الفطنة والحذر والذكاء وحسن المناظرة حتى يستطيع أن يتصرف بما يعود عليه وعلى مهمته بالنجاح. قال ابن الفراء: "اختر لرسالتك في هُذْنَتِكَ وصُلْحِك ومَهَمَاتِك ومُناظرتك والنيابة عنك رجلاً حَصِيفاً، بليغاً، قليل الغفلة، منتهز الفرصة، ذا رأي جزل، وقول فصل، ولسان سليط..."[5]. ويحتاج إلى الصبر وعدم التسرع في اتخاذ القرار، ويحتاج إلى الحلم

---

[1] ابن الفراء، رسل الملوك، ص35؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية، ص30؛ الفتلاوي، الدبلوماسية الإسلامية، ص181؛ عطية، السفارات في المغرب الإسلامي، ص20-21.

[2] رسل الملوك، ص47.

[3] رسل الملوك، ص34؛ الرحيلي، سليمان: السفارات الإسلامية، ص31؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص25؛ الفرجاني، عمر أحمد: أصول العلاقات الدولية في الإسلام، دار اقرأ للطباعة والنشر، مكتب الجماهيرية، ط2، طرابلس، 1397هـ/1988م، ص287.

[4] ابن الفراء، رسل الملوك، ص59؛الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص32.

[5] رسل الملوك، ص33؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص306-307؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص28-29.

في مداولاته ومفاوضاته في بلاطات الدول المختلفة فقد يُستفز ويُستثار مراراً، لأن السفير يحاور ويناقش ويتعامل مع من لا يحترمه، كما يحتاج للتوفيق بين دولته والدولة التي أُرسل إليها في أمر شائك كعقد صلح أو غيره والصبر على مشقة السفر ووطأة الاغتراب واختلاف الظروف والمعاش عما تعوده في بلاده بين أهله، قال ابن الفراء: "يحتاج الرَّسول من الحلم وكظم الغيظ ما يحتاج إليه من الصَّبر على طول المكث وتراخي المقام...."[1]. ويجب أن يكون على ثقافة وعلم ومعرفة واطلاع واسع فإنه لسان من أرسله، وصورة من أوفده، وكتابه المفتوح، فإنه بذلك يعطي صورة جميلة عمّن أرسله، وإذا كان جاهلاً لا يعلم من الأمر شيئاً تخبط في حديثه وأساء في عرضه[2]. ويجب أن يكون على معرفة بمسائل العلوم المتنوعة والمعارف المختلفة كالفرائض والأحكام[3]. وأن يكون عالماً بأحوال الدين والدنيا ليوضح ويدافع ويجادل ويشرح ما قد يسأل عنه حول بعض القضايا، وعارفاً باللغة ليعرف دلالات الألفاظ ودقة معانيها، وعلى معرفة بلغة الدولة الذاهب إليها، وأن يكون على إطلاع واسع بأحوال دولته وعارفاً بدواوين الجند ليعرف مواردها ومركزها الاقتصادي[4]. فالسفير مرآة مرسله وقطعة من عقله وشطراً من رأيه قوة وضعفاً سياسة وغفلة علماً وجهلاً، يقول القائد الأموي المهلب بن أبي صفرة: "إن كتاب الرجل موضع عقله ورسوله موضع رأيه"[5]. ويقول الشاعر:

إن كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصيه[6]

---

[1] رسل الملوك ص 40؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص33؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص307.

[2] ابن الفراء، رسل الملوك، ص56؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص307.

[3] سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص25؛ المنجد، صلاح الدين: النظم الدبلوماسية في الإسلام، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983م، ص34.

[4] الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص33.

[5] ابن الفراء، رسل الملوك، ص53؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص34-35.

[6] ابن سلام، محمد بن سلَّام بن عبيد الله الجمحي (ت، 232هـ/846م): طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ج1، ص246؛ ابن سعيد الأندلسي

كما راعى البيزنطيون كل هذه الصفات في اختيار سفرائهم، فإنها لا تختلف كثيراً عن المسلمين من الكفاءة وحسن التصرف والذكاء واللياقة وسعة الثقافة، فقد كان الرومان يختارون سفراءهم من بين الخطباء وكان يسمونهم بالرسل، فقد كان مجلس الشيوخ هو الذي يعينهم ويزودهم بالتعليمات وأوراق الاعتماد[1].

3- **الأخلاق الحسنة**: إن حسن الخلق من أهم الشروط التي يتميز بها السفير لأنها أخلاق الإسلام التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ووضع أصولها الرسول ﷺ في سنته وصحابته الكرام في سلوكهم القائمة على الفضيلة والقيم[2]. وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾[3]. فحسن خلق السفير يحفظ مكانته الرفيعة واحترامه أمام الآخرين وتقديرهم له، ويعطي صورة حسنة عن دولته وعمّن أرسله ويمثل دينه ووطنه على أحسن وجه، ولذلك لا بدَّ للسفير أن يكون عفيفاً نزيهاً، أميناً، بحيث لا يقبل الرشوة، وأن يكون جيد اللسان لا تبدر منه البذية، كاظماً للغيظ، يؤثر الصدق في القول، يناظر كلًّاً بحسب ما يراه من صوابه وخطئه[4]. فأغلب المصادر تركز على صدق وأمانة السفير حيث يذكر الماوردي: "فلا يختار لرسالته إلا رائع المنظر كامل المخبر صحيح العقل حاضر البديهة ذكي الفطنة فصيح اللهجة.."[5]، ومن الضروري أن يتصف السفير بالأمانة بعيداً عن الطمع حتى لا يخون مرسله ويؤدي الأمانة التي أُمِّن عليها؛ لأن خيانة الأمانة من الصفات المذمومة في المسلم فهي من

(ت، 685هـ/1286م): نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تح: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، د.ت، ص223.

[1] الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص35؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص312.

[2] خطاب، سفراء النبي ﷺ، ج2، ص278.

[3] القرآن الكريم: سورة التوبة، الآية 119.

[4] المهيري، العلاقات الخارجية، ص314.

[5] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت، 450هـ/1058م): نصيحة الملك، تح: خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، ط1، الكويت، 1403هـ/1983م، ص276.

صفات المنافقين[1]، لان بعض الملوك يحاولون إغراء السفير بالمال لينقاد إلى ما يريدون، وبعض السفراء يضعف أمام المغريات ويخون، ويخبرنا التاريخ أمثلة كثيرة عن خيانة السفراء ومنها خيانة سفير الخليفة معاوية بن أبي سفيان عندما أرسله ليتفاوض مع إمبراطور الروم على الهدنة، ولما كانت الشروط التي وضعها معاوية قاسية، فقد أغرى ملك الروم سفير معاوية بالمال ليخفف منها فانقاد الرسول لإغراء المال، ولما علم معاوية فيما جرى واطلع على الاتفاق قال: ما أراك إلا عملت لصالحه، وعزل السفير[2]. كما يجب أن يلتزم بأخلاق الإسلام ويبتعد عن كل ما يسيء إلى سلوكه، كأن يقع فريسة للخمر أو النساء، لأنهما يفسدان السفير ومهمته[3]. ومن الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها السفراء القوة في قول الحقيقة حيث يقول ابن الفراء: "والرَّسول مع هذه الأمور محتاج من الإقدام والجرأة إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والركانة،..."[4].

4-<u>الإسلام</u>: يقوم السفير بمهمته نيابة عن الخليفة فهو يعقد المعاهدات والمفاوضات بشأن العلاقات الخارجية مع الدولة المبعوث إليها، ويطّلع على أمور وأسرار الدولة الإسلامية وشؤونها، وقد تكون له ولاية على بعض المسلمين الذين يعملون معه في السفارة، وإذا بعثت الدولة الإسلامية سفيراً غير مسلم من أهل الذمة مثلاً فإنها تضع معه من المساعدين المسلمين فتكون له ولاية على المسلمين وهذا غير جائز شرعاً[5]، لقوله تعالى: ﴿**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**[6]. كما وردت العديد من آيات القرآن الكريم التي تدل على عدم مشروعية تولية وإيفاد السفراء غير المسلمين، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ**

---

(1) حميدية؛ عليان: السفراء والدبلوماسيون، ص42-43.

(2) عفيفي، محمد صادق: تطور التبادل الدبلوماسي في الإسلام، مكتبة الأنجلو المصرية، 1905م، ص70؛ الفرجاني، أصول العلاقات الدولية في الإسلام، ص287-288.

(3) المهيري، العلاقات الخارجية، ص315؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص44.

(4) رسل الملوك، ص36.

(5) المهيري، العلاقات الخارجية، ص299؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص26.

(6) القرآن الكريم: سورة النساء، الآية 141.

تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا[1]. ولذلك فإن أهل العلم قالوا بعدم تولية غير المسلم لمهام السفارة، لأن السفير يقوم بحمل رسالة الإسلام فالنبي ﷺ عندما قرر بعث كتبه إلى مختلف الحكام بعثها مع سفراء يحملون جملة من الصفات أهمها الإسلام[2]. ومضت سنّة الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم في منع تولية غير المسلمين أمراً من أمور المسلمين[3]. فقد كتب الخليفة عمر ﷺ إلى عماله: "فإنَّه من كان قبله كاتبٌ من المشركين، فلا يُعاشره ولا يوازره ولا يجالسه ولا يعتضد برأيه، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يأمر باستعمالهم، ولا خليفتهُ من بعده". وورد عليه كتاب معاوية بن أبي سفيان: "أما بعد يا أمير المؤمنين فإن في عملي كاتباً نصرانياً لا يتمّ أمر الخراج إلا به، فكرهت أن أقلده دون أمرك. فكتب إليه: عافانا الله وإياك قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد: فإن النصراني قد مات والسلام"[4]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله في الآفاق: "فلا أعلمنَّ أنَّ أحداً من العمال أبقى في عمله رجلاً متصرِّفاً على غير دين الإسلام إلَّا نكَّلت به، فإنَّ محو أعمالهم كمحو دينهم"[5].

---

(1) القرآن الكريم: سورة النساء، الآية 144.

(2) حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص27.

(3) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت، 751هـ/1350م): أحكام أهل الذمة، تح: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، ط1، الدمام، 1418هـ/1997م، ج1، ص208؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص305.

(4) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج1، ص455؛ الجلعود، محماس بن عبد الله بن محمد: محمد: الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط1، د.م، 1407هـ/1987م، ج2، ص792–793؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص304.

(5) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج1، ص458؛ الشحود، علي بن نايف: الخلاصة في حكم الاستعانة بالكفار في القتال، ط1، 1432هـ/2011م، ص18.

ثالثاً: مراسم استقبال السفراء:

منذ أن قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة والمسلمين يستقبلون رسل غيرهم بالتقدير والإكرام، فكان النبي ﷺ يستقبلهم في الجامع الكبير بالمدينة[1]. وكان هو والصحابة يلبسون أحسن الثياب عند استقبالهم، ويحرص على إكرامهم ورعايتهم. واتبع الخلفاء الراشدون سَنَة النبي ﷺ، فلم يعرض عنها غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي آثر التمسك بالبساطة، وخير مثال واقعة سفير الروم الذي جاء يلقي عمر رضي الله عنه فوجده نائماً تحت ظل شجرة في بساطته المعهودة، فقال كلمته المأثورة: "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر"[2]. ولكن عمر رضي الله عنه كان في بعض المواطن غير متقيد بما انتهجه لنفسه، فقد خصص لمعاوية أثناء ولايته على الشام عشرة آلاف دينار في السنة، وذلك اعتباراً لمكانته بالمقارنة مع ولاة الفرس والروم أصحاب المظاهر العالية. فلا بد من زيادة راتبه حتى يظهر قوة الدولة الإسلامية ويَرهب الخصوم[3]. وعندما رحل عمر رضي الله عنه إلى الشام استقبله معاوية في أبهة الملك، فاستنكر عمر ذلك وقال لمعاوية: "أكسروية يا معاوية"، فقال: يا أمير المؤمنين أنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد

---

[1] سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص28؛ عفيفي، محمد الصادق: المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص228؛ الفرجاني، أصول العلاقات الدولية في الإسلام، ص289.

[2] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت، 505هـ/1111م): التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1409هـ/1988م، ص17؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص28-29.

[3] المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (ت، 845هـ/1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ/1998م، ج1، ص180؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص29؛ عفيفي، تطور التبادل الدبلوماسي، ص100.

حاجة، فسكت الخليفة ولم يخطئه أو ينهاه عن ذلك لما احتج عليه بمقصد، وهدف من مقاصد وأهداف الحق والدين[1].

وكان يحدث تبادل للهدايا بين الوفد القادم وبين المسلمين، ونذكر من ذلك تلك الهدية التي بعث بها هرقل قيصر الروم مع دحية الكلبي مبعوث الرسول ﷺ. وكذلك الهدية التي بعثت بها أم كلثوم بنت علي، وزوجة عمر بن الخطاب ﷺ إلى زوجة إمبراطور الروم، فبعثت زوجة الإمبراطور هدية فخمة إلى امرأة عمر ﷺ، ولكن عمر ﷺ أمر بمصادرة الهدية وردها إلى بيت مال المسلمين وأعطاها بقدر نفقتها[2]. وكان السفراء ومرافقيهم ينزلون ضيوفاً على الدولة الإسلامية في مكان خاص لهم، أياً كانت صفة الدولة التي أرسلتهم من الصداقة أو العداوة، وقد تجلت مظاهر الفخامة في الاحتفاء بالسفراء في العصر الأموي، فخصصت لهم داراً للضيافة ينزلون بها، وكان أول من بناها الوليد بن عبد الملك للوافدين عليه[3].

رابعاً: مهام السفراء:

كان للسفراء جملة من المهام عليهم القيام بها تختلف حسب ظروف الدولة في السلم والحرب والعلاقات التي تربطها بالدول المجاورة لها، ولذلك عندما يتم إيفاد الرسل والسفراء فإنه يقوم بإحدى المهام التالية:

---

[1] ابن خلدون، تاريخ، ص254؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص29؛ الصلابي، علي محمد: معاوية بن أبي سفيان ـ شخصيته وعصره، دار الأندلس الجديدة، ط1، مصر، 1429هـ/2008م، ص47.

[2] الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت، 310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، د.ت، ج4، ص260؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1407هـ/1987م، ج2، ص469؛ عفيفي، المجتمع الإسلامي، ص229.

[3] المنجد، صلاح الدين: معجم بني أمية، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1970م، ص191؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص29؛ الفرجاني، أصول العلاقات الدولية في الإسلام، ص289.

1- **الدعوة إلى الإسلام**: السفراء يقومون بمهمة عظيمة لدى الدول التي أُفدوا إليها تتمثل بنشر الدعوة الإسلامية وتبليغ رسالة الله وبيان فضائل هذا الدين، وقد استخدم النبي ﷺ السبل والأساليب كافة لتحقيق هذه الغاية. ويُعد الصحابي مصعب بن عمير أول سفراء الإسلام، فقد بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بعد بيعة العقبة الثانية، ليُعلِّمهم الإسلام ويقرأ عليهم القرآن، فانتشر الإسلام في دور الأنصار كلها[1]. وسارت العهود الإسلامية الأخرى على هذا المنهج فجعلت من الدعوة الإسلامية هدفاً لإرسال السفراء، فأثمر ذلك عن دخول زعماء ودول في دين الله وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية[2]. وهناك نوعية من المراسلات تتضمن جدلاً دينياً بين العرب والبيزنطيين، فقد كان الخلفاء العرب يبادرون إلى دعوة الملوك لاسيما البيزنطيين إلى اعتناق الإسلام، فيضطر هؤلاء إلى الرد عليهم في شكل حوارات دينية. أما الأباطرة البيزنطيين بعد هرقل لم يكترثوا كثيراً بالدعوة الإسلامية، واعتبروها خروجاً عن الكنيسة الأم[3].

2- فداء أو تبادل الأسرى: لما كانت العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي مبنية على السلم والحرب، ففي حالات الحرب يكون هناك أسرى بين الطرفين المسلمين وغير المسلمين، وهذا ما يجعلهم يطالبان باسترجاع أسراهم بمال أو نحوه، أو إطلاق سراحهم مقابل سراح عدد من أسرى الأعداء مثل ما فعله الرسول ﷺ في غزوة بدر فقد جعل فداء الأسير مقابل مبلغ من المال يتفاوت بحسب يسار الأسير وقدرة أسرته[4].

---

(1) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت، 230هـ/845م): الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1410هـ/1990م، ج3، ص87؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص36؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص290-291؛ عنان، محمد عبد الله: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، الناشر حسين العنان، ط5، القاهرة، 1417هـ/1997م، ص208؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص34.

(2) المهيري، العلاقات الخارجية، ص319.

(3) رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، ط1، بيروت، 1955م، ج1، ص237-239.

(4) ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد اليعمري الربعي (ت، 734هـ/1333م): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تح: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، ط1،

3-<u>الاستنفار للجهاد</u>: مارست السفارات الإسلامية دوراً كبيراً في صد العدوان الخارجي على البلاد الإسلامية. ومثال ذلك سفارة معاوية إلى الخليفة عثمان ﷺ عام 24هـ/644م، عندما جاءت الروم لتهجم على الشام، فكتب عثمان ﷺ إلى الوليد بن عقبة بإمداد معاوية بثمانية آلاف أو أكثر، فخرج ثمانية آلاف من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم[1].

4-<u>التفاوض</u>: المفاوضات مهمة لربط العلاقات الخارجية،وهي مفاوضات خاصة وغير رسمية ورسمية. فعندما استقر الرسول ﷺ في المدينة عقد صلحاً دائماً مع طوائف المدينة ووفق بين الأوس والخزرج، وأقر اليهود على دينهم وأموالهم[2]. وبعد ذلك استمرت السفارات تؤدي دورها في التفاوض لعقد المصالحات ومن ذلك صُلح عمر بن الخطاب ﷺ مع أهل أيليا[3]، وصلح معاوية مع الروم عام 42هـ/662م[4].

5-<u>عقد المحالفات</u>: قامت السفارات بدور كبير في عقد المحالفات للمحافظة على بقائها وسلامة كيانها من الأخطار التي تهددها وتتعارض مع مصالحها لا سيما التحالف بين الأمويين وملوك بيزنطة[5].

6-<u>تقوية الصلات وتوطيد العلاقات</u>: وذلك عن طريق نقل التهاني والتعازي، وكانت تسمى بسفارات المجاملات إذ جاءت بعد استقرار الدولة الإسلامية وتوقف الفتوحات وإبرام المعاهدات بين المسلمين وغيرهم، فعندما يتوفى أحد الحكام يتوافد رؤساء الدول أو

بيروت، 1414هـ/1993م، ج1، ص332؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، 38-39؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص37.

(1) الطبري، تاريخ، ج4، ص247-248؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص40-41.

(2) المهيري، العلاقات الخارجية، ص320؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص41-42.

(3) حميد الله، محمد الحيدر آبادي الهندي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط6، بيروت، 1406هـ/1985م، ص474.

(4) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت، 279هـ/892م): فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م، ص155؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص44.

(5) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص44-45؛ المنجد، النظم الدبلوماسية في الإسلام، ص112.

سفرائهم للاشتراك في الجنازة وتقديم التعازي[1]. كما كانت تسعى إلى توطيد العلاقات الدولية عن طريق المصاهرة بين الحكام لزيادة التقارب والترابط الأسري، وذلك ما عُرف بسفارات الزواج، ووُجد نوع من السفارات يهدف إلى إظهار الود والاحترام عُرف بسفارات الهدايا، التي حظيت باهتمام وعناية خاصة، للاعتراف بسيادة المرسل إليه واستمالة عطفه[2].

7-<u>التجسس</u>: كان الرسول ﷺ أول من استخدم السفراء للتجسس في الدولة الإسلامية، ومنهم رسله إلى بنو قُرَيْضة في غزوة الأحزاب للتأكد من بقائهم على العهد أو نقضه، وقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على خطى الرسول ﷺ عندما استخدموا سفراء يجيدون لغة العدو، لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات لاسيما في عهد الخليفة عمر ﷺ[3]. وفي العصر الأموي تم إرسال السفارات للتجسس لاسيما تلك التي بعثها يزيد بن عبد الملك سنة 102هـ/720م إلى بيزنطة، فقد عرفوا كيف تحمي بيزنطة سكانها المدنيين عندما يهاجموا المسلمين بإقامة ملاجئ تحت الأرض تسمى المطامير[4]، كما أن العدو كان يبعث برسله للتجسس على المسلمين مثل السفارة التي بُعثت في عهد معاوية من أجل التعرف على الاستعدادات التي يقوم بها المسلمين ضدهم، وغيرها من السفارات التي تهدف إلى معرفة أخبار الدولة الإسلامية[5].

8-<u>متابعة ومراقبة أحوال وظروف الدول التي يرسلون إليها</u>: يعمل السفير على تتبع ومراقبة حالة الدولة الموفد إليها ورفع تقارير عنها إلى دولته في جميع الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية...إلخ[6]. وذلك لحماية دولهم من أن تؤخذ على حين غرة دون

---

(1) التابعي، السفارات في الإسلام ص 51؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص323.

(2) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص46-48.

(3) حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص38-39.

(4) فرحات، كرم حلمي: تاريخ المخابرات الإسلامية عبر العصور، مكتبة الإمام البخاري، ط1، مصر، 1428هـ/2007م، ص337؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص39.

(5) فرحات، تاريخ المخابرات، ص350؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص39.

(6) المهيري، العلاقات الخارجية، ص322.

فكثير من الدول تظهر حسن النية والرغبة في المصالحة، ولكن حقيقة الأمر تعد العدة وتدرب الجيش وتسلحه استعداداً لخوض حرب جديدة[1].

9-التبادل الثقافي: اتسعت دائرة السفارات فشملت الإحاطة بكافة المعارف العلمية ونقل مناحي الثقافة إلى المسلمين، دون الاكتراث إلى ما يقف في سبيل ذلك من صعاب أو يعترضها من مخاطر ومشقات[2].

10-الصلح والمهادنة: عندما تقوم الحروب بين الدول ينتج عنها آثار كالأسرى والمفقودين والأضرار المادية، هذا يدفعهم للقيام بمفاوضات للصلح[3]. فقد قامت السفارات الإسلامية بدور كبير في جمع شمل الصف الإسلامي، وإزالة ما بين الحكام من نزاعات وخلافات وذلك وإجراء المصالحات بينهم[4].

11-الإعلام بتغيير الحاكم: شملت أغراض السفارة أيضاً أن ترسل الدول الإسلامية رسلاً إلى الحكام الآخرين تعلمهم بوفاة ملك وقيام آخر[5].

12-حماية مصالح دولته: عن طريق اتخاذ كافة الوسائل لتأمين حماية مواطني دولته المقيمين لدى الدولة الأخرى من أي اعتداء، كما يتخذ الأسباب التي تكفل لهم الوصول إلى مكان آخر يأمنون فيه[6].

خامساً: حقوق السفراء ومعاملتهم:

منح الدين الإسلامي السفراء الأمان والحماية لمجرد دخولهم دار الإسلام فلا يجوز التعرض لهم بالأذى أو القتل[7]. ولم يعرف السفراء حسن المعاملة من الاحترام والحماية إلا في الدولة الإسلامية، فلم يكن قبل الإسلام نظاماً ثابتاً لمعاملتهم، بل كان يتم وفقاً لما

---

(1) الفرجاني، أصول العلاقات الدولية في الإسلام، ص281-282.

(2) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص50.

(3) المهيري، العلاقات الخارجية، ص322.

(4) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص50.

(5) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص52.

(6) المهيري، العلاقات الخارجية، ص321.

(7) عطية، السفارات في المغرب الإسلامي، ص26.

تقره الدولة التي بُعث إليها، فإذا رأت في إكرامه مصلحة لها، كان نصيبه من المعاملة أحسنها، أما إذا رأت غير ذلك فإنها تعامله معاملة سيئة وتعذبه وتذله وتهينه، وتمتلئ صفحات التاريخ بنماذج من سوء المعاملة لاسيما زعماء الفرس والروم، فقد قام نقفور ملك الروم بحرق أوراق اعتماد سفير طرطوس على رأسه حتى أصيبت لحيته، وقال له امض ما عندي إلا السيف[1].

1- <u>الحرمة الشخصية</u>: هناك الكثير من الأمثلة الدالة على مظاهر تكريم وحسن معاملة السفراء، فقد أكرم الرسول ﷺ سفير قيصر حين جاء إليه في تبوك وقال له: "إنَّك رسول قوم وإنَّ لك حقاً، ولكن جئتنا ونحن مُرملون" فقال عثمان: "أنا أكسوه حُلَّة صَفُوريَّة، فقال رجلٌ من الأنصار: عليَّ ضيافته[2]. وللمبعوث الحق في ممارسة حريته الشخصية بما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية في الدول التي يوفد إليها. فلا يجوز لأحد في دار الإسلام الاطلاع على رسائلهم الشخصية أو السرية، لأن الشريعة الإسلامية تنظر إلى السفراء باعتبارهم مستأمنين في دار الإسلام، فلهم حق التمتع بما يتمتع به المستأمنين من حقوق[3].

2- <u>حرية التجارة والامتيازات المالية</u>: كفل الإسلام للمبعوث ممارسة العمل التجاري بشرط أن لا يترتب على ذلك إلحاق مفسدة بالمسلمين، كما يُعفى السفراء من العشور

---

[1] الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت، 748هـ/1348م):العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زعلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج2، ص93؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص292-293.

[2] ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (ت، 241هـ/856م): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1421هـ/2001م، ج27، ص245؛ كرمي، أحمد عجاج: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، دار السلام، ط1، القاهرة، 1427هـ/2007م، ص133.

[3] سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص32-33؛ الربيع، وليد خالد: الحصانات والامتيازات الدبلوماسية في الفقه الإسلامي والقانون الدولي (دراسة مقارنة)، جامعة الكويت، مجلة الفقه والقانون، ص18.

والضرائب، فلا يؤخذ منهم سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين عشوراً، وقال أبو يوسف: "لا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم، ولا من الذي أعطي أماناً عشراً، إلا ما كان معهما من متاع التجارة"[1]. وكان المسلمون يسمحون بدخول ما يحمله السفراء من أمتعة وغيرها معفاة من الضرائب، إلا أنه لا يسمح للسفراء بإدخال سلاح ونحوه أو مشروبات محرمة كالخمور لأنها محرمة في بلاد المسلمين ولا يسمح لهم بحمل سلاح ونحوه عند خروجهم[2].

3-**حسن المعاملة:** يجب أن يُعامل السفير بأحسن معاملة لأنه لا يمثّل نفسه وإنما يمثّل دولته ومن أرسله، من خلال احترامه السفير وتقديره والحفاوة التي يُستقبل بها وحسن القبول لما يحمل من رسالة، وكان النبي ﷺ قدوة في ذلك فقد أكرم سفير ملك الروم حين جاء إليه في تبوك. فكان يتم استقبالهم بكل صور الزينة والجمال وتهيئ لهم أسباب الراحة أثناء إقامتهم وظهر ذلك واضحاً في الدولة الأموية والعباسية[3].

4-**حرية العقيدة والعبادة:** يحق للدولة الإسلامية عرض الإسلام على من يفد إليها دون إكراه على اعتناقه، وكانت الوفود تفد إلى النبي ﷺ فيدعوها إلى الإسلام ولا يعنف أحداُ أو يلومه إذا لم يؤمن، فقد سمح ﷺ لوفد نصارى نجران بأداء شعائرهم الدينية في مسجد المدينة. كما كفل الإسلام للسفراء حرية العبادة والالتزام بدينهم وأداء شعائرهم الدينية بما لا يخل بالنظام الإسلامي على أن لا يظهر ذلك علناً[4].

---

[1] أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (ت، 182هـ/798م): الخراج، تح: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د.ت، ص205؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص32؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص324-325؛ الربيع، الحصانات والامتيازات، ص23.

[2] أبو يوسف، الخراج، ص206؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص45؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص31-32؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص330-331.

[3] المهيري، العلاقات الخارجية، ص325-326.

[4] ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت، 213هـ/828م): السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، القاهرة،

5- حرية التنقل والإقامة: يحق للسفراء ممارسة حرياتهم كاملة في التنقل داخل دار الإسلام، ولهذا تسعى الدول إلى تأمين إقامة الرسل والمبعوثين من خلال توافر أماكن الإقامة أو مساعدتهم في السعي للحصول على هذه الأماكن، والفقه الإسلامي لا يعارض حرية المبعوث في التنقل مع مراعاة الضوابط ومراعاة أحكام الحرم المكي من حيث عدم جواز دخول غير المسلمين إليها أو إقامتهم فيها[1].

6- حرية الاتصال: أعطى الإسلام للسفراء الذين يوفدون إلى الدولة الإسلامية الحرية التامة في العودة إلى بلادهم أو إلى من أوفدهم لتلقي التعليمات منه[2].

7- حرية المشاركة في الحياة الاجتماعية: لاسيما المناسبات كالأعياد والحفلات والولائم وغيرها للتعرف على طبيعة المجتمع وعلى المسؤولين وكبار الموظفين مما يساعده في أداء مهمته. والفقه الإسلامي لا يعارض هذه المشاركة ما دامت خالية من المخالفات الشرعية كاختلاط الرجال بالنساء وغيرها[3].

سادساً: واجبات والتزامات السفراء:

في مقابل ما قرره الإسلام للسفراء من حقوق فإنه من الطبيعي أن يترتب عليهم بعض الالتزامات التي يتطلبها أمن النظام الإسلامي وصيانة عقيدته وعلى هذا فإن الرسل والسفراء يلتزمون بالأمور الآتية:

1- **احترام المعتقدات الإسلامية وعدم التعرض لدين الدول المبعوث إليها:** وذلك بعدم فعل أي شيء يمس بالإسلام وتعاليمه وشعائره وتقاليده، وإذا كانوا من رسل الدول الإسلامية فإنهم يلتزمون باحترام تقاليد وعادات البلاد التي يذهبون إليها بشرط عدم مخالفة التعاليم الإسلامية، مثل السجود لرؤساء الدول التي أرسلوا إليها، وأكل لحم الخنزير

1375هـ/1955م، ج1، ص574؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص31-32؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص327-329؛ الربيع، الحصانات والامتيازات، ص19.

(1) سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص31؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص329؛ الربيع، الحصانات والامتيازات، ص20.

(2) المهيري، العلاقات الخارجية، ص331-332؛ الربيع، الحصانات والامتيازات، ص21.

(3) المهيري، العلاقات الخارجية، ص329-330؛ الربيع، الحصانات والامتيازات، ص22-23.

وشرب الخمر[1]. كما أن من واجب السفراء أن لا يتعرضوا لدين الدول التي يبعثون إليها بالنقد أو الاستهزاء أو السخرية واحترام العادات والتقاليد لأن ذلك يؤدي إلى سوء العلاقة بين الدولتين، وهذا في الوقت نفسه لا يمنعه من أداء دوره في الدعوة الإسلامية وبيان فضلها ومحاسنها[2].

2- **عدم التدخل في شؤون الدولة الخاصة المرسلين إليها واحترام قوانينها**: فقد عدوا التدخل في شؤون غيرهم نقضاً للعهد وغدراً يجب على المسلمين أن يتجنَّبوه، فلا ينبغي أن يحرضوا الحاكم على الرعية، أو أن يتصلوا بالأشخاص المعادين لحكام هذه الدول، أو إفساد الموظفين بالرشاوى أو غيرها[3].

3- **عدم إساءة استعمال الامتيازات**: السفير يتمتع بامتيازات كثيرة كالإعفاءات المالية والحصانة، فعليه أن يحترم هذه الامتيازات ولا يستغلها لمصلحته الذاتية ويتهرب من القوانين[4].

سابعاً: بوادر السفارات العربية الإسلامية إلى بيزنطة

إن التقارب بين الدول والمجتمعات يفرض التواصل من أجل التبادل وربط أواصر العلاقات بمختلف جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية وهذا ما يسهم مساهمة فعالة نحو التفاهم والبحث عن التطور والرقي الاجتماعي بنبذها للصراع والحروب والعمل على بناء الحضارات. فقد عرفت السفارة كنظام هام لربط العلاقات منذ الأزمنة الإنسانية، إذ ان الطبيعة البشرية تقتضي التعامل والتقارب، حيث قاموا بإرسال السفراء إلى بلاطاتهم الذين كانوا يعدون الممثلين الرسميين لدولهم في العهود اليونانية والرومانية وقد عرف العرب

---

[1] الزيد، صالح بن عبد الكريم: أحكام عقد الأمان والمستأمنين في الإسلام، الدار الوطنية لنشر الكتب، ط1، الرياض، 1406هـ/1985م، ص115؛ سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص33-34.

[2] عفيفي، المجتمع الإسلامي، ص228-229؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص333.

[3] سفر، السفارات في النظام الإسلامي، ص34؛ المهيري، العلاقات الخارجية، ص332-333.

[4] المهيري، العلاقات الخارجية، ص334.

نظام السفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والأمم والشعوب المجاورة بوصفها ثمة بديل للخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة العربية ولتبادل المنافع مع جيرانهم لاسيما في الشرق والشمال[1].

فقد اهتم الإسلام بتنظيم شؤون المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية، واهتم بتنظيم علاقة المسلمين بغيرهم من الشعوب والدول، حيث أن الدولة الإسلامية ليست دولة منعزلة أو مغلقة، بل هي دولة مفتوحة ومؤثرة وليست متأثرة بالآخرين؛ لأنها تحمل أعظم رسالة وهي رسالة الإسلام، وهي دولة عقيدة ودعوة، ولتأدية واجب الدعوة إلى الله كان على الدولة الإسلامية أن تمد جسور العلاقات الخارجية مع غيرها من الدول وفق المنهج الإسلامي حتى تتقرب هذه الدول حكاماً ومحكومين من هذه الدعوة وهذه الرسالة، ثم تحدد موقفها من تلك الدعوة إما بالاستجابة والدخول في عالم الإسلام أو بالمهادنة والسماح للمسلمين بتبليغ دعوتهم للناس، كما أمر الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة دون إكراه أو قهراً. وحين تقوم الدولة الإسلامية علاقات خارجية مع أية دولة؛ فإنها لا تقيم تلك العلاقات لتحقيق مصالح مادية أو تنظيم شؤون حياتها الخارجية. وإذا كان ذلك من أهدافها؛ إلا أنها تقيم علاقاتها الخارجية من أجل تحقيق مبدأ القيام بالدعوة إلى الإسلام، وفي ضوء تبليغ الناس رسالة الله[2]. فبعد انتشار الإسلام أصبحت السفارات وسيلة فعّالة من وسائل تنفيذ السياسة الخارجية للدولة الإسلامية التي وطد دعائم أركانها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﷺ، وتقوم على نشر تعاليم الإسلام وعقد المعاهدات مع الدول المجاورة[3]. وأول من سن السفارة في الإسلام الرسول ﷺ عندما بعث سفراءه ليحملوا رسائله إلى أباطرة البلدان القريبة من بلاد العرب وملوكها، فبعث سفراءه إلى كسرى ملك فارس وإلى هرقل عظيم الروم وإلى النجاشي ملك الحبشة وإلى المقوقس حاكم

---

[1] عبد الرحمن، عبد الرحمن محمد: الدبلوماسية الإسلامية، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، 2006م، ص33.

[2] المهيري، العلاقات الخارجية، ص5-6.

[3] عطية، السفارات في المغرب الإسلامي، ص34.

مصر يدعوهم إلى الإسلام[1]. وقد ازدهر هذا الاتصال في العصور الإسلامية التالية واتسعت أهدافه ليشمل قضايا الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم، وأصبح لهذا الاتصال رجاله ومراسمه وقواعده. فقد عرف تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية تبادل الوفود والسفارات منذ وقت مبكر في السنوات الأولى من قيام دولة الإسلام في المدينة في عهد الرسول ﷺ فقد أرسل عليه السلام وفداُ يحمل رسالته الشهيرة إلى قيصر الروم هرقل (610–641م) وكان رئيس ذلك الوفد الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي وهو أول مبعوث بعثه الرسول إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل حاملاً معه كتابه الكريم الذي يدعوه فيه للإسلام[2]. وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين....»[3]. نستلخص من هذه الرسالة بأنها ليست دعوة

---

[1] ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت، 852هـ/1448م): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ/1959م، ج8، ص128؛ التويجري، عبد العزيز بن عثمان: الدبلوماسية الإسلامية في خدمة الحوار والسلام، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1430هـ/2009م، ص13.

[2] ابن حجر، فتح الباري، ج13، ص242؛ عبد اللطيف، عبد الشافي محمد: السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، ط1، القاهرة، 1428هـ/2007م، ص302؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص206.

[3] ينظر نص الرسالة عند: البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت، 256هـ/870م): صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ/2002م، ج1، ص8؛ الطبري، تاريخ، ج2، ص649؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص93؛ ابن خلدون، تاريخ، ج2، ص266؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص362؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج8، ص220؛ الرحيلي، السفارات الإسلامية، ص26–27؛ الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط7، بيروت، 1429هـ/2008م، ص714–715؛ حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيين، ص14–15. هناك صيغة ثانية لنفس الرسالة المنسوبة للرسول ﷺ لهرقل والتي أوردتها بعض المصادر لأنها صيغة تتعارض مع الأولى في توجهاتها السلمية، وتحوي جملة من التلميحات باستعمال

للإسلام فحسب، بل هي دعوة للسلام أيضاً، كما هي دعوة للحوار والتفاهم على أساس قيم أخلاقية دينية مشتركة، إذ أنها لم تستهدف سلب سلطة أو طمع في احتلال أرض، بل هي دعوة للتواصل عن طريق نشر الحق والفضيلة. كما أنها لا تحمل نزعة الاستعلاء وتصغير الآخر، بل تنطق من مبدأ المساواة المطلقة، واحتوت هذه الرسالة على لغة خاصة تنطوي على قاعدة الاحترام والتقدير، فقد استعمل الرسول ﷺ مجموعة من الجمل التعبيرية التي تحترم وتقدر المخاطب وترفع من شأنه، كما تجنح الرسالة النبوية للإمبراطور البيزنطي نحو تحبيب الرسالة الإسلامية إلى قلبه دون تهديد أو إكراه، وهو ما تدل عليه عبارة «أسلم يأتك الله أجرك مرتين». ناهيك عما تحويه من أسلوب خاص ينطق بالنصح والموعظة الحسنة، بعيداً عن أي شكل من أشكال التلاسن أو القذف أو الشتم والتهديد، تاركاً لهرقل حرية التفكير وتحكيم ضميره وصفاء إنسانيته. ومهما يكن، فقد اتسم رد فعل هرقل تجاه هذه الرسالة بالطابع الودي الذي ينم عن كثير من الحكمة والميل نحو الود والسلم. ولا نرى صحة مقولة أحد الباحثين[1] من أن الإمبراطور البيزنطي «لم يعن بالرسالة الموجهة إليه، فكان هذا بداية الحرب بين العرب والروم». فعلى العكس تثبت الشواهد التاريخية أن هرقل أولى عناية خاصة للرسالة النبوية، فقد تَمّ بها استقبال المبعوث النبوي من قبل العاهل البيزنطي بحفاوة كبيرة، فلم يمزق الكتاب كما فعل كسرى فارس، بل تعامل مع السفير العربي المسلم بكل احترام وتقدير كما تدل على ذلك الكلمات التالية التي جاءت على لسان مبعوث الرسول ﷺ: «وجهني رسول الله إلى ملك الروم بكتابه وهو بدمشق، قال فناولته كتاب النبي، فقبَّل خاتمه، ووضعه تحت شيء كان عليه قاعداً ثمَّ نادى، فاجتمعت البطارقة وقومه،... ثم خاطب أصحابه فقال: هذا كتاب النبي

العنف والتهديد التي لا تتلاءم مع روح الإسلام ولا مع شخصية النبي الداعية للسلام. أورد نص هذه الرسالة حميد الله، مجموعة الوثائق، ص110 اعتماداً على بعض المصادر.

[1] يوسف، جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1984م، ص110.

الذي بشَّر به المسيح من ولد إسماعيل بن إبراهيم»[1]. نستنتج من هذا النص بأن الإمبراطور هرقل أولى كل الاحترام والعناية والتقدير للسفير ولموضوع السفارة تقديراً للرسول، وللنبي وكتابه، وهو ما تعكسه عبارة «فقبّل خاتمه» التي جاءت كرمز ودليل على هذا التقدير والاحترام. كذلك كتاب الرسول الذي وضعه تحت شيء كان يقعد عليه كعلامة دالة على الاهتمام الذي خصه به[2]، كما أنه بعث في هذا الأمر إلى أسقف كان يعتبره من أكبر المستشارين ممن يعتد برأيهم، وقرأ عليه الكتاب، ولما تأمله هذا الأخير تأملاً دقيقاً أسدى له النصح باعتناق الإسلام. ويبدو حسب بعض الروايات أن الإمبراطور البيزنطي كان يعتزم القيام بهذه الخطوة الجريئة لولا تخوفه من ردّ فعل المجتمع البيزنطي[3]. وفي رواية أخرى أنه جمع أعيان دولته في دسكرة[4] وناقش معهم موضوع الرسالة النبوية، وخلال هذا الاجتماع أبدى اعترافه وإقراره بنبوة محمد ﷺ، فتبرّم منه

---

[1] الختلي، إسحاق بن إبراهيم بن سنين (ت، 283هـ/896م): الديباج، تح: ابراهيم صالح، دار البشائر، ط1، د.م، 1994م، ص34؛ النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري (ت، 733هـ/1333م): نهاية الأرب في فُنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، 1423هـ/2002م، ج16، ص151؛ ابن حديدة، محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن حسن الأنصاري (ت، 783هـ/1381م): المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تح: محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ج2، ص85؛ ابن المبرد الحنبلي، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي (ت، 909هـ/1503م): محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تح: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، المدينة النبوية، 1420هـ/2000م، ج1، ص232.

[2] أورد الطبري نصاً آخر يذكر أنه وضع الكتاب بين فخذيه وخاصرته. تاريخ، ج 2، ص646-649.

[3] الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/1985م، ج2، ص552.

[4] **دسكرة:** بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم. ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص285.

المجتمعون، فلما تأكد له معارضتهم لفكرته، استخدم ذكاءه في مراجعتهم وتأويل قراره بأنه كان يستهدف التأكد من رسوخ إيمانهم والثبات على عقيدتهم[1].

وليس هناك نص كتابي لهرقل على رسالة النبي ﷺ، فقد اكتفى بجواب شفهي يبدي فيه احترام الرسول ﷺ واعترافه بنبوته، وتقديره للدعوة الإسلامية إلى درجة أنه تمنى أن يدخل الإسلام لولا خوفه من رد الفعل العنيف من الكنيسة والمجتمع البيزنطي. ويبدو أن الرواة الذين أوردوا نص رسالة جوابية كتابية زعموا أن هرقل بعثها للنبي ﷺ يعلن فيها اعتناقه للإسلام، فيه كثير من المبالغة[2]، لذلك عدَّ أحد الباحثين هذا الزعم «من شطحات خيال بعض المؤرخين»[3]. وفي المقابل بعث الإمبراطور هرقل بدوره سفارة إلى الرسول ﷺ وهو بتبوك مع مبعوث خاص له يدعى التنوخيَّ قرأها على مسامعه معاوية بن أبي سفيان. ذكر ابن سلام أنه لم يذكر فحوى الرسالة التي تمكننا من معرفة ما إذا كانت هي الرسالة الجوابية على الرسالة التي حملها إليه دحية بن خليفة الكلبي، أم أن

---

[1] الطبري، تاريخ، ج2، ص649؛ الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت، 407هـ/1016م): شرف المصطفى، دار البشائر الإسلامية، ط1، مكة، 1424هـ/2003م، ج4، ص15؛ البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني (ت، 458هـ/1065م): دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1405هـ/1984م، ج4، ص384؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد (ت، 597هـ/1200م): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م، ج3، ص280؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1413هـ/1993م، ج2، ص507؛ ابن كثير: السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة، بيروت، 1395هـ/1976م، ج3، ص498.

[2] ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأَصحاب، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1412هـ/1992م، ج2، ص461.

[3] سالم، عبد الرحمن أحمد: المسلمون والروم في عصر النبوة، دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ/1997م، ص77.

الأمر يتعلق برسالة أخرى. وأياً ما كان الأمر، فيتضح من خلال سياق الخبر أنها رسالة تتضح بمعاني الود والاحترام والرغبة في السلام وتوطيد العلاقة مع العرب، فقد استقبل المبعوث البيزنطي بحفاوة كبيرة من جانب المسلمين، وأهديت له هدية نفيسة من قبل عثمان بن عفان كرمز للتقدير الذي يكنونه للإمبراطور البيزنطي ولمبعوثه الذي بقي في ضيافة أحد الأنصار مدة لم تحددها المصادر، ولكن الرسالة لا تتضمن أي إشارة حول إسلام هرقل[1].

فتبادل الرسل والسفراء من أهم وسائل التعارف بين المجتمعات فقد كان الرسول ﷺ يبعث الرسل ويتلقاها بأحسن هيئة ويكرمها ويكف عن قتل مبعوثيها. فسار خلفاؤه من بعده على نهجه واستمر ذلك أسلوباً من أساليب التعاون والتبادل حتى أخذت السفارة صفة العادة السنوية مع بعض الدول. وغير خاف أن الرسول ﷺ كان رجل سلام دون منازع، إذ لم ينهج الأسلوب الحربي إلا للدفاع عن النفس وتأمين حرية الدعوة الإسلامية. فمنذ بداية اتصالاته الأولية مع الروم البيزنطيين، أرسل إلى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة يدعوه إلى الإسلام أو إعطاء الجزية، مذكراً إياه كذلك بوحدة الديانات السماوية والرسل فعقد معه صلحاً مقابل جزية حددت في ثلاثمائة دينار سنة 9هـ/630م[2]، كما صالح أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل الذي كان نصرانياً على أن يدفع له جزية

---

[1] ابن سلام، القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت، 224هـ/838م): كتاب الأموال، تح: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت، ص325؛ حميد الله، مجموعة الوثائق، ص114.

[2] ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص525؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص67-69؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج5، ص247؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص148؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج4، ص29؛ ابن خلدون، تاريخ، ج2، ص267؛ حميد الله، مجموعة الوثائق، ص115-116؛ خطاب، الرسول القائد، دار الفكر، ط6، بيروت، 1422هـ/2001م، ص401-402؛ رستم، الروم، ج1، ص238؛ علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط4، د.م، 1422هـ/2001م، ج7، ص249: كرمي، الإدارة في عصر الرسول، ص156؛ دعاه المسعودي أسقف إيلة. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت، 346هـ/958م): التنبيه والإشراف، تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت، ص236.

سنوية، بعد أن أسره خالد بن الوليد وبعثه إلى الرسول ﷺ فحقن دمه[1]. كما وجه الرسول ﷺ رسالة تفيض بمعاني الحب والسلام إلى ضغاطر[2] أسقف البيزنطيين بالقسطنطينية، يؤكد فيها عليه السلام على وحدة الأنبياء والرسل[3]. أما الحملات العسكرية التي بعثها لخوض غمار المعارك مع البيزنطيين، فلم تكن إلا نتيجة لفشل جهود السلام معهم.

ثامناً: السفارات بين العرب والبيزنطيين في العصر الراشدي

لم يتوقف اهتمام الإسلام بالرسل والسفراء عند العهد النبوي فقط بل استمر في جميع عهود الدولة الإسلامية، فعقب وفاة الرسول ﷺ سار الخلفاء الراشدين على نهجه وخطاه وتمثلوا أعماله وأساليبه الدبلوماسية من حيث تفضيل السلم على الحرب، والعمل على نشر الدعوة الإسلامية بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانوا يستخدمون صيغ المعاهدات التي كان يستخدمها الرسول ﷺ من حيث الموضوع والإيجاز. وإذا كان عهد الخلفاء

---

[1] ابن خلدون، تاريخ، ج2، ص267؛ أبو الحسن الندوي، علي بن عبد الحي بن فخر الدين: السيرة النبوية، دار ابن كثير، ط12، دمشق، 1425هـ/2004م، ص490؛ خطاب، الرسول القائد، ص403؛ طقوش، محمد سهيل: تاريخ الخلفاء الراشدين، دار النفائس، ط1، د.م، 1424هـ/2003م، ص121.

[2] ويقال اسمه تغاطر، وهو أسقف من كبار الروم أسلم على يد دحية، لما أرسله رسول الله إلى هرقل وغيَّر لباسه وأظهر إسلامه فقتلوه سنة 6هـ/627م. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، د.م، 1415هـ/1994م، ج3، ص56؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ/1994م، ج3، ص405؛ فتح الباري، ج1، ص43.

[3] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص211؛ أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت، 430هـ/1038م): دلائل النبوة، تح: محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس، ط2، بيروت، 1406هـ/1986م، ج1، ص101–102؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص92؛ ابن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/1997م، ج6، ص480؛ الفيومي، محمد إبراهيم: تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، ط4، د.م، 1415هـ/1994م، ص220.

الراشدين يتميز باهتمامه بتأمين استقرار الدولة الإسلامية داخلياً والقضاء على الردة والفتنة التي حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم الانطلاق في الفتوحات الإسلامية نحو الفرس والروم، إلا أن هذا العهد شهد اتصالاً بين المسلمين وغيرهم من خلال إرسال السفراء والرسل، وازدادت الحاجة لهذا الأسلوب من العلاقات بعد أن دخل الطرفان في حرب وقتال، واحتاج الأمر إلى سفراء ورسل ينتقلون بين الطرفين، وكانت مهماتها تنحصر في الغالب في الاتفاق على إنهاء القتال، وجرت في هذه السفارات نقاشات وأسئلة متبادلة انصبت على اختلاف الدين وعلى أحكام القتال، واطلع كل فريق على ما لدى الآخر من رسوم وأحوال، فجعل العرب من الصلح مبدءاً ثابتاً في علاقتهم بالأهالي البيزنطيين الذين فتحت أراضيهم، فالقائد العربي خالد بن الوليد وهو يعتزم فتح مرج الصفر «خرج إليه عظيم الروم يلتمس الأمان للمدينة فأمّنه»[1]. فكان الروم يلجئون في أوقات كثيرة إلى طلب الهدنة مع الدولة الإسلامية، إذا اشتد عليهم القتال وكان المسلمون في أيام ضعفهم يطلبون بواسطة مبعوثيهم وقف القتال وعقد هدنة أو صلح[2]. وتزخر نصوص البلاذري بمجموعة من الأحداث التي تشير إلى التزام العرب المسلمين بالمنهج السلمي القائم على الصلح في معظم الأراضي البيزنطية التي كانوا يرومون فتحها، لاسيما كتابي الصلح اللذان عقدهما خالد بن الوليد مع أهالي دمشق وحمص[3] للدلالة على مدى سعي العرب الفاتحين لجعل السلام جسر تواصل مع الأهالي البيزنطيين.

1- <u>في عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ:</u>

تذكر المصادر أن الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ رغب في مهادنة الروم ومصالحتهم فبعث بسفارة إلى البيزنطيين. وإذا كان ابن حجر العسقلاني[4] قد أورد هذا الخبر بشكل مقتضب لا يسمح بمعرفة موضوع السفارة ولا تاريخها، ويكتفي بذكر أسماء المبعوثين

---

(1) ابن سلام، كتاب الأموال، ص229؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج62، ص345؛ الذهبي،سير، ج3، ص387.

(2) عفيفي، تطور التبادل الدبلوماسي في الإسلام، ص50.

(3) فتوح البلدان، ص128-136.

(4) الإصابة في تمييز الصحابة، ج4، ص394.

الذين كانوا ضمن الوفد المتجه نحو القسطنطينية ومنهم عدي بن كعب وعبادة بن الصامت الأنصاري وعمرو بن العاص وأخوه هاشم بن العاص الأموي ونعيم بن عبد الله، فإن رواية الدينوري[1] تمدنا بمزيد من التفاصيل حول موضوع السفارة وتاريخها ومقابلة الوفد الإسلامي للإمبراطور هرقل. فبخصوص تاريخ السفارة تحددها الرواية سنة 11هـ/632م. أما موضوع السفارة فتؤكد أن البعثة توجهت بهدف دعوة هرقل لاعتناق الإسلام فهل هي المرة الثانية التي يتم فيها دعوة هرقل للإسلام؟ أما بخصوص تفاصيل نشاط الوفد فيستشف من الرواية أن الإمبراطور البيزنطي خصص اليوم الأول من استقباله للوفد الإسلامي لإجراء حوار معه حول الديانة الإسلامية. وفي اليوم الثاني أمر «بعتيدة فيها بيوت كثيرة، وفي كل بيت باب صغير»، وأخذ يخرج من كل باب خرقة سوداء صغيرة بها صورة بيضاء مثل دارة القمر ليلة البدر تشتمل على صورة من صور الأنبياء، فيقوم بتعريفهم بالنبي الذي تظهر صورته إلى أن انتهى لصورة محمد ﷺ، فلما رآها أعضاء الوفد المسلم تأثروا وأجهشوا بالبكاء، فلما سألهم عن سبب ذلك أخبروه بأنها صورة نبيهم، فكانت هذه الإشارة دليلاً لهرقل على صحة نبوة محمد ﷺ. وبقي الوفد السفاري ثلاثة أيام في ضيافة العاهل البيزنطي، عاد بعدها محملاً بالهدايا[2].

2- **في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ:**

سار الخلفاء الراشدون والأمويون في سياستهم على النهج النبوي وهناك العديد من النصوص في المصادر التاريخية التي تتحدث عن سفارات عربية إلى الأمم الأخرى لاسيما الفرس والبيزنطيين وغيرهم .ومثل ما ذكر سابقاً أن الخليفة عمر ﷺ أرسل وفداً إلى الإمبراطور هرقل كان يحمل بعض الهدايا أرسلتها أم كلثوم إلى إمبراطورة الروم

---

[1] الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت، 282هـ/895م): الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، ط1، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1960م، ص18.

[2] أبو نعيم الأصبهاني، دلائل النبوة، ج1، ص50؛ ابن حديدة، المصباح المضي، ج2، ص100-102؛ السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي (ت، 911هـ/1505م): وفاء الوفاء بأخيار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م، ج1، ص185؛ حميد الله، مجموعة الوثائق، ص733-734.

فأرسلت إليها الإمبراطورة هدية فاخرة[1]، وهذا دليل على تكرر المراسلات بين عمر ﷺ وأباطرة الروم وإن كنا لا نعرف عنها شيئًا[2]. وهناك مراسلة تمت بين الخليفة عمر ﷺ وأحد الأباطرة البيزنطيين قنسطانز الثاني Constans II (21-48هـ/641-668م)، وفيها يسأل الخليفة عن معنى شجرة ليست بخليقة شيء من الشجر، تخرج مثل آذان الحمير، ثم تنشق عين مثل اللؤلؤ، ثم يخضر فيكون كالزُّمرُّد الأخضر، ثم يحمر فيكون كالياقوت الأحمر، ثم ينبع فينضج فيكون كأطيب فالوذجٍ أُكِلَ، ثم ييبس فيكون عصمة للمقيم وزاداً للمسافر، ويتساءل الإمبراطور البيزنطي عَمّا إذا كانت هذه الشجرة من أشجار الجنة. فكان جواب عمر ﷺ كما يلي: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى قيصر ملك الرُّوم: إنَّ رسلك قد صدقوك، هذه الشَّجرة عندنا، هي الشَّجرة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى ابنها». وقد استغل الخليفة الراشدي فرصة هذا الحوار الديني ليطلب من الإمبراطور البيزنطي التخلي عن القول بالطبيعة الإلهية لعيسى عليه السلام، مؤكداً له أن هذا الأخير بشر خلقه الله مثل آدم من تراب[3].

---

(1) الطبري، تاريخ، ج4، ض260؛ عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص302؛ ضميرية: العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث، كلية الدراسات العليا، ط1، جامعة الشارقة، 1428هـ/2007م، ص13.

(2) وردت روايات يسأل فيها إمبراطور الروم عُمَراً عن الحكمة أو يقول: املأ لي هذه القارورة من كل شيء، فملأها ماء،وقد أوردها الطبري وابن الجوزي بغير إسناد، ولكن لغتها وأسلوبها يغلب عليها تفلسف المتأخرين مما يجعلنا نجزم باختلاقها ووضعها على عمر. تاريخ، ج4، ض259؛ المنتظم، ج4، ص139.

(3) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي (ت، 327هـ/938م): تفسير القرآن العظيم، تح: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، السعودية، 1419هـ/1998م، ج10، ص3323؛ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت، 571هـ/1175م): تاريخ دمشق، تح: محبّ الدين أبي سعيد عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م، ج70، ص93؛ ابن كثير، تفسير القرآن، ج7، ص453؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت، 911هـ/1505م): تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، د.م، 1425هـ/2004م، ص112-113.

3- في عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ:

في سنة 28هـ/648م أجرى السفراء العرب مفاوضات مع أهالي قبرص عندما غزا والي الشام معاوية بن أبي سفيان قبرص، ونتج عنها حصول للمسلمين على الجزية من دون قتال ومقدارها (7 آلاف دينار) سنوياً، والسماح للمسلمين بالمرور وقتال الروم، وأن يُعيَّن أهل قبرص بطريقاً منهم[1]. وبعد الاستقرار الذي شهدته الدولة العربية عقب انتهاء الفتوحات الإسلامية، أخذ البيزنطيون يفكرون في عقد اتفاقيات سلمية مع الأمراء العرب في الثغور، لاسيما في بلاد الشام التي كانت تمثل تخوم شمال الجزيرة العربية؛ مثلاً المعاهدة السلمية التي وقعت بين الدولة البيزنطية والدولة العربية في العصر الراشدي وكان يمثلها معاوية بن أبي سفيان من عام 29هـ/649م حتى 31هـ/651م[2]. فقد توغل القائد بسر بن أبي أرطأة في الأراضي البيزنطية وحمل معه 500 أسير، مما جعل الإمبراطور قنسطانز يرسل إلي معاوية مبعوثاً خاصاً يدعى مانويل يعرض عليه رغبته في عقد اتفاقية للسلام، فقبل معاوية العرض شريطة أخذ بعض الرهائن ومن بينهم جريجوري بن تيودور شقيق الإمبراطور لضمان تنفيذ الاتفاقية[3]. وقد أورد البلاذري وابن سلام أن المعاهدة نصّت في أحد بنودها على أن يؤدي معاوية مبلغاً مالياً للبيزنطيين مقابل احتجازه بعض الرهائن، بيد أنهم لم يلتزموا بنصوص المعاهدة، ومع ذلك لم ينتقم الخليفة الأموي من الرهائن بل أطلق سراحهم[4]. فقد بدأت جيوش معاوية بالتوغل داخل

---

(1) الطبري، تاريخ، ج4، ص262؛ المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (ت، ق4هـ/10م): المنتخب في تاريخ المنبجي، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، ط1، لبنان، 1406هـ/1986م، ص55-56؛ طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين،ص380؛ حميدية، عليان، السفراء والدبلوماسيين، ص22.

(2)Theophanes, The chronicle of Theophanes (A ،D602-813) Translated by Idarry turtledove, U.S.A ،Pensylvania, 1982, p.44.

(3) المنجبي، المنتخب، ص57؛ الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ص115:.Theophanes, p44-47

(4) فتوح البلدان، ص160؛ كتاب الأموال، ص253-254.

حدود الأراضي البيزنطية التي تنتظر انتهاء تاريخ المعاهدة واستئناف الإغارة عليها، إلا أن الصحابي الجليل عمرو بن عنبسة حذّر معاوية ونبهه إلى وجوب احترام العهد، وعدم شنّ أي هجوم حتى يتم إعلام العدو، وإلا اعتبر ذلك غدراً وإخلالاً بالمعاهدة جرياً على السنة النبوية، وقد ورد في الرواية على لسان هذا الصحابي: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»[1].

كما بودلت السفارات بين قنسطانز الثاني مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر في معركة ذات الصواري سنة (34هـ/654م)، وتمخضت المفاوضات عن إيقاف القتال ليلة واحدة اتفق الطرفان على أن تكون الحرب داخل البحر، وانتهت المعركة بانتصار العرب المسلمين[2].

4-في عهد الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ:

استغل الإمبراطور قنسطانز الثاني ظروف الانقسام العربي خلال فترة نزاع معاوية بن أبي سفيان مع علي بن أبي طالب ﷺ، وعزم على التوغل في بعض الأراضي الإسلامية المتاخمة لدولته. فقد أشار عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان بضرورة مسالمة الإمبراطور البيزنطي وشراء السلام بالمال، وإطلاق سراح الأسرى، فاستجاب معاوية لنصيحة عمرو بن العاص فعقد المعاهدة مع قنسطانز الثاني[3]. فقد تم

---

[1] ابن سلام، كتاب الأموال، ص255؛ ابن حنبل، المسند، ج28، ص230؛ ابن كثير،تفسير القرآن،ج4، ص70.

[2] الطبري، تاريخ، ج4، ص291-292؛ الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري (ت، 634هـ/1237م): الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1420هـ/2000م، ج2، ص367؛ عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص252.

[3] الدينوري، الأخبار الطوال، ص168. أورد ابن كثير رواية مخالفة فقد ذكر أن معاوية كتب إلى الإمبراطور البيزنطي محذراً: «والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك لأصطلحن أنا وابن عمي عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك

عقد المعاهدة في تاريخ غير محدد، ولو أن إشارة ابن كثير بأنها وقعت قبل بداية التحكيم تسمح بالاستنتاج أنها كانت ما بين سنتي (35–37هـ/655–657م)، وهو ما يتوافق مع رواية المؤرخ ميخائيل السرياني الذي أورد أن معاوية عقد هدنة مع الإمبراطور قنسطانز الثاني أثناء نزاعه مع علي بن أبي طالب ﷺ[1].

تاسعاً: السفارات بين العرب والبيزنطيين في العصر الأموي (41–132هـ/661–751م)

شهدت الدولة الأموية تطوراً واسعاً في إرسال السفراء والرسل بينها وبين الدول الأخرى، فبعد أن استقرت أركان الدولة وتوسعت في فتوحاتها، بدأت تمد علاقاتها إلى دول مختلفة في أرجاء العالم، فشهد العصر الأموي تطوراً في أسلوب السفارات وطابعها وتنظيمها وتشعب ميادينها. وقد ساعد الازدهار الاقتصادي والثقافي الذي شهدته الدولة الأموية على ازدهار علاقاتها السياسية مع الدول الأخرى، وعندما أصبحت الشام عاصمة لدولتهم وأقرب الحواضر الإسلامية إلى الروم تنامت بوادر الاتصال بين المسلمين والبيزنطيين، فقرب العاصمة الأموية دمشق من دول الروم في القسطنطينية شجع البلدين على تبادل السفراء بينهم. فامتاز العصر الأموي بتعدد السفارات العربية الموفدة من الخلافة الأموية في دمشق إلى بيزنطة، وسفارات بيزنطية إلى العاصمة دمشق، فعن طريق السفارات الإسلامية عرفت الدولة الأموية تنظيم الإدارة البيزنطية

الروم وانكفأ، وبعث يطلب الهدنة، ثم كان من أمر التحكيم ما كان». البداية والنهاية، ج11، ص400.

[1]Michel le Zyrien, Chronique, Texte syriaque ،Traduit en français par J.B. Chabot, Paris, 1899, Vol .II, p. 450-469 .

ويرجح عبد المنعم ماجد أن تكون هذه الاتفاقية قد عقدت سنة 36هـ/656م. انظر كتابه: التاريخ السياسي للدولة العربية، عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، القاهرة، 1983م، ص35.

ونقلوا عنها تقسيم الدولة إلى ولايات وأنشئت الدواوين، وكان يتم اختيار السفراء وفق لمعايير وقواعد دقيقة؛ لأن السفير كان يمثل الخليفة ويفاوض باسمه[1].

1-في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ/661-679م):

مع استقرار أمور الدولة العربية في العصر الأموي، بدأت فترة من الصراع المرير مع البيزنطيين، ومع ذلك لم يخلُ هذا العصر من عدد من الاتفاقيات السلمية، فعلى غرار العصر النبوي شهد العصر الأموي مجموعة من المراسلات بين الأمويين والبيزنطيين؛ فالمسعودي[2] يشير في سياق حديثه عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان بينه وبين أحد ملوك الروم "مراسلات ومهادنات" حتى قبل توليه الخلافة، وكان له غلام يدعى فناق الرومي كلفه بمهمة إيصال الرسائل بين الطرفين، فقد كان معاوية قد هادن أباه مورق بن مورق حين سار إلى حرب علي بن أبي طالب ﷺ.

فقد كان الصراع العربي ـ البيزنطي خلال العصر الأموي تحركه مصالح اقتصادية، ومن المعلوم أن طبقة التجار تجنح دائماً للسلم لتسهيل مشروعاتها التجارية، لذلك لا غرابة أن يكون الأمويون أكثر حرصاً على عقد المعاهدات السلمية رغم الحروب الطاحنة التي خاضوها مع البيزنطيين، والتي لم يكن الهدف منها سوى السيطرة على منافذ التجارة، وربط الاقتصاد المتوسطي بالمحاور التجارية لشمال الجزيرة العربية، فازدادت وتيرة إيقاع تبادل السفارات بين الجانبين[3]. ومن الاتفاقيات السلمية المنعقدة بين الأمويين والبيزنطيين، أن معاوية هادن الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني وابنه قسطنطين الرابع Constantine IV (48-66هـ/668-685م) في سنة 41هـ/661م، ومن الأسباب التي جعلت معاوية يعقد الاتفاقية هي حاجته الماسة إلى ترتيب أمور دولته

---

[1] المبيضين، مخلد عبيد: أصول العلاقات الدولية في الإسلام، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط3، عمان، الأردن، 1433هـ/2012م، ص273؛ التابعي، السفارات في الإسلام، ص472.

[2] مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5، بيروت، 1393هـ/1973م، ج1، ص329.

[3] رستم، الروم، ص260.

بعد البيعة التي بويع بها من قبل مختلف التيارات الإسلامية[1]. يقول اليعقوبي[2]: «ورجع معاوية إلى الشام سنة إحدى وأربعين، وبلغه أن طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم، فخاف أن يشغله عمّا يحتاج إلى تدبيره وإحكامه، فوجّه إليه، فصالحه على مائة ألف دينار. وكان معاوية أول من صالح الروم، وكان صلحه إيّاهم في أول سنة اثنين وأربعين، فلمّا استقام الأمر لمعاوية أغزى أمراء الشام على الصوائف، فسبوا بلاد الروم سنة بعد سنة، وطلب صاحب الروم الصلح على أن يضعّف المال فلم يجبه». يتضح من خلال هذه الرواية أن معاوية عقد صلحين: أولهما سنة 41هـ/661م عندما كان لا يزال والياً على الشام، أما الاتفاقية الثانية فكانت سنة 42هـ/662م عندما أصبح خليفة على المسلمين، وكانت نتيجة لاتفاقية سنة 41هـ/661م التي عقدها قبل خلافته بمدة يسيرة[3]. وهناك اتفاقية أخرى بين العرب وبيزنطة تمت كذلك في عهد معاوية لم تذكر المصادر تاريخها فقد بعث رسولاً من أقاربه لعقد هدنة مع البيزنطيين، وأمره بالتشدد في شروط المفاوضات، بيد أن الإمبراطور البيزنطي ساوم المبعوث العربي وأغراه بالمال حتى خفف عنه الشروط، وأمضى أمر الهدنة، وعندما رجع المبعوث نحو معاوية انتقده وأقاله من مهمته بسبب التفريط في شروط المفاوضات[4]. وفي عهد معاوية كانت أغلب مناطق أرمينية شمال بلاد الشام تعتمد في ولائها للعرب المسلمين على معاهدات الأمان. ويبدو إن معاوية استفاد من الظروف الدولية وقتذاك متمثلة بسوء

---

[1] ابن خياط، خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (ت، 240هـ/854م): تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، ط2، دمشق، بيروت، 1397هـ/1977م، ص205؛ المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص329.

[2] اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت، 292هـ/905م): تاريخ اليعقوبي، تح: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، 1431هـ/2010م، ج2، ص125.

[3] ماجد، التاريخ السياسي، ص35.

[4] ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت، 709هـ/1309م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، ط1، بيروت، 1418هـ/1997م، ص73.

علاقة صاحب الأرمن سابور مع قسطنطين الرابع، إذ التقى السفيران الموفدان من الأخيرين إلى معاوية في دمشق، ولذلك نجحت سفارة معاوية في احتواء الأرمن[1]. ففي سنة 48هـ/668م أرسل الخليفة معاوية سفارة إلى أهل أرمينية، يطلب منهم الاعتراف بسلطانه، والدخول في حماية المسلمين واستجابوا له، لذلك نصب على أرمينية والياً مسلماً[2]. وذكر ابن العبري: أنه في سنة 46هـ/666م بعث الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع سفارة إلى دمشق للقاء معاوية الذي كان قد تولى الخلافة. وكان وفد بيزنطة برئاسة مبعوث يدعى أندرو يحمل رسالة تهديد لمعاوية مفادها عدم مساعدة سابور لأن الأرمن تمردوا على البيزنطيين، بيد أن هذه السفارة لم تحقق نجاحاً يذكر فلم يستجيب معاوية لرسائل تلك السفارة، بل عمل على توطيد علاقته مع ملك أرمينية[3].

كما بعث معاوية سنة 53هـ/674م مبعوثاً يدعى عبد الله بن مسعدة الفزاري إلى الإمبراطور البيزنطي الذي لم تحدد الرواية العربية اسمه، ويرجح أنه يكون الإمبراطور قسطنطين الرابع الذي يتزامن حكمه مع هذه المرحلة. فاجتمع بجبلة بن الأيهم، فرأى ما هو فيه من السعادة الدنيوية والأموال؛ من الخدم والحشم والذهب والخيول، فقال له جبلة: لو أعلم أن معاوية يقطعني أرض البثنية فإنها منازلنا، وعشرين قرية من غوطة دمشق ويفرض لجماعتنا، ويحسن جوائزنا، لرجعت إلى الشام. فأخبر عبد الله بن مسعدة معاوية بقوله، فقال معاوية: أنا أعطيه ذلك. وكتب إليه كتاباً مع البريد بذلك، فما أدركه البريد إلا وقد مات في هذه السنة[4]، إن النص لم يفصح عن موضوع السفارة، ولا يستبعد أن يكون الهدف عقد معاهدة أو صلح بين الطرفين.

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص197.

(2) الطبري، تاريخ، ج6، ص251؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص458.

(3) ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي (ت، 685هـ/1286م): تاريخ مختصر الدول، تح: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، ط3، بيروت، 1992م، ص109.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج5، ص167؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص269. وردت سنة 52هـ/673م. عند: الطبري، تاريخ، ج5، ص287؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج5، ص249؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص85.

وهناك اتفاقية عقدها معاوية مع البيزنطيين سنة 58هـ/678م وقد حددت مدتها في ثلاثين سنة. وتقتضي هذه المعاهدة التزام الخليفة الأموي بدفع ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين عبداً وخمسين حصاناً عربياً أصيلاً، مع إطلاق سراح خمسين أسيراً من البيزنطيين. وترجع أسباب هذه الاتفاقية إلى القلاقل والاضطرابات التي أثارها الجراجمة المقيمون في الثغور الإسلامية المتاخمة للدولة البيزنطية، مما سبّب قلقاً لدى معاوية، وهو ما حدا به إلى إرسال سفارة للإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع لتأمين سلامة حدود بلاده الشمالية وعقد معاهدة سلمية. وخلال هذه السفارة، حظي المبعوث الأموي باستقبال رائع وحار من قبل العاهل البيزنطي، ولقي كل أشكال الحفاوة والكرم. وبدأت المفاوضات في القسطنطينية، ثم عاد السفير إلى العاصمة الأموية مصحوباً بالمبعوث البيزنطي لدى الإمبراطور يدعى يوحنا بتريجوس الذي استقبل بحفاوة عربية كبيرة لتتمة المفاوضات التي انتهت بالمصادقة على الاتفاقية ونجح في عقد معاهدة سلمية مع الأمويين، واحتفظ كلا الطرفان بنسخة منها. وبعد عقد الاتفاقية عاد السفير البيزنطي إلى القسطنطينية محملاً بالهدايا الثمينة، وهو مؤشر لا يقبل الجدل حول نجاح سفارته[1]. ويرجع بعض الباحثين[2] أسباب عقد هذه المعاهدة إلى أن معاوية كان يتوخى منها تهيئ ظروف انتقال الخلافة إلى ابنه يزيد في مناخ سلمي، وبالتالي إبعاد الخطر البيزنطي من دائرة المطبات التي قد تعيق توريثه الخلافة.

كما سجلت كتب الأدب رسائل متبادلة بين معاوية وملك الروم، فقد بعث أحد أباطرة بيزنطة إلى معاوية مراسلة تتضمن أسئلة حول قضايا دينية وكونية، نذكر منها: أحب الكلام عند الله عزّ وجلّ، وأكرم الإمام عند الله عزّ وجل، وأربعة زرعت فيهم الروح دون أن يرقدوا في رحم. وما القبر الذي سار بصاحبه، وما المكان في الأرض لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة، وما هو قوس قزح وما هي المجرة؟. وللرد على أسئلة الإمبراطور،

---

[1] البلاذري، فتوح البلدان، ص190؛ رستم، الروم، ص262-263؛
Theophanes, The chronicle of Theophanes, p, 54.

[2] ماجد، التاريخ السياسي، ص272.

استدعى معاوية عبد الله بن عباس الذي تمكن من الإجابة عن هذه الأسئلة، ولما قرأها الإمبراطور البيزنطي استنتج بفطنته أنها ليست من أجوبة معاوية، وإنما أجاب عنها أحد من آل البيت[1].

2-في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م):

نقض الروم معاهدتهم مع معاوية، فجددها الخليفة عبد الملك رغبة منه في استمرار حالة السلام بين الدولتين. فقد اضطر أن يهادن الروم ليتفرغ لحروب العراق والحجاز قبل أن يستقر له الملك، فتوالى عقد الاتفاقيات السلمية على شكل معاهدات أو صلح بين العرب والبيزنطيين، ففي سنة 70هـ/689م تجدد لقاء سفراء العرب المسلمين، متمثلة بخلافة عبد الملك، والبيزنطيين متمثلة بسلطة الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian11 (66-76هـ/686-695م)، فقد أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان سفارة إلى بيزنطة، فاجري الوفد العربي مفاوضات توصل إلى عقد هدنة، واتفق الوفدان على مبادئ بموجبها تجديد مبادئ المعاهدة السابقة، مقابل تعهد جستنيان الثاني أبعاد الجراجمة عن الحدود العربية الإسلامية مقابل دفع مبلغ ألف دينار ذهب كل أسبوع من قبل المسلمين إلى بيزنطة بهدف الحفاظ على مصير المسلمين المقيمين بالقرب من الحدود البيزنطية[2]. والهدف من هذه التنازلات السياسية والسيادية القضاء على الفتن الداخلية والاضطرابات التي جابهت الخليفة عبد الملك أبان توليه سدة الخلافة[3]. فقد كان الوضع الداخلي للدولة الأموية متأزم خلال تلك المرحلة حيث كثر الخارجون عنها سواء من البيت الأموي نفسه أو من المعارضين لها كالخوارج وأتباع ابن الزبير، مما جعل الخليفة

---

[1] ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت، 276هـ/889م): عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1998م، ج1، ص297.

[2] الطبري، تاريخ، ج6، ص150؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج6، ص101؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص393؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص112؛ الذهبي، العبر، ج1، ص58؛ تاريخ الإسلام، ج5، ص69؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص130؛ عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص303.

[3] حميدية؛ عليان، السفراء والدبلوماسيون، ص22.

الأموي يسارع لخطب ودّ الإمبراطور البيزنطي من أجل تثبيت بيعته وإحكام قبضته على الحكم. ويعلق ابن العماد على هذه الاتفاقية بأنها «أول وهن دخل على المسلمين والإسلام»[1]، تعبيراً منه على الشروط المجحفة التي فرضها البيزنطيون على العرب الأمويين بسبب التشرذم والانقسامات الداخلية. بيد أن بعض الدارسين المحدثين[2]، اعتبروا مبادرة عبد الملك بن مروان لشراء السلم بالمال في مثل تلك الظروف المتأزمة نصراً تمكن من خلاله إبعاد خطر الجراجمة، وبالتالي فتح له الطريق نحو القسطنطينية.

وفي سنة 74هـ/693م أرسل الخليفة عبد الملك الفقيه أبو عمرو عامر بن شرحبيل الشعبي موفداً له إلى إمبراطور بيزنطة جستنيان الثاني، فقد اتصل الشعبي بعبد الملك فكان نديمه وسميره، وأثبت السفير الشعبي مهارة فائقة في إيصال رسالة الخليفة إلى جستنيان، ويروى أن الأخير أراد قتل السفير العربي الشعبي فتمكن الأخير من الإفلات[3]. وفي خبر السفارة: وجه عبد الملك بن مروان عامراً الشعبي إلى ملك الروم في بعض الأمر فاستكثره، فقال له: من أهل بيت الملك أنت؟ قال: لا، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمله رقعة لطيفة وقال: إذا رجعت إلى صاحبك فأبلغه جميع ما يحتاج إلى معرفة من ناحيتنا، وادفع إليه هذه الرقعة، فلما صار الشعبي إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى ذكره، ونهض من عنده، فلما خرج ذكر الرقعة فرجع، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه حملني إليك رقعة نسيتها حين خرجت، وكانت في آخر ما حملني، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك فأمر برده، فقال: أعلمت ما في هذه الرقعة؟ قال:لا، قال: فيها: عجبت من العرب كيف ملكت غير هذا، أفتدري لم كتب إلي بهذا؟ فقال: لا، قال: حسدني بك فأراد أن يغريني بقتلك، فقال الشعبي: لو كان ذاك يا أمير المؤمنين ما

---

[1] ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكريّ الحنبلي (ت، 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمد الأرناؤوط، أخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، دمشق، بيروت، 1406هـ/1986م، ج1، ص300.

[2] العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون، مكتبة الأنجلو المصرية، 1372هـ/1953م، ص176.

[3] ابن الفراء، رسل الملوك، ص84؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص304.

استكثرني. فبلغ ملك الروم ذلك، فذكر عبد الملك فقال: للّه أبوه، والله ما أردت إلا ذلك[1]. ومهما كان الأمر فإن الإمبراطور البيزنطي استضاف المبعوث العربي مدة لم تكشف عنها المصادر، واكتفت بتحديدها بعدة أيام. ويفهم من الرواية التي ذكرت خبر السفارة أن الإمبراطور البيزنطي أعجب بالسفير الشعبي إلى حد استغرابه وتساؤله حول عدم تبوئه منصب الخلافة بدل عبد الملك، قاصداً بذلك الإيقاع بين المبعوث وخليفته[2].

وفي سنة 74هـ/693م أرسل إمبراطور بيزنطة جستنيان الثاني سفارة إلى دمشق لمقابلة الخليفة عبد الملك بن مروان، وذكرت بعض المصادر: أن هناك مراسلات تحمل شحنة من التحدي والسعي لإثبات الذات، وهو ما تعكسه المراسلة التي تمت بين الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وجستنيان الثاني. ويرجع سبب هذه المراسلة إلى أن الخليفة المذكور كان أول حاكم عربي كتب في أعلى القراطيس المعدة لكتابة الرسائل الآية الأولى من سورة الإخلاص، مع عبارة الصلاة على النبي، وكان الأمويون قبل ذلك يكتبون على الورق الوافد إليهم من بيزنطة عن طريق مصر، وهو الورق الذي يتضمن شارات الدولة البيزنطية. ولم يستسغ العاهل البيزنطي هذا الأمر، فراسل الخليفة الأموي محذراً: «إنكم أحدثتم في طوامیركم[3] شيئاً من ذكر نبيكم، فاتركوه وإلا أتاكم في دنانيرنا ذكر ما تكرهونه». فعظم ذلك على عبد الملك، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فشاوره، فقال: حرم دنانيرهم، واضرب للناس سككًا فيها ذكر الله وذكر رسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير، فقد أمر عبد الملك بن مروان بسك دنانير عربية بديلة للدنانير البيزنطية حتى

---

[1] الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت، 463هـ/1070م): تاريخ بغداد وذيوله، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1997م، ج12، ص225–226؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج25، ص386؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج7، ص93–94.

[2] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص304؛ الصلابي، الدولة الأموية عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار، دار المعرفة للطباعة، ط2، بيروت، 1429هـ/2008م، ج2، ص15.

[3] **الطوامير**: الثوب الخلق والجمع أطمار وأحد الطوامير وهو الصحيفة. الرازي، مختار الصحاح، ص192.

يسحب البساط من تحت أقدام العاهل البيزنطي، وهو إجراء يفسر برغبة الدولة الأموية في تأميم السكة وتعريبها، والسعي لتحقيق الاستقلال المالي عن البيزنطيين، وبالتالي حماية الاقتصاد الأموي والحيلولة دون إحداث عمليات الغش والتزوير في العملة[1].

3-في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م):

تابع الوليد بن عبد الملك الضغط على الدولة البيزنطية بالغزو المتواصل للحصون والقلاع والمدن المتاخمة لبلاد المسلمين، وكان يهدف من وراء ذلك إلى صرف نظر البيزنطيين عن الهدف الرئيس الذي كان يخطط له وهو غزو عاصمتهم، وقد حالف التوفيق المسلمين في معظم غزواتهم، ودخلوا إلى الأعماق البيزنطية، مما أوقع الشك والريب في قلب الإمبراطور أنسطاس بأن وراء هذا النشاط العسكري ما وراءه[2]، فمن الطبيعي أن تكون عيون البيزنطيين دائماً مفتوحة على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود دائماً ملتهبة والغزو الإسلامي لا يكاد يتوقف ولكي يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكري المستمر، حيث أنه لم تخل سنة من سنوات حكم الوليد من خروج جيش للغزو والجهاد، ودخول إلى بلاد الروم، وفتحٍ للمعاقل والحصون[3]،

---

[1] ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج1، ص296؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص237؛ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت، 395هـ/1004م): الأوائل، تح: محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة، ط1، طنطا، 1408هـ/1987م، ص254؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص453؛ النويري، نهاية الأرب، ج21، ص223؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص257؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص164؛ العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص178-179.

[2] المسعودي، التنبيه والإشراف، ص141.

[3] ينظر ذلك عند: الطبري، تاريخ، ج6، ص426، 429، 434، 439، 442، 454، 468، 469، 483، 492، 495؛ خليفة، تاريخ، ص304-305، 306، 309، 310.

وكان من أهم المعاقل والحصون التي افتتحت زمن الوليد حصن الطوانة[1] الذي هو بمثابة مفتاح الطريق بين الشام ومضيق البوسفور، على الرغم من استعصائه، واستماتة الروم في الدفاع عنه، ووصول إمدادات إمبراطورية منجدة، لكن المسلمين هزموهم وفتحوا الحصن والمدينة سنة 88هـ/707م[2].

وفي سنة 95هـ/714م وحين قرر الوليد فتح القسطنطينية وأعد العدة لذلك أرسل الإمبراطور البيزنطي انستاسيوس الثانيAnstasius II (94-97هـ/713-716م) سفيراً يدعى دانيال حاكم مدينة سينوب إلى دمشق للتداول مع الخليفة حول إمكانية عقد هدنة بين الطرفين وزوده بتعليمات سرية ترمي إلى الوقوف على مدى استعدادات العرب والمسلمين في حملتهم لحصار القسطنطينية، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق، شاهدت عظمة المسلمين في عاصمتهم ونشاط الخليفة في إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية، ويذكر أن البعثة لم تظفر بما جاءت من أجله، لكنها أدركت ما يخطط له المسلمون من غزو عاصمتهم، فعادت لتؤكد للحاكم البيزنطي صدق عزيمة المسلمين على الجهاد واستعدادهم للحملة وحث الروم على اتخاذ التدابير الكفيلة والإجراءات الدفاعية لمواجهة الحملة العربية الإسلامية للدفاع عن العاصمة فأخذ انستاسيوس برأي سفيره وأعلن في القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه لمدة ثلاث سنوات وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على

---

[1] **الطوانة:** حصن وبلد منيع من الحصون التي بناها الروم بثغور المصيصة. ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت، 626هـ/1228م): معجم البلدان، دار صادر، ط2، بيروت، 1995م، ج4، ص45-46.

[2] ابن قتيبة، المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1992م، ص359؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص161؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج26، ص443-446؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص27؛ عبد اللطيف، العالم الإسلامي في العصر الأموي دراسة سياسية، دار السلام للطباعة، ط1، القاهرة، 1429هـ/2008م، ص254؛ السويكت، سليمان بن عبد الله: الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد112، 1424هـ/2004م، ص433.

تدبير مؤونته، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التي يتطلبها المدافعون عن المدينة، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة لاسيما الجهات المطلة منها على البحر، وتزويد الأسوار البرية بكل الآلات الحربية من المنجانيق وغيرها من وسائل الدفاع[1]. فأمر الإمبراطور بإعداد حملة لمهاجمة سواحل الشام بقصد عرقلة استعدادات المسلمين أو القضاء عليها. وبينما يمضي الخليفة الوليد في استعداداته للزحف على العاصمة البيزنطيين إذ وافته المنية سنة 96هـ/715م، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده في هذا الميدان، وهذا يدل على أن الروم كانوا يتخذون من السفراء والوفد وسيلة لجمع المعلومات في الدولة الإسلامية واستعداداتهم اتجاه الروم والتجسس على الدولة الإسلامية مستغلين كونهم رسلاً بين الدولتين مستفيدين من طبيعة المهمة السلمية التي يقومون بها[2].

وكانت هناك مراسلات وتبادل هدايا بين الخليفة الوليد بن عبد الملك وبين ملوك الروم حين أراد بناء الجامع الأموي، فعلى سبيل المثال ما أهداه الوليد إلى ملك الروم من كميات الفلفل قدرت قيمتها بعشرين ألف دينار[3]، وعند بناء المسجد السالف الذكر، عثر البناة في حائط المسجد القبلي على لوح من حجر يتضمن نقوشاً كتابية، فأصدر الوليد

---

[1] عبد اللطيف، العالم الإسلامي، ص256؛ الصلابي، الدولة الأموية، ج2، ص6-7؛ العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص159، عثمان، فتحي: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، د.ت، ج2، ص84؛ السويكت، الحملة الأخيرة، ص433-434.

[2] الصلابي، الدولة الأموية، ج2، ص82؛ عبد اللطيف، العالم الإسلامي، ص256؛ العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص256.

[3] ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص240؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، تح: روحية النحاس وآخرون، دار الفكر للطباعة، ط1، دمشق، 1402هـ/1984م، ج1، ص256؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص595؛ النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت، 927هـ/1521م): الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1310هـ/1990م، ج2، ص287؛ الكتاني، التراتيب الإدارية، ص308؛ الصلابي، الدولة الأموية، ج2، ص82.

أمره بإرسال هذا النقش إلى بيزنطة لفك شفرات مضمون النص المكتوب عليه. ورغم أن البيزنطيين لم ينجحوا في فك لغز النقش[1]، فإن هذه الاستشارة تعكس وجهاً آخر من مشاهد الصلات الودية بين العرب والبيزنطيين.وكانت هناك مراسلات بين الوليد وبين ملك الروم ولاسيما حينما هدم الوليد كنيسة دمشق، فكتب إليه ملك الروم: إنَّك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت[2]، وإن كان خطأ فما عذرك؟. فكتب إليه الوليد: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾[3]. وهناك روايات كثيرة تشير إلى التعامل السلمي وتبادل الخبرات بين الوليد وقيصر الروم، فقد أراد الوليد الاستفادة من خبرات الروم في صناعة الفسيفساء والبناء والعمران، وكانت هناك مراسلات متعلقة بالأسرى والرهائن بين الطرفين، فقد كانت من المسائل المهمة جداً وكانت المفاوضات بشأنها تجري أما في دمشق أو في القسطنطينية، وليس في مدن محلية صغيرة[4].

وتحوي المصادر أيضاً خبر سفارة بيزنطية تمت في عهد الخليفة الوليد، ويبدو أنها كانت تضم وفداً بيزنطياً كبيراً بدليل قول ابن كثير بأن البعثة شملت «جماعة من بلاد

---

(1) ابن أبي الهول، علي بن محمد بن صافي بن شجاع الربعي (ت، 444هـ/1052م): فضائل الشام ودمشق، تح: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ط1، دمشق، 1950م، ص34.

(2) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص297؛ الدينوري، أحمد بن مروان المالكي (ت، 333هـ/943م): المجالسة وجواهر العلم، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، دار ابن حزم، البحرين، بيروت، 1419هـ/1998م، ج7، ص203؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2، ص259؛ ج63، ص177؛ القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري (ت، 671هـ/1275م): الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ/1964م، ج11، ص308؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص290؛ الصلابي، الدولة الأموية، ج2، ص82.

(3) القرآن الكريم: سورة الأنبياء، الآيتان: 78-79.

(4) الصلابي، الدولة الأموية، ج2، ص82.

الروم رسلاً من عند ملكهم». ولا يمكن من خلال نص الرواية أن نستشف موضوع السفارة، وإن كان يغلب على الظن أنها عبارة عن زيارة تعارف ومجاملة، بدليل أن أعضاء الوفد البيزنطي دخلوا دمشق من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير للاطلاع على معالم المدينة المعمارية وفنون الحضارة العربية، فرأوا ما بهر عقولهم من روعة المسجد الجامع وسحر زخرفته، إلى درجة أن رئيس الوفد صعق من هول ما شاهده وسقط مغشياً عليه، وبقي أياماً بدمشق يتماثل للشفاء. ورغم المبالغة في هذه، فإن المبعوث البيزنطي بعد أن شوفي سئل عن سبب ما تعرض له فأجاب بأنه لم يكن يتصور أن العرب قد وصلوا إلى ذلك المستوى الراقي من النهضة العمرانية[1].

4-في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/715-717م):

لم يحدث في زمن سليمان أي تبادل للسفراء بين بيزنطة والعرب بل استمر الأمويون في غزو أراضي الروم في مناطق الحدود؛ فبعد موت الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ/715م تابع أخوه سليمان الإعداد والتجهيز لغزو القسطنطينية مستغلاً الظروف السيئة التي مرت بها الإمبراطورية؛ من تعاقب الأباطرة، وضعف بعضهم، والصراع حول العرش، والثورات والفتن وانتشار الفساد فقد كانت الإمبراطورية تعيش حالة ضعف تام[2]. حيث غزا ابنه داود بن سليمان الصائفة سنة 97هـ/716م، فافتتح حصن المرأة من أرض الروم من ناحية ملطية[3]، وغزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم فافتتح بعض الحصون

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص581.

(2) ماجد، التاريخ السياسي، ص245؛ عاقل، نبيه: خلافة بني أمية، جامعة دمشق، 1972م، ص246-247؛ العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص161؛ عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ج2، ص87؛ حسن، علي إبراهيم: التاريخ الإسلامي العام، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، د.ت، ص310.

(3) الطبري، تاريخ، ج6، ص523؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج17، ص155؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص84؛ 93؛ النويري، نهاية الأرب، ج21، ص347؛ ابن كثير، البداية، ج12، ص641؛ ابن خلدون، تاريخ، ج3، ص90؛ ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري (ت، 874هـ/1470م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، د.ت، ج1، ص236.

كبرجمة[1] وحصن الحديد وحصن ابن عوف[2]، كما غزا عمر بن هبيرة وذلك أرض الروم بهدف إلهاء السلطات البيزنطية والتمويه على الهدف الرئيس[3].

5-في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (99- 101 هـ/ 717- 720 م):

بلغت العلاقات الإسلامية البيزنطية أفضل حالاتها في العصر الأموي، في خلافة عمر بن عبد العزيز، ومعاصره الإمبراطور ليو الثالث**Leo 111** أو ليون الأيسوري (99-124هـ/717-741م). ولقد كان الاحترام والإعجاب متبادلين بين الخليفة والإمبراطور على المستوى الشخصي، فقد روى أنه عندما مرض الخليفة عمر، علم بذلك الإمبراطور ليون وأرسل إليه أحد أطباء القصر الإمبراطوري ليعالجه، ومما يدل على حسن العلاقات أن ذلك الطبيب كان قسيساً، أي من رجال الدين المسيحي[4].

ويبدو أن العلاقات الودية بين عمر بن عبد العزيز والإمبراطور ليون قد شجعت الخليفة على دعوة الإمبراطور إلى الإسلام حيث أرسل إليه وفداً يحمل رسالة بهذا الغرض. وقد كلف بهذه المهمة عبد الصمد بن عبد الأعلى بن عمرة الذي طلب من الخليفة – نظراً لأهمية السفارة – أن يرافقه وفد نحو الديار البيزنطية. وبطبيعة الحال لم يقبل الإمبراطور دعوة الخليفة ونصيحته، ولكنها لم تؤثر سلبياً على علاقاتهما، فقد استمرت ودية، وظل الإمبراطور على إعجابه بالخليفة المسلم ومكانته بين المسلمين واحترامه إلى وفاته، كما أنه قد يكون رغب في مجاملة مبعوثي الخليفة الذين كانوا في

---

(1) **برجمة:** ذكره ياقوت الحموي: حصن للروم في شعر جرير. معجم البلدان، ج1، ص374.

(2) ابن خياط، تاريخ، ص314؛ الطبري، تاريخ، ج6، ص523؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص84؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج6، ص266؛ السويكت، الحملة الأخيرة، ص435.

(3) الطبري، تاريخ، ج6، ص523؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص84؛ ابن كثير، البداية، ج12، ص621؛ طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط7، بيروت، 1431هـ/2010م، ص130.

(4) ابن عبد الحكم، عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع (ت، 214هـ/829م): سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، تح: أحمد عبيد، عالم الكتب، ط6، بيروت، 1404هـ/1984م، ص102؛ عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص303.

هذا الوقت في القسطنطينية، وشاهد رجالها مدى تأثير الإمبراطور ليو الثالث عندما بلغه خبر وفاة الخليفة[1]. وقد سجل المؤرخون مديحًا عظيمًا لإمبراطور الروم في حق عمر بن عبد العزيز وزهده،فقد روي أن عمر بن عبد العزيز بعث وفداً إلى ملك الروم، في أمر من مصالح المسلمين وحق يدعوه إليه ... فتلقاهم بجميل، وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم، فلما كان في غداة غدٍ أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضح التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها، كأنه في مصيبة، فقال: «هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مسلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت إن ملك العرب، الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، قد كان يخاف أن يدع طاعة الله في الدنيا، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافة الآخرة، ولقد بلغني من بره وفضله وصدقه، ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى، لظننت أنه يحيي الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره ظاهرا وباطنا، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا»[2].هذه أجمل صورة للعلاقات الإسلامية البيزنطية، تحمل أكثر من دلالة، ولها أكثر من معنى.

وقد تبعت هذه البعثة سفارة أخرى أرسلها الخليفة عمر، وإن لم تفصح النصوص عن موضوعها، حيث اكتفت بالقول أنها أرسلت لـ«أمر من أمور المسلمين»[3]. وربما كان

---

[1] المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص185.

[2] ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص148–149؛ المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص195؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج45، ص261–262؛ الذهبي، سير، ج5، ص142–143؛ كرد علي (محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1403هـ/1983م، ج1، ص125؛ عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص304.

[3] المسعودي، مروج الذهب، ج3، ص195.

هدف هذه البعثة من أجل تبادل إطلاق سراح الأسرى، ففي عهد الخليفة عمر حدثت مفاوضات بين بيزنطة والعرب للبحث في مسألة فداء الأسربالذي أعطى هذه المسألة الإنسانية جهده ووقته، فكان «يعطي برجل من المسلمين عشرة من الروم»[1]. فالخليفة عمر كان رجلاً صالحاً يكره الحرب والعنف بطبعه، فأوقف الحروب على الحدود الإسلامية البيزنطية، بل أمر برفع الحصار الذي كان يفرضه الجيش الإسلامي على القسطنطينية وأمر بعودة ذلك الجيش إلى الشام، واهتم بأمر الأسرى المسلمين الذين كانوا في أيدي البيزنطيين، فأرسل إلى القسطنطينية وفداُ من أجل التفاوض لافتدائهم، وعودتهم إلى بلادهم[2]. وبذلك تكون المساعي الحميدة المبذولة لإطلاق سراح الأسرى من البيزنطيين والعرب قد ساهمت إلى حدّ كبير في إشاعة الدفء في الصلات الودية بين العرب والبيزنطيين.

كما وفدت سفارة بيزنطية من عشرة رجال إلى دمشق، وبالمقابل عهد الخليفة عمر إلى عشرة رجال من المسلمين ممن يجيدون اليونانية بمرافقتهم وكلفهم أن يدونوا له كل ما يبدونه من ملاحظات، زار أعضاء الوفد البيزنطي الجامع الأموي، وأبدوا إعجابهم بالمعالم الفنية الرائعة للمسلمين في البناء والعمران والفن[3].

6-في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (105-125هـ/724-743م):

أن العلاقات استمرت بدون مشكلات كبيرة ولا اشتباكات خطيرة على الحدود إلى نهاية العصر الأموي 132هـ/750م[4]. وفي سنة (125هـ/743م) أرسل إمبراطور بيزنطة سفارة إلى الخليفة هشام بن عبد الملك بدمشق، ولما وصل سفير بيزنطة لدمشق، استقبله حشد من الناس فقيل للسفير البيزنطي: "لقد أعد الخليفة لك، وحشد الناس وهذا الاستقبال

---

(1) ابن سعد، الطبقات، ج5، ص260؛ الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران (ت، 430هـ/1038م): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة، القاهرة، 1394هـ/1974م، ج5، ص290.

(2) عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص303.

(3) ابن الفراء، رسل الملوك، ص33.

(4) عبد اللطيف، السيرة النبوية، ص305.

الرائع، لِمَ لمْ تلتفت إليها؟ فقال السفير: أن عيني وقلبي مملوءان مما خلفته ورائي يشغلهما عظيم ما عندنا عن صغير ما عندكم، فبلغ قوله إلى الخليفة هشام فقال: "قاتل الله العُلِجَ"[1].

الخاتمة

حاول البحث إلقاء الضوء على إحدى الحلقات المعتمة في تاريخ الإسلام بين العالم العربي والعالم البيزنطي، وقد أبانت الدراسة بعد تجميع شتات النصوص والوثائق المبعثرة في بطون المصادر العربية والبيزنطية وغيرها. فمن خلال دراسة السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية ومعاملة البيزنطيين للسفراء المسلمين تتضح لنا متغيرات السياسة البيزنطية تجاه القوى الإسلامية العظمى في العالم الإسلامية واتجاه السياسة البيزنطية نحو المسلمين ككل، وأتت هذه الدراسة لتوضح سياسة هامة في تاريخ المسلمين الدبلوماسي هذا التاريخ الذي يعد ناصعاً بمبادئه ومثله ومراسمه النابغة من سمو شريعة الإسلام الخالدة وشمولها. فالدولة الإسلامية حين تنطلق في الإطار الخارجي لتقيم علاقات مع غيرها من الدول فإنها تنطلق في ذلك من موقف قوي، وهو أنها صاحبة المبادأة في هذه العلاقات تحقيقاً لغايات سامية ترتبط بالمنهج الذي قامت عليه الدولة وهو الدعوة إلى الله، فالدولة الإسلامية لم تنشأ لديها مسألة هذه العلاقات لتحقيق مصالح دنيوية مادية ولكن لتؤدّي الغرض الذي قامت من أجله وهو السيادة الإسلامية في أرجاء المعمورة. كما جسّد إرسال المبعوثين والرسل وتبادل الهدايا انعكاساً أميناً للصالات الودية بين البيزنطيين والعرب خلال القرن الأول الهجري الذي شمل عصر النبوة والخلافة الراشدة ومعظم العصر الأموي.

فكانت عناية المسلمين بالسفراء والمبعوثين عناية فائقة تمثلت في الدور الذي قام به هؤلاء السفراء لدى الأمم والدول التي أُرسلوا إليها وما عرضوه من محاسن الإسلام، وعرَّفوا الآخرين بهذا الدين العظيم.

---

[1] ابن الفراء، رسل الملوك، ص37.

فقد بادر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى إرسال الرسل داعياً الملوك والأمراء في زمنه إلى الإسلام، وتبعه الخلفاء الراشدين والأمويين في ما سنّ من مبادرات. ويعد التاريخ الدبلوماسي لدى المسلمين تاريخاً راقياً ومشرفاً سواء من حيث الشروط المطلوب توفرها في الرسول أو من حيث مهامه وحصانته وامتيازاته، فقد شهد الفقه الإسلامي أحكاماً مختلفة تبحث في شؤون السفراء والرسل كحمايتهم وتأمينهم عند دخولهم أراضي الدولة الإسلامية من الاعتداء والاعتراض لهم أو فرض الجزية عليهم أو أخذ العشور على أمتعتهم وما يحملون، فالسفير في أمان حتى يعود لدولته، وكذلك الوفاء وعدم الغدر في علاقات المسلمين بغيرهم، وبحث الفقهاء أحكام السفراء والرسل المبعوثين أثناء إقامتهم في الدولة الإسلامية وغير ذلك من الأمور.

فيمكن القول أن السفارات في عصر النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين والأمويين استخدمت بقصد الدعوة إلى الدين الجديد، وإعلان الحرب دفاعاً عن حرماته وبلاده، والتمكين له بعقد المعاهدات مع ممثلي الأمصار والمدن المفتوحة. ولا يعني ذلك أن مهمة السفراء في الدولة الإسلامية مقصورة على الدعوة إلى الإسلام بل كانت مهامهم شاملة لمختلف جوانب العلاقات بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول إلا أن الدعوة إلى الإسلام كانت مقدمة الأهداف التي يُرسَل السفراء من أجلها. فقد اقتصرت مهام الرسل والسفراء قبل الإسلام على تحقيق مصالح الدول أو عقد الاتفاقيات والمعاهدات التي تضمن حالة السلم إما أن تأتي دولة إلى دين إلهي وتأمر الناس بإتباع منهج الله، بل تحارب من أجل العقيدة، فلم يتحقق ذلك إلا في الدولة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، 630هـ/1233م):

1- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1399هـ/1979م.

2- **الكامل في التاريخ**، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1407هـ/1987م.

3- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تح: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، د.م، 1415هـ/1994م.

- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن مهران (ت، 430هـ/1038م):

4- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار السعادة، القاهرة، 1394هـ/1974م.

- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت، 256هـ/870م):

5- **صحيح البخاري**، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ/2002م.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت، 279هـ/892م):

6- **فتوح البلدان**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني (ت، 458هـ/1065م):

7- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1405هـ/1984م.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن عبد الله الظاهري (ت، 874هـ/1470م):

8- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، د.ت.

- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (ت، 429هـ/1037م):

9- **الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد**، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1327هـ/1909م.

- الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت، 816هـ/1412م):

10- **كتاب التعريفات**، تح: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1403هـ/1983م.

- الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (ت، 370هـ/980م):

11- **أحكام القرآن**، تح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ/1994م.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد (ت، 597هـ/1200م):

12- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م.

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر الرازي (ت، 327هـ/938م):

13- **تفسير القرآن العظيم**، تح:أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط3، السعودية، 1419هـ/1998م.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت، 852هـ/1448م):

14- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ/1959م.

15- **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1415هـ/1994م.

- ابن حديدة، محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن حسن الأنصاري (ت، 783هـ/1381م):

16- **المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي**، تح: محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني (ت، 241هـ/856م):

17- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تح: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1421هـ/2001م.

- الختلي، إسحاق بن إبراهيم بن سنين (ت، 283هـ/896م):

18- **الديباج**، تح: ابراهيم صالح، دار البشائر، ط1، د.م، 1994م.

- الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت، 407هـ/1016م):

19- **شرف المصطفى**، دار البشائر الإسلامية، ط1، مكة، 1424هـ/2003م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت، 808هـ/1406م):

20- **تاريخ ابن خلدون**، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1988م.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت، 463هـ/1070م):

21- **تاريخ بغداد وذيوله**، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1997م.

- ابن خياط، خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (ت، 240هـ/854م):

22-**تاريخ خليفة بن خياط**، تح: أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، ط2، دمشق، بيروت، 1397هـ/1977م.

- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت، 282هـ/895م):

23- **الأخبار الطوال**، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، ط1، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1960م.

- الدينوري، أحمد بن مروان المالكي (ت، 333هـ/943م):

24- **المجالسة وجواهر العلم**، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، دار ابن حزم، البحرين، بيروت، 1419هـ/1998م.

- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت، 748هـ/1348م):

25- **العبر في خبر من غبر**، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

26- **سير أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، 1405هـ/1985م.

27- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1413هـ/1993م.

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي (ت، 666هـ/1267م):

28- **مختار الصحاح**، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، ط2، بيروت، صيدا، 1420هـ/1999م.

- ابن زكريا، أحمد بن فارس القزويني الرازي (ت، 395هـ/1004م):

29- **مقاييس اللغة**، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م.

- الزمخشري، جار الله محمود بن عمر بن أحمد (ت، 538هـ/1144م):

30- **أساس البلاغة**، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م.

- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت، 230هـ/845م):

31- **الطبقات الكبرى**، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1410هـ/1990م.

- ابن سعيد الأندلسي (ت، 685هـ/1286م):

32- **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، تح: نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، د.ت.

- ابن سلام، القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت، 224هـ/838م):

33- **كتاب الأموال**، تح: خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت.

- ابن سلام، محمد بن سلَّام بن عبيد الله الجمحي (ت، 232هـ/846م):

34- **طبقات فحول الشعراء**، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت.

- السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسني الشافعي (ت، 911هـ/1505م):

35- **وفاء الوفاء بأخيار دار المصطفى**، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م.

- ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد اليعمري الربعي (ت، 734هـ/1333م):

36- **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، تح: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، ط1، بيروت، 1414هـ/1993م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت، 911هـ/1505م):

37- **تاريخ الخلفاء**، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، د.م، 1425هـ/2004م.

- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم القرطبي (ت، 463هـ/1070م):

38- **بهجة المجالس وأنس الجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، تح: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981م.

39- **الاستيعاب في معرفة الأَصحاب**، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1412هـ/1992م.

- ابن عبد الحكم، عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع (ت، 214هـ/829م):

40- **سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه**، تح: أحمد عبيد، عالم الكتب، ط6، بيروت، 1404هـ/1984م.

- ابن العبري، غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي (ت، 685هـ/1286م):

41- **تاريخ مختصر الدول**، تح: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، ط3، بيروت، 1992م.

- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله (ت، 571هـ/1175م):

42- **تاريخ دمشق**، تح: محبّ الدين أبي سعيد عمرو بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت، 395هـ/1004م):

43- **الأوائل**، تح: محمد السيد الوكيل، دار البشير للثقافة، ط1، طنطا، 1408هـ/1987م.

- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين الحنبلي (ت، 616هـ/1219م):

44- **المشرف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم**، تح: ياسين محمد السواس، دار الفكر، دمشق، 1403هـ/1983م.

- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكريّ الحنبلي (ت، 1089هـ/1678م):

45- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمد الأرناؤوط، أخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، دمشق، بيروت، 1406هـ/1986م.

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت، 505هـ/1111م):

46- **التبر المسبوك في نصيحة الملوك**، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1409هـ/1988م.

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي (ت، 360هـ/970م):

47- **المعجم الأوسط**، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د.ت.

- الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت، 310هـ/922م):

48- **تاريخ الرسل والملوك**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، د.ت.

- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت، 709هـ/1309م)

49- **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، ط1، بيروت، 1418هـ/1998م.

- ابن الفراء، أبو علي محمد بن الحسين بن محمد بن خلف (ت، 458هـ/1065م):

50- **رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة**، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط2، بيروت، 1392هـ/1972م.

- الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب أبو طاهر (ت، 817هـ/1414م):

51- **القاموس المحيط**، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، بيروت، 1426هـ/2005م.

- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت، 276هـ/889م):

52- **عيون الأخبار**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1998م.

53- **المعارف**، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1992م.

- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري (ت، 671هـ/1275م):

54- **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1384هـ/1964م.

- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت، 821هـ/1418م):

55- **صبح الأعشى وصناعة الإنشا**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت، 751هـ/1350م):

56- **أحكام أهل الذمة**، تح: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر، ط1، الدمام، 1418هـ/1997م.

- الكتاني، محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير بن محمد الحسني الإدريسي (ت، 1382هـ/1962م):

57- **نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية**، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط2، بيروت، د.ت.

- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشيّ الدِّمشقيّ (ت، 774هـ/1372م):

58- **تفسير القرآن العظيم**، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419هـ/1998م.

59- **السيرة النبوية**، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة، بيروت، 1395هـ/1976م.

60- **البداية والنهاية**، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/1997م.

- الكلاعي، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري (ت، 634هـ/1237م):

61- **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء**، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1420هـ/2000م.

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت، 450هـ/1058م):

62- **نصيحة الملك**، تح: خضر محمد خضر، مكتبة الفلاح، ط1، الكويت، 1403هـ/1983م.

- ابن المبرد الحنبلي، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي (ت، 909هـ/1503م):

63- **محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، تح: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، المدينة النبوية، 1420هـ/2000م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت، 346هـ/958م):

64- **التنبيه والإشراف**، تح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت.

65- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5، بيروت، 1393هـ/1973م.

- المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت، 770هـ/1368م):

66- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م.

- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (ت، 845هـ/1441م):

67- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ/1998م.

- المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (ت، ق4هـ/10م):

68- **المنتخب في تاريخ المنبجي**، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، ط1، لبنان، 1406هـ/1986م.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت، 711هـ/1311م):

69- **لسان العرب**، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ/1993م.

70- **مختصر تاريخ دمشق**، تح: روحية النحاس وآخرون، دار الفكر للطباعة، ط1، دمشق، 1402هـ/1984م.

- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران (ت، 430هـ/1038م):

71- **دلائل النبوة**، تح: محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، دار النفائس، ط2، بيروت، 1406هـ/1986م.

- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت، 927هـ/1521م):

72- **الدارس في تاريخ المدارس**، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1310هـ/1990م.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكري (ت، 733هـ/1333م):

73- **نهاية الأرب في فُنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، القاهرة، 1423هـ/2002م.

- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت، 213هـ/828م):

74- **السيرة النبوية**، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، القاهرة، 1375هـ/1955م.

- ابن أبي الهول، علي بن محمد بن صافي بن شجاع الربعي (ت، 444هـ/1052م):

75- **فضائل الشام ودمشق**، تح: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ط1، دمشق، 1950م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي (ت، 626هـ/1228م):

76- **معجم البلدان**، دار صادر، ط2، بيروت، 1995م.

- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت، 292هـ/905م):

77- **تاريخ اليعقوبي**، تح: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت، 1431هـ/2010م.

ثالثاً: المراجع

1-التابعي، محمد: **السفارات في الإسلام**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م.

2-توفيق، عمر كمال: **الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

3-التويجري، عبد العزيز بن عثمان: **الدبلوماسية الإسلامية في خدمة الحوار والسلام**، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، 1430هـ/2009م.

4-الجلعود، محماس بن عبد الله بن محمد: **الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية**، دار اليقين للنشر والتوزيع، ط1، د.م، 1407هـ/1987م.

5-حسن، علي إبراهيم: **التاريخ الإسلامي العام**، مكتبة النهضة المصرية، ط2، القاهرة، د.ت.

6- أبو الحسن الندوي، علي بن عبد الحي بن فخر الدين: السيرة النبوية، دار ابن كثير، ط12، دمشق، 1425هـ/2004م.

7-حميد الله، محمد الحيدر آبادي الهندي: **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار النفائس، ط6، بيروت، 1406هـ/1985م.

8-خطاب، محمد شيث:

- **سفراء النبي** ﷺ، دار الأندلس الخضراء، مؤسسة الريان، ط1، السعودية، بيروت، 1417هـ/1996م.
- **الرسول القائد**، دار الفكر، ط6، بيروت، 1422هـ/2001م.

9-الخلف، سالم بن عبد الله: **نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس**، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، المدينة المنورة، 1424هـ/2003م.

10-الرحيلي، سليمان: **السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية "سفارات الدولة العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس**، مكتبة التوبة، الرياض، 1414هـ/1993م.

11-رستم، أسد: **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب**، دار المكشوف، ط1، بيروت، 1955م.

12-سالم، عبد الرحمن أحمد: **المسلمون والروم في عصر النبوة، دراسة في جذور الصراع وتطوره بين المسلمين والبيزنطيين حتى وفاة الرسول** ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ/1997م.

13-سفر، حسن بن محمد: **السفارات في النظام الإسلامي**، جامعة الملك عبد العزيز، 1417هـ/1996م.

14- الشحود، علي بن نايف: **الخلاصة في حكم الاستعانة بالكفار في القتال**، ط1، 1432هـ/2011م.

15- الصلابي، علي محمد:

- **معاوية بن أبي سفيان ـ شخصيته وعصره**، دار الأندلس الجديدة، ط1، مصر، 1429هـ/2008م.
- **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط7، بيروت، 1429هـ/2008م.
- **الدولة الأمويةعَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار**، دار المعرفة للطباعة، ط2، بيروت، 1429هـ/2008م.

16- ضميرية، عثمان بن جمعة:

- **السفارة والسفراء في الإسلام**، الطائف، 1421هـ/2000م.
- **العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث**، كلية الدراسات العليا، ط1، جامعة الشارقة، 1428هـ/2007م.

17- طقوش، محمد سهيل:

- **تاريخ الخلفاء الراشدين**، دار النفائس، ط1، د.م، 1424هـ/2003م.
- **تاريخ الدولة الأموية**، دار النفائس، ط7، بيروت، 1431هـ/2010م.

18- عاقل، نبيه: خلافة بني أمية، جامعة دمشق، 1972م.

19- عبد الرحمن، عبد الرحمن محمد: **الدبلوماسية الإسلامية**، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، 2006م.

20- عبد اللطيف، عبد الشافي محمد:

- **السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي**، دار السلام، ط1، القاهرة، 1428هـ/2007م.
- **العالم الإسلامي في العصر الأموي دراسة سياسية**، دار السلام للطباعة، ط1، القاهرة، 1429هـ/2008م.

21- عثمان، فتحي: **الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**، الدار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة، د.ت.

22- العدوي، إبراهيم أحمد: **الأمويون والبيزنطيون**، مكتبة الأنجلو المصرية، 1372هـ/1953م.

23- عطية الله، أحمد: **القاموس السياسي**، دار النهضة العربية، ط3، القاهرة، 1968م.

24- عفيفي، محمد صادق:

- **تطور التبادل الدبلوماسي في الإسلام**، مكتبة الأنجلو المصرية، 1905م.
- **المجتمع الإسلامي والعلاقات الدولية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.

25- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار الساقي، ط4، د.م، 1422هـ/2001م.

26- عنان، محمد عبد الله: **مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام**، الناشر حسين العنان، ط5، القاهرة، 1417هـ/1997م.

27- الفتلاوي، سهيل حسين: **الدبلوماسية الإسلامية، دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2006م.

28- الفرجاني، عمر أحمد: **أصول العلاقات الدولية في الإسلام**، دار اقرأ للطباعة والنشر، مكتب الجماهيرية، ط2، طرابلس، 1397هـ/1988م.

29- فرحات، كرم حلمي: **تاريخ المخابرات الإسلامية عبر العصور**، مكتبة الإمام البخاري، ط1، مصر، 1428هـ/2007م.

30- الفيومي، محمد إبراهيم: **تاريخ الفكر الديني الجاهلي**، دار الفكر العربي، ط4، د.م، 1415هـ/1994م.

31- كرد علي، محمد: **خطط الشام**، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1403هـ/1983م.

32- كرمي، أحمد عجاج: **الإدارة في عصر الرسول** ﷺ، دار السلام، ط1، القاهرة، 1427هـ/2007م.

33- الكيالي، عبد الوهاب: **موسوعة السياسة**.

34- ماجد، عبد المنعم: **التاريخ السياسي للدولة العربية**، عصر الخلفاء الأمويين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، القاهرة، 1983م.

35- المبيضين، مخلد عبيد: **أصول العلاقات الدولية في الإسلام**، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع ط3، عمان، الأردن، 1433هـ/2012م.

36- المنجد، صلاح الدين:

- **معجم بني أمية**، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1970م.
- **النظم الدبلوماسية في الإسلام**، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1983م.

37- المهيري، سعيد عبد الله حارب، **العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية**، دراسة مقارنة، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1416هـ/1995م.

38- **الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي**.

39-يوسف، جوزيف نسيم: **تاريخ الدولة البيزنطية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984م.

رابعاً: الرسائل الجامعية

1-حميدية، أمينة؛ عليان، ملكية: **السفراء والدبلوماسيون في التاريخ الإسلامي ما بين القرنيين 4 و6هـ/10 و12م**، رسالة ماجستير، إشراف: فاطمة الزهراء مالكي، جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1435-1436هـ/2014-2015م.

2-عطية، أمال سالم: **السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14)**، أطروحة دكتوراه، إشراف: عبيد بوداود، جامعة اسطمبولي معسكر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، 1436-1437هـ/2015-2016م.

3-نجم، جمال أحمد جميل: **أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير**، إشراف: جمال حشاش، كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2008م.

خامساً: المقالات

1-الربيع، وليد خالد: "**الحصانات والامتيازات الدبلوماسية في الفقه الإسلامي والقانون الدولي (دراسة مقارنة)**"، جامعة الكويت، مجلة الفقه والقانون.

2-السويكت، سليمان بن عبد الله: "**الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي**"، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد112، 1424هـ/2004م.

سادساً: المراجع الأجنبية

1- Michel le Zyrien, Chronique, Texte syriaque ،Traduit en français par J.B. Chabot, Paris, 1899.

2- Miller: Studies in Byzantine Diplomacy sixth to Tenth Century ph. D. 1963. Rutgers, The ststeuniversity, U. S. A.

3- Theophanes, The chronicle of Theophanes (A ،D602-813) Translated by Idarry turtledove, U.S.A ،Pensylvania, 1982.

الآثار المعمارية لأسعد باشا العظم في دمشق (قصر وخان العظم) (1163-1171هـ/ 1749 -1757م).

الباحث: د. نزار داوود سلطان

(تاريخ العرب والإسلام)

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

ملخص البحث باللغة العربية

يعدُّ قصر العظم من أهم وأجمل القصور التي شيدت في الفترة العثمانية خلال بداية القرن الثامن عشر ونموذجاً فريداً للعمارة الإسلامية وكذلك الخان الذي أُشيد ليكون أكبر محطة استراحة استراتيجية على طريق الحرير وطريق قوافل الحج الشامي وسوقا كبيراً لتبادل التجار القادمون إلى الشام بضائعهم فيه، ليصبح أعظم خانات الشرق قاطبة والتي تم بناؤها في أرجاء السلطنة العثمانية.

إذ تميَّز القصر بجميع أنواع الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية، وتأثر زخارفه بالتراث السوري المملوكي، أمَّا الخان فنلاحظ من وصفه المعماري أنه يمتاز بسعته وهندسته الدقيقة وبنائه وفق فنون العمارة العربية الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: (أسعد باشا العظم، قصر، خان، دمشق، عناصر معمارية، أقسام، زخارف، تناوب لوني، مواد البناء).

Abstract

Al-Azm Palace is considered one of the most important and beautiful palaces that were built in the Ottoman period during the beginning of the eighteenth century and a unique model of Islamic architecture, as well as the khan, which was built to be the largest strategic resting station on the Silk Road and the Levantine pilgrimage caravan route, and a large market for merchants coming to the Levant to exchange their goods in it, to become the greatest khan East as a whole, which was built throughout the Ottoman Sultanate.

The palace was distinguished by all kinds of geometric, botanical, and epigraphic decorations, and its decorations were influenced by the Syrian Mamluk heritage. As for the khan, we notice from its architectural description that it is distinguished by its capacity, precise engineering, and its construction according to the arts of Arab-Islamic architecture.

key words: (Asaad Pasha al-Azem, palace, khan, Damascus, architectural elements, sections, decorations, color alternation, building materials).

مُقدِّمة:

تعدُّ سورية من أغنى بلاد الأرض بتنوع الحضارات والآثار وأوابد مثلها مثل طبيعتها المتنوعة من الصحراء إلى الجبال والسهول والبحر والأنهار، وأعظم وأعرق مدن سوريا هي "دمشق"، حيث تتميز بأنها أقدم عاصمة مستمرة في العالم، وقد تعاقب عليها شعوب حضارات عديدة منهم العثمانيون حيث حكموها بعد أسابيع من هزيمة المماليك في مرج دابق قرب حلب عام(1516م).

واستمرِّ حكمهم طوال خمسة قرون، وتعاقب على حكم دمشق عدد من الحُكَّام والأسر العثمانية لعلَّ أشهرها أسرة آل العظم التي لعبت دوراً هاماً في خلال القرن الثامن عشر في حياة بلاد الشام في شتى مناحي الحياة الإدارية والاجتماعية وحتى الاقتصادية.

وتميز من حكام آل العظم في دمشق أسعد باشا العظم حيث شهد عصره الكثير من بناء القصور والخانات والحمامات التي خلدت اسمه وتاريخه، ونظراً لأهمية ما بناه أسعد باشا العظم في دمشق فقد اختار الباحث الحديث عن أعظم أثرين أشادهما هذا الوالي العثماني خلال فترة حكمه لدمشق (1163هـ-1171هـ/ 1749- 1757م).

إذ يُعدُّ قصر أسعد باشا العظم أهم دار أو قصر بُني في هذا العصر، إذ كان له صلة وثيقة بالفن الإسلامي، فقد كان الأنموذج الوحيد الذي حفظته دمشق لدور الوزراء أو الرمال الرسميين في مختلف عهود التاريخ الإسلامي، فقد اختار أسعد باشا العظم موقع هذا القصر بعناية فائقة ليجد المكانة والقوى السياسية والاجتماعية التي تمتاز بها عائلة العظم في سوريا خلال العصر العثماني، وليستفيدوا من المزايا الاقتصادية والسياسية لسوقين من الأسواق الرئيسية في المدينة القديمة، حيث يتمركز في نقطة تقاطع مهمَّة بين طرق القوافل المارة بمدينة دمشق بين الجامع الأموي والشارع المستقيم.

أمَّا خان أسعد باشا فبما أنَّه كان لدمشق دور اقتصادي وتجاري مهم أدَّته على مرِّ العصور، لذلك كان هذا السبب الرئيسي في إشادة أعظم خانات الشرق، حيث بنى أسعد باشا العظم على بعد بضعة مئات الأقدام من قصر العظم، خاناً للقوافل التجارية،

وقد حمل هذا الخان اسم خان أسعد باشا، ويعدُّ أكبر محطة استراحة استراتيجية على طريق الحرير وطريق قوافل الحج الشامي.

إشكالية البحث:

يطرحُ البحث إشكاليات وفرضيات عدَّة منها: معرفة الأسباب التي دفعت أسعد باشا العظم لبناء القصر والخان، وما هي أهم العناصر المعمارية في القصر والخان؟!. ولماذا تمَّ بناءهما في دمشق؟! وما هي أهم أقسام المعلمين المعماريين؟، و ما هي مواد البناء التي استخدمت في عملية البناء؟!.

أهمية البحث:

يُعدُّ البحث ذا أهمية بالنسبة للباحثين في حقل الدراسات الجغرافية والأثرية، ومن جهة أخرى فإنَّ المادَّة التي احتوى عليها مضمون البحث لها أهميتها في تاريخ بلاد الشام الحضاري.

أهداف الدراسة:

توضح الدراسة مجموعة أهداف أهمها:

تسليط الضوء قصر وخان أسعد باشا العظم، والأقسام التي احتوها كل واحد منهما، ومعرفة العناصر الزخرفية، والمعمارية في كليهما.

الإطار النظري للبحث:

تتمثل الحدود المكانية للبحث بالحديث عن قصر وخان أسعد باشا العظم في مدينة دمشق، ودراسة أهم منجزات والي دمشق أسعد باشا العظم وما قام بها من آثار عمرانية خلال فترة حكمه(1163-1171هـ/ 1749- 1757م).

منهج البحث:

سيُتَّبع في البحث المنهج التاريخي، بتناول معلومات القصر والخان من المصادر والمراجع العربية والمعربة، وسيُعتمد على المنهج المُقارن بالحديث عن أهم أقسام القصر والخان، وتبيان أهمية كلاً منهما.

أولاً- قصر أسعد باشا العظم (1163هـ/1749م):

1- أسعد باشا العظم:

لعِبَ آل العظم خلال القرن الثامن عشر دوراً هاماً في حياة بلاد الشام في شتى مناحي الحياة الإدارية والاجتماعية وحتى الاقتصادية ومنهم من وجد في قونية أو في المعرة وحماة كما وجد في البلقاء وقد ظهر منهم رجال كان لهم شأن في حياة بلادنا خلال خمسين عاماً من ذلك القرن، ويمكن القول أنه بعد معركة مرج دابق في حلب عام(1516م)، والتي أزاحت حكم المماليك عن بلاد الشام، برز دور عزيم أوغلو شيخ قبيلة عزيم فاتخذه السلطان سليم العثماني على نيابة سوريا بعد أن أخذ أولاد الشيخ السبعة كرهان خشية أن يثور الشيخ عزيم هذا على السلطان العثماني، كما ظهر من آل العظم خلال الحكم العثماني لبلاد الشام إبراهيم عميد آل العظم الذين استوطنوا المعرة وحماة وقد تسلسل من إبراهيم رجال تولوا شؤون سوريا ومنهم من قام ببناء الدور والقصور والجسور والمدارس والخانات، وكان أبرز أبناء إبراهيم الأخوين إسماعيل باشا والد أسعد باشا وسليمان شقيق إسماعيل[1].

و أسعد باشا: هو الوزير أسعد باشا ابن إسماعيل باشا ابن الأمير إبراهيم بك الذي نشأ في قونية، كان قد أتى من حماة إلى دمشق والياً عليها بعد وفاة سليمان باشا العظم وذلك سنة (1156هـ/1743م) وبقي في منصبه أربعة عشر عاماً إلى سنة (1170هـ/ 1756م)[2] وقد درس أسعد باشا اللغات العربية والتركية والفارسية والعلوم وكان مولعاً بركوب الخيل والعمران وقد شهد عصره الكثير من بناء القصور والخانات والحمامات وكان على درجة كبيرة من الحنكة والفطنة، الأمر الذي أهّله على مواجهة ما يعتريه للوصول إلى مبتغاه[3].

[1] المعلوف(عيسى): قصر آل العظم في دمشق، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012م ص9.

[2] عمر(عمر): تاريخ المشرق العربي (1516هـ/ 1922م)، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م ص16.

[3] المعلوف: قصر آل العظم في دمشق، ص10.

وقد تميز أسعد باشا خلال ولايته على دمشق بكثير من أعمال البناء أكان ذلك في دمشق وريفها أم على طريق الحج الشامي، وقام باتخاذ عدة إجراءات لتوفير وتأمين الحماية والمستلزمات اللازمة لقوافل الحج حيث أقام جسر الكسوة وعمر الخزانات والأبراج على طريق الحج[1] حتى أن قافلة الحج الشامي لم تتعرض لأي مكروه خلال أربع عشرة عاماً من ولاية أسعد باشا لدمشق[2].

ولما شعرت الدولة العثمانية بما وصل إليه أسعد باشا من مقدرة خافت من استفحال أمره فنقلته والياً على حلب فكان له في حلب ما كان له في دمشق فنقلته إلى مصر فلما تمسكت به حلب عملت الدولة على نقله إلى سيواس ثم أنقرة حيث قتل عام (1171هـ/ 1757م) وترك وراءه ثروة عريضة، ثم صادرت الدولة ممتلكاته[3]، ولعل أهم ما ترك أسعد باشا في دمشق هو قصره سنة (1163هـ/ 1749م) والذي كان لسكناه وهو من أكثر القصور روعة وفخامة[4] وخاناً فخماً قل أن تجد في دمشق خاناً مثله في سعته وجمال زخارف واجهته وطراز بنائه، وهذه الآثار الباقية تعد من الأعمال الجليلة التي قام بها أسعد باشا ولقد خلدت اسمه وذكره.

2- الموقع الجغرافي للقصر:

يقع هذا القصر في قلب مدينة دمشق بجوار سوق البزورية، بين الجامع الأموي في الشمال والشارع المستقيم (شارع مدحت باشا حالياً) في الجنوب في بقعة لها شأن من

---

[1] المنجد(صلاح الدين): قصر أسعد باشا العظم بدمشق، مجلة الأديب، العدد 9، بيروت، 1946م، ص39.

[2] قدور(محمد سالم): قصر العظم متحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية القديمة، بيروت، ط1، 1997م، ص11.

[3] شحادة، المصري(كامل، عبد الرحيم): قصر العظم في حماة، مطابع الإصلاح، حماة، 1965م، ص 15-16.

[4] الشهابي(قتيبة): معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م،ج2، ص123.

الوجهة الأثرية[1]، هذه البقعة كان أنشأ فيها زمن الأيوبيين والمماليك كثير من المدارس والأبنية التاريخية كالمدرسة الجوزية التي بناها ابن الجوزي المتوفي في سنة(656هـ/ 1258م)[2]، والمدرسة الفارسية التي أوقفها الدوادار سيف الدين فارس سنة(808هـ/ 1405م)[3] والمدرسة التنكرية التي بناها أمير الأمراء تنكز سنة (729هـ/ 1328م) [4] والمدرسة القليجية التي أوقفها الأمير سيف الدين قليج وعمرت بعد وفاته سنة(645هـ/ 1244م)[5] وحمام نور الدين بقرب هذه البقعة التي قام فيها القصر يمر سوق من أعظم أسواق المدينة في مختلف العصور، وهو سوق البزورية اليوم أو سوق القمح كما كان يسمى في القديم، وقد قام هذا القصر مكان "دار الذهب" التي بناها نائب النعيمي: عبد القادر الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس السلطان بدمشق تنكز وكانت "دار الفلوس" فعمرهاوبالغ في زخرفتها وسماها دار الذهب وعمر أمامها تماماً في جنوبها دار القرآن والحد بين التنكرية[6]، ومما يؤيد هذا النص التاريخي أن الأسبار التي قام بها الفرنسيون في القصر عام 1935م على عمق 250 سم وقد أظهرت بحيرة صغيرة من الفسيفساء ظهر وشعار تنكز[7].

أما قبل أن تكون دار الذهب فقد ذكرت المصادر أنها كانت (دار الفلوس) وقبل ذلك في صدر الإسلام جعلها بعضهم دار خالد بن الوليد، بينما ذكر أحمد بدير الحلاق

---

[1] قدور: قصر العظم، ص 194.

[2] النعيمي(عبد القادر): الدارس في تاريخ المدارس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2014م، ص 140.

[3] النعيمي: الدارس، ص 85.

[4] النعيمي: الدارس ، ص 52.

[5] النعيمي: الدارس، ص 88.

[6] النعيمي: الدارس، ص 52.

[7] بدران(عبد القادر): منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1985م، ص 376.

أنها دار معاوية بن أبي سفيان[1] ومما لا شك فيه أن قسماً منها كان قبل أن يدخل المسلمون دمشق قطعة من صحن معبد جوبيتر، ومن المؤكد أن أساس سور هذا المعبد يمر من صحن قصر العظم، وقد يظهر هذا إذا أجريت أسبار فيه تمتد باستقامة الجدار الروماني الذي نرى بقاياه أمام باب سوق الخياطين في شمال المدرسة النورية الكبرى، وقد استغرق بناء القصر ثلاث سنوات.

3- طريقة بناء القصر:

إنَّ لبناء القصر قصة من أطرف ما يؤثر تدلنا على سيرة هذا الرجل وفرط عنايته بإنشاء قصره وقد تدلنا على ما كان عليه الولاة في دمشق زمن العثمانيين فالمؤرخ البديري يسرد علينا كيف بني القصر.

قال البديري في حوادث سنة(1163هـ) شهر ربيع الأول ما يلي:" في تلك الأيام أخذ الوزير أسعد باشا دار معاوية رضي الله عنه وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمهم وشرع في عمارة داره السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي وجدوا واجتهدوا في عمارتها ليلاً ونهاراً[2].

فقطع لها حملة من الخشب اثنا عشرة ألف خشبة، وذلك ما عدا الذي أرسلوه له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها، ورسم على حمامات البلد واشتغل بها غالب معلمين البلد ونجاريها وكذلك النحاتين، وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة، وأينما وجد بلاط أو رخام أو غير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل يقلعهم ويرسل القليل من ثمنهم[3].

ثمنهم[3].

[1] البديري(أحمد): حوادث دمشق اليومية(1154-1175هـ/1741-1762م)، تح: أحمد عزت عبد الكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ط1، 1959م، ص 141.

[2] الصواف(حسن زكي): دمشق أقدم عاصمة في العالم، دار قتيبة، دمشق، ط1، 2004م، ص 307.

[3] كرد علي(محمد): خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1983م، ج5، ص 287.

وكان في قرب تربة البرامكة قصر الزهرانية قبله ومن عمارة الملك الظاهر وهو على ظهر بانياس هطل على المرجة، وكان مكان منتزه عظيم تهدم، غالبة وفي قربه مدفن وعليه قبة من حجر ورأس القبة مقلوع، فأخبر حضرة الوزير أسعد باشا صاحب العمارة عن هذه القبة وعن المدفن الذي بجانبها، وأن الأنذال والأشقياء يجتمعون عندها هناك ليلاً ونهاراً على فسق ونساء وغير ذلك، فأمر بهدها حالاً ونقل حجارتها إلى داره، وفي تلك الأيام بلغ حضرة الوزير أن في جانب دار ابن كيوان طاحونة قديمة يقال لها طاحون الرهبان قد تهدمت ولم يبقى منها على نهر بانياس سوى رسوم أسفلها وأنها مركبة على بانياس فحالا أمر حضرة الباشا بقطع نهر بانياس وأن يخرجوا جميع ما فيها من أعمدة وأحجار وينقلوهم إلى الدار فاشتعلت القلعة والحجارة، واستقاموا يقلمون الأحجار وينقلونها إلى دار الباشا اثنا عشر يوماً والنهر مقطوع عن أصحابه وفي يوم الخميس من هذه السنة عمل حسن أفندي السفر جلاتي وليمة لحضرة أسعد باشا والي الشام الصالحية في قاعة أبي قرنق وكانت ضيافة عظيمة، قيل تكلف عليها نحو 11 مائة قرش فنظر حضرة الباشا إلى سروات شاهقات في داره، فطلب من صاحبهم علي آغا بن قرنق قطعهم لأجل عمارة داره وعرض أسعد باشا صاحب العمارة عليه شيئا من المال، فأبى أن يأخذ من ثمنهم شيئاً وقطع له ثلاث سروات ليس لهم نظير في الشام ولا في غيرها[1] ونقل من قرية بصرى[2] أحجاراً وأعمدة من الرخام شيئاً كثيراً وأخذ من مدرسة الملك الناصر التي في الصالحية أعمدة غلاظاً جيء بهم محملين على عربات تجر بالبقر ونقل إليها أعمدة من جامع يلبغا[3]، وكان كلما سمع بلاط بديع أو أعمدة أو أحجار من أي محل كان يأتي بها شراء أو غير شراء.

[1] الحصني(محمد أديب آل تقي الدين): منتخبات التواريخ لدمشق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1979م، ج1، ص 1094.

[2] قرية من قرى حوران وهي قصبتها. الحموي(ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1993م، ج1، ص 441.

[3] بني سنة(757هـ/ 1356م)، ويقع على نهر بردى تحت قلعة دمشق. النعيمي: الدارس، ص 268.

كما أنه في تلك الأيام قتل ابن خطاب الآلاتي في سوق البزورية محل آذان العشاء وجاءه ضرب سلاح على رأسه أخذ نصف رقبته مع رأسه فوقع قتيلاً كان ما كان هذا ووزير الشام مشغول في عمارة داره ولم يلتفت إلى رعاياه وأنصاره ويقول: آتوني بحجارة من الرخام والمرمر والسرو وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة، وقرب سوق مسجد القصب واستجلب جميع ما فيه من أحجار وأخشاب وكلما سمع بقطعة أو تحفة من رخام أو قيشاني أو غيرها يرسل يأتي بها إن رضي صاحبها أو أبى، وإذا أراد الفقير أن يعمر أو يرمم لم يجد معمارياً ولا نجاراً ولا خشباً ولا تراباً ولا أحجاراً وهذا مع غلاء الأسعار وحلول الأكدار، وقد أخذ حضرة الباشا قدراً وافياً من ماء القنوات فما وصل إلى السرايا حتى تقطعت السبل ومياه غالب الجوامع والحمامات وبقي مدة مقطوعاً حتى عن غالب البيوت[1].

4- وصف القصر:

أ- الوصف المعماري:

يتألف قصر العظم من عدد من الكتل المعمارية المختلفة فهناك أقبية تحت القاعة الكبرى وفي جناح الخدملك للمونة وهناك قاعات بلغ عددها 16 قاعة كبيرة و19 غرفة أرضية وتسع غرف في الطابق العلوي وثلاثة أواوين[2] اثنان في جناح الحرملك الجنوبي الشمالي والثالث في جناح السلاملك ورواق بخمسة أقواس محمولة على أعمدة ذات قواعد وتيجان مزخرفة، وهو الذي يفصل الباحث السماوية بقسم الحرملك على الرواق الشمالي، يعد قصر العظم نموذجاً مثالياً لعمارة القصور التي تعود إلى العهد العثماني ويألف القصر من ثلاثة أقسام رئيسية السلاملك والحرملك والخدملك[3] وله مدخل عبارة عن بوابة أسفلها باب خوخة وتقضي إلى حمر عريض ذي سقف مقبب يقود

[1] البديري: حوادث دمشق اليومية، ص 143-144.

[2] كلمة فارسية، تعني صالة الاستقبال. صارم (وفاء): الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، منشورات جامعة تشرين، اللاذقية، 2015م، ص 354.

[3] كولار(بولو): سوريا قضايا حفظ الآثار والمواقع الأثرية والاستفادة منها، مطبعة الترقي، دمشق، 1955م، ص 12.

مساره الجنوبي إلى جناح الضيوف (السلاملك) والشمالي إلى جناح العائلة (الحرملك)[1]، كما تنتشر الفسحات السماوية وأربع برك ماء كبيرة كانت تستمد ماءها من فرع القنوات أحد فروع نهر بردى ويوجد حمام متكامل داخل القصر وتبلغ المساحة الحالية للقصر 5500 م2 تقريباً[2].

ويتألف القصر من مجموعة من الأقسام أهمها:

أ- أ- المدخل:

يتألف من بوابة كبيرة في منتصف قسمها السفلي باب صغير يدعى باب خوخة تؤدي إلى ممر عريض مسقوف بعقود متقاطعة يفرع هذا الممر في اتجاهين – الجنوبي منها يؤدي إلى جناح الضيوف والشمال يؤدي إلى جناح العائلة ومنها إلى جناح الخدم.

ب- أ- جناح الضيوف:

ويسمى أيضاً جناح "السلاملك" ويقع في الجهة الجنوبية الغربية من القصر وهو مؤلف من صحن مستطيل على كتفيه غرفتان وقد احترق هذا القسم عام 1925م، ولم يعد إلى ما كان عليه يتصل بمدخل القصر عن طريق الممر العريض ويتصل بجناح العائلة "الحرملك" عن طريق ممر ضيق ولهذا الجناح باب خارجي فرعي في الجدار الجنوبي ويوجد فسحة سماوية تتوسط جناح الضيوف مزودة ببركة ماء كبيرة مستطيل الشكل، وروعي في هذا الجناح ما ينبغي أن يكون في مكان يجلس فيه الوالي للناس، ويستقبل فيه أرباب الدولة وأصحاب الأمور، ولهذا جعل السلاملك ظاهراً رائعاً فيه الأبهاء

[1] مدفيدك(سيرغي): سوريا تاريخ كبير لبلد عريق، تر: عياد عيد، دار الينابيع، دمشق، ط1، 2002م، ص 48.

[2] المنجد: قصر أسعد باشا العظم بدمشق، ص 39.

الواسعة وفيه قاعة مزخرفة وفيه ديوان كبير وكل ذلك قد مسح مسحة من الجمال الصناعي الفني[1].

ج- أ- جناح العائلة:

ويسمى "الحرملك" وهذا الجناح كان محظوراً على أي رجل غريب الدخول إلى هذا الجناح ويشغل هذا الجناح مساحة تزيد عن ثلثي مساحة القصر الإجمالية وهو أعظم الأقسام شأناً وأروعها زينة وأوسعها غرفاً وله صحن واسع جداً 45 * 25 م. فبلط ببلاط مختلف الألوان عليه أشكال هندسية مختلفة وفيه أشجار وزهور متنوعة وفيه بحيرتان الأولى مستطيلة واسعة أمام الإيوان والثانية مدورة في غرفها وعلى أطراف الصحن نجد الغرف وهي غرف واسعة تصلح بعضها ليسكن في الصيف، وبعضها ليسكن في الشتاء[2] و للجناح ثلاثة أبواب تصله بالمدخل الرئيسي وممر ضيق – يوجد فيه الجناح إيوانان شمالي معمر وجنوبي ذو قوس شاهق مخصصان للجلوس ويوجد في الجناح حمام خاص للعائلة يحتوي على الأقسام الأساسية (بارد– دافئ– ساخن)[3]، وأهم قاعات الحرملك "القاعة الكبرى" بطرزاتها الثلاث التي تغنى صاحب الدار بها.

هذا وقد بنى القسم المطل منها على الباحة بالحجر المزي والأبيض والأسود، أما في الداخل فقد غشاها بالمرمر والرخام جاعلاً لها ثلاث طرازات أحدهما وهو الجنوبي واثنان متقابلان هما الشرقي والغربي وجعل في كل طرز نوافذ والطرزان المتقابلان متماثلان وكانت سائر أحجارها منقوشة وخزلة بالذهب وجعل فوق كل شباك قمرية وزخارف منفذة بماء الذهب ومحلاة بكتابات جميلة تحمل بعض العبارات منها "الخلاق الباقي".

---

[1] ديوب(طالب): تاريخ العمارة في العصور الوسطى – العمارة الإسلامية والأوروبية، منشورات جامعة البعث، حمص، 2002م، ص 188.

[2] الحمصي(أحمد): روائع العمارة العربية الإسلامية في سوريا، دمشق، 1982م، ص 105.

[3] الشهابي(قتيبة): سوريا التاريخ والحضارة – منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة، دمشق، 2001م، ص 169.

أما الطرز الجنوبي فهو يحمل ما يحمل الطرزان الجانبيان في الزخارف، وإنما زاد عليه في صدره سلسبيلاً ينزل منه الماء على منحدر في ألواح القاشاني، أبدع في نقش أحجاره المحيطة به وتطعيمها بالذهب الناخر المنزل وعلى حلقة هذا الطرز، وجد نص يحدد تاريخ انتهاء عمارتها بأبيات فيها مديح لصاحب الدار، وهي مكتوبة بماء الذهب، وفي العتبة بحرة رخامية مستديرة مؤلفة في 24 عاموداً في الخام ملتصقة بعضها ببعض، وكل عمودين متقابلين متشابهين، هذه الأعمدة متقوبة من مركزها يخرج منها الماء بشدة في مناهل في النحاس المطلي بالذهب وفي وسط البحرة كأس من الرخام المخرم يخرج منه الماء في 50 موضعاً[1]، وحول باب القاعة إطار من الحجر المزي والمرمر المطلي بماء الذهب والمرصع بفصوص من الصدف، يعلو باب القاعة من الخارج نص محفور على الحجر[2].

د- أ- جناح الخدم:

ويسمى الخدملك، ونجد فيه صحناً صغيراً فيه بحيرة ونجد إيواناً ونجد غرفة وفيه مطبخان واسعان وبعدهما غرفة فيها موقدة تركية تصنع فيها القهوة التي كانت تقدم للخدم وللضيوف طوال النهار[3]، أما الإيوان فهو عبارة عن غرفة دون جدار رابع تنفتح على الفناء ويرتفع منسوبه عن منسوب صحن البيت قليلاً بركة وللإيوان قنطرة تسمى تاج الإيوان وتكون مزينة بإطار من الحجر الأبلق وهو حجر مزخرف بطريقة الحفر مع تشكيلة بزخارف هندسية ويعلو سقف الإيوان زخارف خشبية ملونة تسمى العجمي ويوجد منسوبين لهما: الأول منخفض عند المدخل يسمى العتبة ويكون مبلطا بفسيفساء من

[1] المعلوف: قصر آل العظم في دمشق، ص 21-22-23.

[2] المعلوف: قصر آل العظم في دمشق، ص 24.

[3] الخضر(عبد المعطي): تاريخ العمارة في العصور الوسطى - العمارة الإسلامية والأوروبية، منشورات جامعة حلب، حلب، 1990م، ص 190.

الرخام وبقطع من الحجارة الملونة أما القسم العلوي فيرتفع بحدود 50 سم ويسمى بالطزر وهو مصنوع من الملاط البسيط الخالي من أية تأثيرات زخرفية[1].

ب- الوصف الإنشائي:

استعملت مواد البناء المؤلفة من الحجر الأبيض الكلسية مع إكساء لبعض الأجزاء في آن واحد وتراوحت المقاطع المستعملة من 25 * 40 * 40 سم وحتى 25 * 60 * 40 سم وأحيانا كان المدماك ارتفاعه 30 سم، وذلك في بعض أجزاء القصر مثل واجهة الإيوان التابعة لقسم الحرملك، كما استعمل الخشب بأنواع مختلفة منها السرو في التسقيف وبمقاطع دائرية تصل 30 سم في سقف إيوان الحرملك، كما استعمل الخشب على شكل ألواح مستطيلة المقطع ورقيقة لكسوة الجدران الداخلية للقاعات والغرف وغالبا ما تكون محفورة ومدهونة وهي من خشب الزان خاصة في الأبواب والنوافذ، كما استعملت ألواح القاشاني[2] بشكل واسع فوق الأبواب والنوافذ على الواجهات الخارجية للجدران وعن سماكة الجدران الخارجية فتراوحت بين 80-100 سم للجدران الداخلية وبنيت بشكل طبقتين متلاصقتين من الحجارة ذات السماكة 40 سم وبينها طبقة رابطة أما الجدران الداخلية فسماكتها 40 سم في الفواصل الداخلية و100 سم للجدران المواجهة الفناءات والنظام الإنشائي المستعمل يركز حمولة الأسقف على هذه الجدران لنقلها إلى الأساسات[3].

5- الزخارف والنقوش:

يعد قصر العظم من أجمل دور دمشق تخطيطا وترتيبا وأغناها زخرفة و تزويقا، إن هذه الزخرفة القائمة على النقوش والرخام والذهب تخفي فقر العمارة نفسها ويعتقد أن

---

[1] المنجد: قصر أسعد باشا العظم بدمشق، ص 25.

[2] ألواح الخزف التي تُكسى بها الجدران مزودة بالرسوم والألوان، صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص 356.

[3] بارودي(صفاء رضوان): أعمال أسعد باشا المعمارية في المدن السورية، منشورات جامعة حلب، حلب، 2000م، ص 36.

ذلك راجع إلى أن مواد البناء المستعملة لم تكن جديدة بمعنى أنها كانت مستعملة من قبل وأهم أنواع الزخرفة التي استخدمت لتحلية القصر هي:

أ- المرمر والرخام:

فقد استخدما كأداتين للتزيين وجمعا من الدور والقصور القديمة الموجودة في دمشق، وقد فرشت الصحون بالرخام كلها وركبت بأشكال هندسية مختلفة وبألوان منوعة فنجد من هذه الأشكال (المستطيلات والمثلثات والدوائر والمنحنيات) ونجد اللون الأسود والأحمر وذلك في صحن الحرملك، ونجد في الحمام فصوص رخامية تشكل أشكالاً مختلفة، فهي فسيفساء رخامية وفيه أيضا فسيفساء حجرية وفي بعض الأماكن من القصر نجد زخارف محفورة في الرخام وقد أحيطت هذه الزخارف بخيوط من ذهب، وقد استخدم الرخام في فرش الباحات بأشكال هندسية بديعة "المشقف" وفي كسوة جدر قاعة الاستقبال[1].

ب- الخشب المزوق:

وهذا النوع من الخشب هو ذو شأن لأنه مما امتاز به العصر العثماني وقد كان يستخدم لتغطية عمدان السقوف والأبواب ولكسوة الحيطان حتى أنصافها، وهذا الخشب بصورة عامة قد دهن بأصباغ مختلفة فيها توفق وانسجام وذوق وأشكال هندسية أو نباتية، وقد تجد بعضه يحمل أبياتا من الشعر، وهذا الشعر نجد أغلبه في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ونجد أيضا أبياتا في البردة حول الحيطان وفي أطراف السقوف وفي الإيوانات وفي القاعات.

أما سقوف الغرف نجد أنها منوعة ومختلفة وأن فيها من الأشكال الهندسية النافرة أو الغائرة الشيء الكثير والقصر بسقوفه وحدها يعد آية من آيات الزينة وفيه أكبر مجموعة من هذه الأخشاب الفنية، أما الخشب الذي يكسو الحيطان فنجد فيه زخارف

[1] عمران، دبورة(هزار، جورج): المباني الأثرية ترميمها – صيانتها – الحفاظ عليها، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1997م، ص 41.

نباتية بألوان زاهية مختلفة، وهذه الزخارف النباتية هي باقات من الزهر تحيط بها خيوط من الذهب، كما أن الخشب الذي في السلاملك مطعم بزجاج وخرز أو مرشوش بالفضة والذهب والألوان المستعملة في كل تلك ألوان جميلة مختلفة منها الذي يروق شكله أو منها الذي يخدع العين ويبدو مبرقشاً بألوان متعددة، وهكذا نجد أنه استخدم الخشب للسقوف بخاصة السقوف المكسوة بالطوان[1] ومن ثم طليها بالدهان العجمي، وكذلك لكسوة جدران القاعات بالحلقة الخشبية المطلية بالدهان العجمي الفاخر لأزاهير وورود وعروق نباتية، وزينت الأقواس التي فوق الرواق[2] والنوافذ وبواطن أقواس الأواوين بزخارف من الجص الملون بما يعرف بالتكفيت، فأتى القصر تحفة معمارية تعبر عن هوية العمارة السورية بأبهى حلة لها[3].

ج- زخارف الحجر:

وهذا ضرب من تكفيت الحجر حيث نجد النوافذ في بواطن الأقواس مثلا أحجار فيها زخارف هندسية بأشكال لا تعد ولا تحصى، وهي تدل على فن خاص اشتهرت به دمشق في ذلك العصر فالرسم الهندسي قد حفر في الحجر وهذا الحفر أو التجويفات ملأت بعد تجويفها بإسمنت أو جص ملون حتى ساوت سطح الحجر ولا يمكن وصف هذه الزخارف لتنوعها ودقتها وكثرتها فأينما تجولنا في القصر نجد اللطيف والجميل منها والقاعة في الحرملك تجمع كل ألوان الزخارف التي ذكرناها، فهذا القصر يعد من أروع وأجمل ما عرفت دمشق من هذه الدور في العصر العثماني، وهو آية من آيات الفن الإسلامي في العصور الأخيرة[4].

---

[1] هو السّمك، أي السقف الداخلي. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص 356.

[2] المسافة المحصورة بين صفين من العقود، صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون ص 355.

[3] هو حفرٌ في النحاس يحك بأسلاك الفضة. صارم: الحضارة العربية الإسلامية، آثار وفنون ص 354.

[4] المنجد: قصر أسعد باشا العظم بدمشق، ص44.

6- الوضع الراهن للقصر (متحف التقاليد الشعبية):

في عام 1952م عملت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سوريا على تحقيق فكرة إنشاء المتاحف الشعبية والبدء بتحويل قصر العظم إلى متحف التقاليد الشعبية[1]، إذ تمَّ تحويل القصر إلى متحف يهدف إلى إعطاء الزائر أو السائح صورة حية للنمط المعيشي للسكان في مدينة دمشق القديمة من خلال المشاهد للحياة اليومية[2]، وقد خُصِّص جناح الحرملك في القصر بشكل كامل مع قاعاته كمتحف للتقاليد الشعبية وافتتح عام 1954م[3].

ومن أهم قاعاته:

أ- القاعة الكبرى:

وفيها الطراز الأيمن المفروش بأثاث عربي فيه حفر وتطعيم، ونجد في المكتبات أدوات موسيقية شعبية كالبزق والدربكات ونرى فناءات من النحاس كانت تستعمل الإضاءة، وكذلك حجرة جبل العرب، وهي في نهاية الطزر الأيمن، والطراز الأوسط وهو يمثل مجلس الباشا مع وكيله وأحد أعوانه، وهناك حجرة حوران وتقع إلى شرق مجلس الباشا، ويليها الطراز الأيسر، ونرى فيه جلوة العروس: العروس بادية بثيابها، وعلى رأسها غطاء العرس وفوقه تاج من اللؤلؤ[4].

---

[1] سراج الدين(اسماعيل): التجديد والتأصيل في عمارة المجتمعات الإسلامية، مكتبة الاسكندرية، مصر، 2007م ص 164.

[2] زين العابدين(محمود): تقويم تجربة إعادة تأهيل بعض المباني التاريخية العثمانية في سوريا بوظائف ثقافية، منشورات جامعة حلب، حلب، 2010م، ص63.

[3] الريحاوي(عبد القادر): العمارة العربية الإسلامية – خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1987م، ص227.

[4] العشى(أبو الفرج): آثارنا في الإقليم السوري، المطبعة الجديدة، دمشق، ط1، 1960م، ص 182-183.

ب- الحمام:

وهو نموذج مصغر عن الحمامات الشرقية لأنَّه حمام خاص في دار خاصة وهو يحوي على القسم البراني، وهو القسم الذي ينزع به المستحم ملابسه ويلفها ببقجة ويضعها في المكتبة، ثمَّ يليه الوسطاني، إذ يدخل الزائر من دهليز ويتجه إلى الجهة اليمنى فيجد نفسه في الوسطاني، ثم يأتي القسم الجواني، وفيه عدة أقسام في كل قسم جرن أو جرنان على كل جرن صنبور ماء حار وصنبور ماء بارد.

ج- قاعة الأسلحة:

وأهم ما نجد فيها الطبنجات وهي الأسلحة النارية الخفيفة التي سبقت المسدس، وأيضاً لوازم المحارب بالسلاح الأبيض، إضافةً إلى ركابات الخيل، مع وجود خزانة كبيرة تضم جميع أنواع السلاح الأبيض و نماذج جعبات ومحافظ صنعت من القماش النفيس ووشيت القصب[1].

د- المقهى:

وهو أهم قسم في المتحف يعطي فكرة للزائر عن أزياء الأحياء الشامية القديمة وتقاليدهم، إذ نرى على الجدران لوحات فنية تمثل الحياة الشعبية ولوحات فيها رسوم ابتدائية تعبر عن الفن الشعبي ومعتقداته الساذجة وأهم مشاهدها صاحب المقهى، وأمامه منضدة الحساب، وصندوق العجائب، والحكواتي وهو جالس على مرتفع يقص على الناس روايات أبطال العرب، والجوقة الموسيقية ويحمل أفرادها أنواع الآلات الموسيقية الشرقية، و لعبة المنقلة يمارسها اثنان من رواد المقهى[2].

[1] البهنسي(عفيف): علم المتاحف والمعارض، دار الشرق، دمشق، ط1، 2004م، ص66.

[2] قدور(محمد سالم): قصر العظم، الموسوعة العربية، دمشق، ط1، 2006م، مج15، ص 409.

هـ- قاعة الجلوس (قاعة الحماية):

وهي قاعة هادئة تمثل ربات الخدور في مأواها ويظهر مشهد الحماة وهي ترعى حفيدها ومشاهد زوجات الأبناء يلعبن لعبة البرسيس كما يعرض فيه نول تطريز بسيطان كما يعرض فيها كرسي الولادة، المكتبات مزينة بأوان من النحاس متنوعة الأشكال والحجوم.

و- قاعة الكتابة والتدريس:

تعرض مشهد المدرسة التقليدية القديمة "الكتاب" التي كانت تدرس تلاميذ القرآن الكريم واللغة العربية والعمليات الحسابية البسيطة.

ز- قاعة الجلديات:

تعرض نماذج للأدوات والأغراض المصنوعة من الجلد كالأحذية والأحزمة والحقائب وصانع الأكمار والجلديات مع الأدوات المستخدمة في الصناعة.

ح- قاعة الملك فيصل[1]:

نشاهد فيها أثاث خشبي مصنوع من خشب الجوز المطعم بعظم الجمل وقدم هدية للملك فيصل عام 1918م.

ط- قاعة النسيج:

تعرض نماذج وأنواع النسيج الدمشقي كالدامسكو والبروكار والأحزمة والنول.

[1] هو فيصل بن الشريف – حسين شريف مكة، وقد حكم سوريا لمدة عامين بعد تحريرها من الحكم العثماني وسميت القاعة باسمه نسبة إلى القنصلية المعروضة في وسط القاعة. قنواتي(بدر الدين): در الأقاصر في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مكتبة المجد، حلب، 2001م، ص78.

ي- قاعة النحاس:

تعرض فيها نماذج لصناعة النحاس والأدوات المستخدمة في هذه الصناعة من حفر ونقش وتخفيف بالإضافة لمجموعة نحاسية مزينة بماء الذهب وبماء الفضة وعلى الجدران وتستخدم لتناول الطعام[1].

ثانياً- خان أسعد باشا العظم (1165هـ/1751م).

تشكل العمارة التجارية جزء مهماً من البنية الفيزيائية للمدينة الإسلامية ونلاحظ أن تنظيم الأسواق في الإسلام كان أوثق صلة بالروح الإسلامية منه بالنظم البلدية ولم تعرف القيسارية[2] مثلا قبل العصر المملوكي وتعد عمائر الخانات من المباني التجارية الأساسية التي تحتوي على أماكن لعرض السلع وإقامة التجار ووجود إسطبلات للحيوانات[3] وكانت الفعاليات الاقتصادية الأساسية تجري داخل الخانات الرئيسية، وتتجمع هذه الخانات في منطقة محدودة من المدينة. وكان هذا النوع من المركزية باديا للعيان في القرون الوسطى وظل مستمرا طيلة الفترة العثمانية[4].

وقد تميزت مدينة دمشق القديمة بأنها أقدم عاصمة مستمرة في العالم، ويعد الدور الاقتصادي والتجاري المهم الذي أدته على مر العصور سببا رئيسيا لذلك، ويتجلى ذلك بالعدد الكبير للأسواق والخانات تتألف الخانات من فراغ مركزي يتوسطه بركة ماء وتحيط به الدكاكين والمحلات التجارية وتتكون من طابقين الأرضي كان مخصصا

---

[1] قدور: قصر العظم، ص197.

[2] بناء صغير مؤلف من طابقين حول باحة مربعة أو سوق كبير في المدن العتيقة تباع فيه الأثواب والزرابي ونحوهما. رضا (أحمد): معجم فن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م، ج4، ص561.

3 Michell George: Architecture of the Islamic World, its history and social meaning, thames and Huason, London, 1995., page 9 s

[4] ايمون(أندريه): العواصم العربية وعمرانها في الفترة العثمانية، تر: قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1986م، ص 17- 18.

لنزول القوافل وتبادل البضائع التجارية، أما الطابق العلوي فمزود بغرف يبيت فيها التجار والمسافرون بنيت الخانات بالحجارة المنحوتة في واجهتها وبوابتها وجدرانها الداخلية، وقد تم استخدام الحجر الكلسي والحجر البازلتي، كما تخلل الواجهات والبوابات بعض الحليات المعمارية والأحجار الملونة أو المزخرفة، وأهم هذه الخانات هو خان أسعد باشا[1].

1- الموقع الجغرافي:

يتوسط الخان في موقعه مدرسة التنكزية وحمام نور الدين الشهيد في سوق البزورية التجاري[2] جنوب شرق الجامع الأموي في مدينة دمشق القديمة ويطل من الجهة الجنوبية على سوق الورق الضيق ويحتوي من هذه الجهة على 16 دكان، أما الجدار الشرقي فيطل على زقاق ضيق يدعى نزل معاوية ومن الجهة الشمالية مفتوح بممر على حمام نور الدين الشهيد فكان نزلاء الخان ينزلون مباشرة إلى الحمام عبر هذا الممر[3].

2- تاريخية الخان:

خان أسعد باشا هو من أعظم الخانات في الشرق بني في عهد والي دمشق العثماني أسعد باشا العظم الذي حكم بين عامي(1170 - 1156هـ/ 1743 - 1757م)، وأراد الوالي أن يكون هذا الخان من أعظم الخانات في عصره، فكان له ذلك حيث استمر البناء 14 شهرا من عام(1165هـ/1751م)، وانتهى عام(1167هـ/1753م)[4]، وقد تعرض الخان بعد ستة أعوام من بنائه إلى تهدم القبتين

[1] الريحاوي(عبد القادر): خانات دمشق الأثرية، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد5، مديرية الآثار العامة، دمشق، 1975م، ص47.

[2] هو سوق العطارين والمختص ببيع التوابل. القساطلي (نعمان): الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1982م، ص82.

[3] عرقاوي(عبير): التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، العدد1، دمشق، 2006م، مج22، ص375.

[4] العلبي(أكرم حسن): خطط دمشق، دار الطباع، دمشق، ط1، 1989م، ص477.

الوسيطتين الشمالية والجنوبية بسبب زلزال دمشق الشهير بتاريخ(1173هـ/1759م)، وفي بداية الثمانينات استملكته المديرية العامة للآثار والمتاحف وقامت بترميمه وقد استخدم الوالي معظم الحجارة الموجودة بدمشق للتفنن في بنائه ليكون أكبر محطة استراحة استراتيجية على طريق الحرير وطريق قوافل الحج الشامي في شام شريف دمشق وسوقا كبيرا لتبادل التجار القادمون إلى الشام بضائعهم الثمينة فيه، وليصبح من أجمل وأعظم خانات الشرق قاطبة والتي تم بناؤها في أرجاء السلطنة العثمانية.

3- تخطيط البناء:

يقع تخطيط البناء الخاص بالطابق الأرضي على شبكة من 14 ذاعاً والذراع العثمانية الجديدة التي استخدمت في القرن الثامن عشر أن أساس التقسيم مربعي مستمد من التقسيم المتناظر للقبب ويبلغ مقدار الذراع زهاء 0.65 م. وفي الوقت نفسه، على الشبكة نفسها، يتم توزيع الغرف وتقسيمها في الطابق الأرضي، أما الطابق العلوي باستثناء الفراغ الوسطي نجد أنه لا يوجد تطابق مع نظام الطابق الأرضي. أما في الجزء الوسطي للجناح الشمالي فقد تم تغيير النظام الشبكي للغرف وتمديده في أجزاء البناء الغربية بمقدار ذراعين بالاتجاه الغربي، مما مكن من وجود ممر يربط بين الصالة وبين البيت الذي له فناء صغير والذي يقع في الجهة الشمالية، وقد تم إزاحة الممر بسبب وجود المدرسة الكاملية دار القرآن تنكز القديمة وبسبب ذلك اختلف النظام الشبكي المطبق مما أدى إلى اختلاف توضع النوافذ وبتتابع ذلك ابتعد عن التنظيم الأساسي المطبق على الطابق الأرضي أيضا باتجاه الجنوب مواجه سوق البزورية ثمَّ قليلاً ميلان الحد الخارجي للبناء وفضلا عن ذلك عن هذه التغيرات في النظام العام واجهت تصميم صعوبة أخرى كان عليه عدم مسها وهي وجود مصلى وبجانبه قبوة متصالبة فيها قبران فضلا عن فناء فيه بحرة للتنظيف مما أدى في تخطيط المبنى الجديد إلى أن يزيح عن المنطقة المذكورة[1].

1 Wulzinger, Watzinger: Damascus Die Islamisch stadt 1924, Derlin, 1984, P 83.

4- إنشاء الخان:

إنَّ الخان عبارة عن بناء حجري مؤلف من طابقين دون قبو بتغطية إنشائية مؤلفة من قبب وقبوات تبلغ سماكة الجدران الخارجية من 87 – 90 سم حجر غشيم[1] وهو مكسي بحجر منتظم أما القبب فقد أنشئت من الطوب الطيني المحروق يتم تحميل القبب بواسطة أربع دعامات وعلى امتداد أبعادها نفسها عرضا وطولا تنقسم الصالة إلى تسعة أقسام يعلو كل قسم قبة يبلغ عرضها 8 م وارتفاعها من حافتها حتى منورالسقف 21.50 م إن مادة إنشاء القبة والطربوش هي من الطوب المشوي وقد تم قياس فتحة القوس الحامل المستند على الأعمدة بالأذرع تبلغ المساحة المبنية زهاء 2500 م2 وتبلغ مساحة الغرف الوسطية في الطابق الأرضي ما بين 35 – 75 م2 في حين في الطابق الأول زهاء 20 م2[2].

5- الوصف المعماري للخان:

أ- الوصف العام:

إن المسجد القديم الموجود في خان أسعد باشا والذي حافظ عليه مصمم الخان له باب منفصل في جناحه الغربي يطل على سوق البزورية مباشرة، وإن وجود إضافة شاقولية في ممر الدخول في الطابق الوسطي يثبت أن الجامع قد أنشأ قبل إنشاء الشارع وإلى جانب الممر الذي يقود إلى المسجد يوجد محل دكان يوجد فيه باب ثاني لممر مغلق وخلفه تقع غرف الخان هذا وإن الممر المذكور أغلق عندما أصبح الخان في النهاية بوظيفة غير مستخدم للبضائع القيمة، واليوم الباب الذي يقود للقسم المذكور أيضا مغلق إن عمق الأجنحة المبنية مختلف فهي في الجناح الجنوبي ضعفا العمق في حين تظهر في الجناح الغربي ثلاثة أضعاف العمق، وضمن هذين الجناحين توجد دكاكين

[1] حجر مقطوع يستخدم في البناء دون نحت أو صقل. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص355.

[2] شلهوب(ربى): أعظم خانات الشرق، جريدة التآخي، العدد 7119، دار التآخي، بغداد، 2016م، ص10.

مرتبطة بأسواق متخصصة إن هذه الدكاكين مرتبطة مع الواجهة الخارجية ارتباطا متينا وذلك من خلال فتحات بأبعاد 1.80 م * 1.80 م ارتفاع إضاءة الغرفة حتى حافة القبوة المفلطحة زهاء 2.50 م وإن ارتفاع إنشاء فراغات المحلات هو فقط نصف طول الغرف الخلفية 5.00 م. ولهذا نتجت مساحة فوق فتحات الدكاكين هذه المسافة من الممكن إنارتها في الشارع وهي تظهر تطابق وسط ارتفاعه 2 م من الممكن استخدامه ولكن لا نستطيع أن نعد فتحات النوافذ فتحات مؤهلة لتسمح بالإنارة بشكل كامل بل هي تسمح بالقليل من الإنارة للغرف.

أما التهوية فهي ممكنة المهم هو إمكانية استخدام هذا الطابق الوسطي كمستودع[1] إن الجدار الخلفي للدكاكين تم في وقت حديث في إطار الترميم للجزء العلوي وقد بني بحجارة بيتونية حيث أزيح بشكل طفيف المحور الوسطي للجناح الجنوبي نحو الشرق في حين أن الواجهة الخارجية غطيت بالبيتون وعبر عنه بالتلوين بالتناوب بين الأبيض والأسود لمساحات من الجدار المطلي إن ترميم الواجهات بالبيتون في هذا الموقع تم بالربط مع غرفة خلفية تقع في الطابق العلوي وتوجد على جدارها الخارجي كتيبتان على محورين وعلى الجدار المواجه يوجد كتيبة[2] أخرى في الغرف الأخرى على الأغلب تقع هذه الكتبيات على الجدران الجانبية الداخلية، وهو احتمال ممكن لهذه الترتيبات الداخلية، فضلا عن وضع البيتون على الواجهة هو أن يكون وظيفة تلك الغرفة، وأنها مكان لعرض صغير مخصص في هذا القسم.

إن عرض القوس وارتفاعه وشكله لفتحات الدكاكين تختلف في الواجهة الغربية عنه في الواجهة الجنوبية وهو تقريبا ارتفاع الممر الداخلي نفسه أما اليوم فقد أغلقت الفتحات بتبادل بين صفوف من الحجر الأبيض والأسود كما أن البناء الشمالي بين المدرسة والحمام يتصل بالشارع عبر باب رئيسي وهو حاليا محل تجاري عبارة عن جزء مقتطع من مبنى له فناء صغير في الجزء الأرضي من المبنى توجد خدمات صحية

[1] عرقاوي: التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، ص379.

[2] مكان لبيع أو حفظ الكتب "المكتبة. رضا: معجم متن اللغة، مج5، ص19.

ومكان للغسل، موقعها كان بالتأكيد مربوط بمكان المياه المغذي للحمام، هذا وفوق هذا الجزء في الطابق العلوي توجد طريق تؤدي إلى الخان عبر ممر بقناطر وأعمدة لم يبقى منها إلى يومنا هذا سوى جزء صغير[1].

ب- الوصف الخاص:

أ- ب- وصف البوابة:

البوابة فخمة جداً، تسحر الألباب، تلفت الأنظار بتصميمها وعناصرها المعمارية والزخرفية، فهي نموذج حي من نماذج العمارة الأرستقراطية في دمشق. تتألف من إيوان واسع يتقدم الباب يحتوي في جانبيه على مقعدين من الحجر وأعمدة كورنثية وأعمدة أيونية أيضا معقود أعلاها بالمدكك العادي بحشوات ذات أشكال هندسية متنوعة، والمدكك ذو الرسوم الهندسية الدقيقة جدا علاوة عن المقرنصات[2] والدلايات الحجرية وتنتهي في أعلاها بشكل الصدفة على شكل نصف قبة ويعلو هذه البوابة ساكف[3] حجري وهو عبارة عن جزء من قوس دائرية تعلوها دائرة صغيرة يقال: أنَّه توضعت فيها ياقوتة فخمة مفقودة حاليا ثمنها يكفي لإعادة بناء الخان ثانية فيما لو تهدم[4] .

وهذا العقد مكون من ثلاثة أقواس متراكبة، وهذه الأقواس تحتضن غابة من المقرنصات تعلوها نصف قبة مضلعة كما يلاحظ في كل من طرفي باب الخان نافذة تناظر النافذة المقابلة من الطرف المقابل ولكل منها مقرنصات يحملها محراب صغير،

[1] يحيى(فؤاد): جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية، العدد31، مديرية الآثار العامة، دمشق، 1981م، ص97.

[2] مجموعة من المحاريب الصغيرة المتراكبة، صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص357.

[3] حجر طويل من قطعة واحدة لتسقيف فتحات الأبواب والشبابيك. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص356.

[4] الدغلي(عماد): الخصائص والمزايا العمرانية لخانات دمشق الأثرية، دار الفكر، القاهرة، 1994م، ص70.

أما القوس الخارجي الكبير، مكون من سلسلة من المشربيات[1] والقوس الأوسط مكون من حجارة مقولبة على شكل كعوب الكتب، أما القوس الثالث الداخلي فيتألف من حجارة مفصفصة يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود والعقد محمول على ثلاثة سويريات أي أعمدة صغيرة في كل من جانبيه ومنحوتة بأشكال حلزونية وضفائر، وتمثل هذه الواجهة أجمل وأضخم واجهات المباني الأثرية في دمشق إبداعا وأغناها بالزخارف والتزيينات، إذ يصل طول الواجهة إلى ما يزيد على 11 م وبعرض يبلغ تسعة أمتار ونصف[2].

ب- ب- وصف الباب:

باب الخان مفتوح ضمن قنطرة تعلوها واجهة مؤلفة من خطوط هندسية، أما الباب نفسه فيتألف من مصرعين كبيرين من خشب الجوز مصفح ومثبت عليه صفائح معدنية لحماية الباب من تحطيمه ومرسوم على تلك الصفائح أشكال خلية النحل وبداخل كل خلية نجمة وكانت هذه النجوم وما زالت تغطي المسامير الضخمة المثبتة للصفائح المعدنية وهي شبيه بطراز أبواب جميع الخانات أو أبواب مدينة دمشق المصفحة بألواح الحديد يوجد في منتصف درفة الباب الأيمن باب صغير يدعى باب خوخة وهذا المصطلح يطلقه أهل الشام من العوام على هذه الأبواب الصغيرة ضمن الأبواب الكبيرة والذي خصص لدخول الأفراد منه ليلا، وكانت هناك مشكاتين[3] كبيرتين على طرفي الباب لإنارة الطريق عند حلول الظلام لسهولة دخول وخروج الناس من الخان ليلا ويسهل حماية المقيمين في الخان[4].

---

[1] حاجز من الخشب الخرط توضع أمام النوافذ. صارم: الحضارة العربية الإسلامية، آثار وفنون، ص 357.

[2] شلهوب: أعظم خانات الشرق، ص10.

[3] كوة غير نافذة أو محراب تخصص لوضع مصباح. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص357.

[4] ديوب: تاريخ العمارة، ص121.

ج- ب- وصف الدهليز والقباب:

ينتقل داخل عبر هذه البوابة الجميلة إلى الخان بشكل مفاجئ من زحمة وضيق وضجة السوق إلى هدوء وعظمة هذا المبنى عبر دهليز كبير 12 * 4 م وهذا الدهليز لا يخلو من نقوش بأزاهير ونجوم ومسقوف بعقود متقاطعة تزينها زخارف جصية، ويوجد في كل من جانبي الدهليز غرفة للخانجي "مسؤول الخان" وبجانبه درج من الحجر يؤدي إلى الطابق العلوي ويصل هذا الدهليز إلى باحة مربعة الشكل طول ضلعها 27م، وهي مرصوفة ومبلطة بالحجر البازلتي الأسود ويتوسطها بركة ماء كثيرة الأضلاع في وسطها فسقية[1] كانت تستمد المياه من أحد فروع نهر بردى وقطر هذه الفسقية يساوي تماما قطر الفتحة السماوية وهو 7.5 م وللبحرة 16 ضلعا ورغم أن منظرها العام يوحي بأنها دائرية ولكنها في الحقيقة مضلعة[2] تغطي هذه الفسحة تسع قباب وتتوزع هذه القباب بشكل متناظر حول الفتحة المركزية التي بقيت دون تغطية لتؤمن التهوية والإنارة للخان.

أما الأقواس فأبعادها ذات انسجام معماري كبير والقباب موزعة على ثلاثة صفوف محمولة على 24 عقدا وتستند على جدران الخان من ناحية وعلى عضائد أربع في وسط الباحة وهذه القباب متماثلة يبلغ قطر كل منها 8 م وترتفع عن أرض الخان بحدود 22 م وتتألف من أربع أجزاء وتتكون من قاعدة مربعة فيها أربعة عقود كبيرة يصل بينها أربع مثلثات كروية تحتل الزوايا يليها رقبة القبة والمكونة من ستة عشر ضلعا في كل ضلع نافذة خشبية مستطيلة معشقة من الجبس والزجاج، يلي الرقبة طاسة القبة، وهي مبنية بالآجر ومزينة في الداخل بالزخارف الجصية وفي قمة الطاسة منور يمد الباحة بالنور ويمنع تسرب مياه الأمطار وهو عبارة عن فتحات مضلعة ذات عشرة أضلاع في كل منها نافذة مغطاة بسقف هرمي هذا هو الوضع الأصلي للقباب، لكن الزلزال أصاب ثلاثة قباب أو أكثر - وأزال عنها عناصرها العليا - الرقبة والطاسة والمنور، وتبدو قباب خان أسعد باشا العظم في كل قبة رقبة ونوافذ وفي رأس القبة رقبة

[1] هي فوارة المياه. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص356.

[2] الدغلي: الخصائص والمزايا العمرانية لخانات دمشق الأثرية، ص72.

صغيرة حاملة لستة نوافذ لإضاءة الخان وتنتهي بقلنسوة هرمية قريبة من شكل قلنسوات المآذن العثمانية[1] تتناوب الجدران الحجرية المطلة على الباحة بالألوان الأسود والأبيض التي أضفت عليها جمالا بحيث تعتبر من أجمل الباحات في المباني الأثرية في الشرق ومن أكثرها تأثيرا بالنفس فيتفرع من الباحة خمسة ممرات ثانوية ينتهي أحدها إلى الباب الثانوي الشرقي ويقودنا الممر الواقع في الضلع الشمالي إلى دورات المياه على الطراز العثماني وبحرة وضوء صغيرة[2].

ج- وصف الطوابق:

إنَّ الطابق الأرضي يحيط بالصحن من كل جهاته مخازن في الطابق الأرضي مصممة على شكل أجنحة مستقلة يتألف كل منها من غرفة أمامية كانت تستخدم في الماضي كمكتب ثم يليها من الداخل غرفة أكبر أو غرفتان للبضائع ويحوي الطابق الأرضي على 21 مخزنا أكثرها مزود بمستودعات، في القسم الشمالي الغربي مسجد صغير ينفتح الى خارج الخان ويوجد فيه 40 غرفة موزعة على أجنحة كل جناح عبارة عن غرفتين أو ثلاثة كانت مخصصة لتخزين البضائع والسجلات وكيف كانت تهتم بالمبادرات التجارية ونقلها من مدينة لمدينة – ويعتقد أن الغرف الداخلية استخدمت كمستودعات أما الخارجية فقد استخدمت كمكاتب للتجار.

أمَّا الطابق العلوي يصعد إليه من كلا الدرجين المتقابلين في دهليز المدخل ويتألف من رواق يحيط بجهات الخان الأربع مسقوف بأقباء متقاطعة ويطل على باحة الخان بقناطر حجرية وهي نفسها قناطر للقباب التسع المطلة على باحة الخان ويتألف الطابق العلوي من رواق عرضه 3 م يطل عبر درابزون خشبي على الباحة المركزية وتتوزع حوله 44 غرفة ليصبح عدد الغرف في الخان 84 غرفة، يتفرع منه خمسة ممرات ثانوية يؤدي أحدها إلى غرفة كبيرة مزودة بشرفة تطل على سوق البزورية فوق المدخل تماما نجد غرفة مدير الخان في منتصف الضلع الغربي وذلك للسيطرة على

[1] الشهابي: سورية التاريخ والحضارة، ص66.

[2] شلهوب: أعظم خانات الشرق، ص11.

حركة الخان التجارية وحركة القوافل أما التصميم الداخلي للغرف بسيط وتتراوح أبعادها مابين3– 6 م الأرضية مؤلفة من منسوبين مختلفين لتأمين تنظيم حركة الهواء وسقفت بعقود متصالبة أو قبوات نصف أسطوانية جدرانها حجرية سميكة خالية من التزيينات وكل غرفة منها مزودة بشباك مستطيل يطل على الرواق ونافذة في جدار السور تمدها بالنور والهواء وجميع الغرف مغطاة بقباب صغيرة وذات أبواب ونوافذ، وما زالت تحتفظ بأصالتها مع أقفالها إلى الآن، أما السطح فيتم الصعود إليه من خلال درج يتوضع في الجهة الغربية للطابق الأول وقد استخدم لنشر الفواكه وتجفيفها وما زالت دمشق تشتهر بذلك حتى الآن[1].

6– المواد المستخدمة:

اعتمدت مادة الحجر للبناء واستخدام في الغرف الحجر غير المشذب المكلس واستخدام الآجر لبناء القباب والقبوات التي طليت بالكلس الأبيض لتكون ظاهرة وذات منظر جميل، أما النوافذ والأبواب فصنعت في الخشب الرومي على طريقة الحشوات وزخرفت الأبواب في الطابق الأرضي بالخيط العربي الأرابيسك[2] المنفذة بخطوط عبارة عن مسامير حديدية، أما أبواب الطابق العلوي فقد صنعت في الخشب ونقشت عليه تشكيلات مختلفة ومتنوعة في الزخارف الهندسية، وصنعت النوافذ في الخشب المعشق مع الجبس والزجاج الشفاف والأبواب والنوافذ أصلية تم ترميمها من فريق عمل من مديرية الآثار لمعالجة الخشب والمحافظة عليه وتقويته بمواد حتى لا يتعرض للتسوس أو التلف[3].

[1] شملوني(هيثم): خان أسعد باشا أكبر خانات الشرق، جريدة الشرق الأوسط، العدد9154، دمشق، 2003م، ص11.

[2] حليات نباتية متشابهة تتكرر بانتظام. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص 354.

[3] الشهابي: سورية التاريخ والحضارة، ص 151.

7- مراحل التغيير التاريخي للخان:

من خلال عرض للبحوث وفق تسلسلها الزمني لدمشق خلال القرن الثامن عشر نجد أنه ذكر بعد ست سنوات من عملية بناء القبب حدث زلزال أدى إلى سقوط بعض القبب وقد تم إعادة البناء بعد الزلزال الذي حصل عام 1759م وحدد العمري وجبور القبب المهدمة بالشمالية والجنوبية للخط الوسطي للقبب والتي تم ترميمها في الثمانينيات وقد استمر هذا الإنشاء الطيني الخشبي والذي كان على شكل جملون[1] حتى الثمانينات من القرن الماضي[2]، وهناك صورة للمبنى في عام 1940 نرى القبب منشأة من اللبن والخشب في موقع الجزء الوسطي والشكل رقم /3/ يؤكد وجود قبتين مهدمتين ليس هذا فقط تم إعادة بناء السقف الشمالي الشرقي في المسقط المدروس وتعديل الجزء الجنوبي الشرقي حيث تراجع الجدار الخارجي وتم توسيع المحلات التجارية وأيضا أظهرت أبعاد فتحات الدكاكين بشكل مختلف، وهذه الاختلافات التي ذكرت حتى الآن تعود إلى التغيرات البنائية خلال 60 سنة، كذلك تعديل تقسيم الغرفة الجنوبية الغربية وضم غرفتين تم في النصف الأول من هذا القرن[3] وفي الثمانينات بعد أن أصبح الخان فارغا بدأ الترميم فتم تجديد الدعائم الأربعة الوسطية وبناء القبب الوسطية الشمالية والجنوبية في عام 1984م ومن ثم دهن القشرة الداخلية للقبب.

إن الدعائم الأربعة الوسطية تم تدعيمها بالمعدن والبيتون ومن ثم تم كساؤها بالحجارة وفي عام 1995م تمت إعادة التلوين للرسومات الموجودة على الجهة الداخلية للقبب وأيضا بناء خدمات صحية وتمديدات كهربائية في ضوء توظيف الخان كفندق وفي عام 2002 – 2003م تم ترميم القشرة الداخلية للقبب ومن ثم تم تنفيذ عمليتي ترميم في ضوء استخدام الخان كمتحف تاريخ طبيعي وصالة نشاطات ثقافية تحت إشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف كذلك الفناء تم تجديد تبليطه بحجر مادي مجلي غامق هذا وقد

[1] هو السقف المؤلف من سطحين مائلين متلاقيين في القمة. صارم: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص354.

[2] العمري، جبور(ابراهيم، خزامى): خان أسعد باشا، دار الفكر، دمشق، 1996، ص54.

[3] عرقاوي: التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، ص381.

تبقى جزء من التبليط الأصلي في مقطع من الجهة الجنوبية الغربية من الصالة، كذلك تظهر تعديلات أخرى في المستويات وبعض الفتحات[1]، وهكذا نرى أن الخان بقي يؤدي وظيفته بشكل رسمي حتى بدايات القرن العشرين عندما انتشرت الفنادق في محيط ساحة المرجة وما جاورها من المشيدات إلى أن انتقلت ملكيته إلى تجار المنطقة استخدم كمستودع لبضائعهم، واستمر هذا الحال حتى بداية الثمانينيات حيث أخلي من شاغليه بعد استملاكه من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف التي قامت بترميمه.

وبدأت أعمال الترميم من قبل مديرية الآثار من مواد ودراسات تدعم السطح والقباب والأعمدة من أجل مقاومة عوامل الزمن، وفي منتصف التسعينيات انتهت أعمال الترميم وتم توظيفه كمتحف للتاريخ الطبيعي، لكن هذا المشروع توقف لأسباب مجهولة، ونحن الآن نستعمله للنشاطات الثقافية وقد وظف ثقافيا في عام 2005م أو 2004م حيث تم تركيب القبة الصناعية لحمايته كمتحف حتى لا يتعرض للسرقة أو التخريب أو أي شيء توقف مشروع المتحف نهائيا عام 2006م وبقي مركزا للنشاطات الثقافية، معارض الفن التشكيلي، حفلات موسيقى، ندوات عامة وتم فتحه للزيارات بشكل عام للسائحين الأجانب والعرب السوريين[2].

[1] عرقاوي(عبير): دراسة تاريخية تحليلية لتحديث خانات محور سوق الصاغة – البزورية في مدينة دمشق القديمة خلال القرن الثامن عشر، مجلة جامعة تشرين للعلوم الهندسية، العدد 3، اللاذقية، 2014م، ص18.

[2] دحدل (كوثر): خان أسعد باشا من روائع صروح العمارة الإسلامية العالمية في دمشق الفيحاء، دمشق، 2014م، ص35.

خاتمة:

مما سبق يمكن التوصُّل إلى النتائج الآتية:

إنَّ أهم ما تركه والي دمشق العثماني أسعد باشا العظم في دمشق هو قصره سنة(1163هـ/1749م) وخاناً فخماً سنة(1165هـ/1749م)، قل مثيله في دمشق من حيث سعته وجمال زخارف واجهته وطراز بنائه.

إذ يعدُّ قصر العظم من أهم وأجمل القصور التي شيدت في الفترة العثمانية التي شيدت في بداية القرن الثامن عشر ونموذجاً فريداً للعمارة الإسلامية وكذلك الخان الذي أشيد ليكون أكبر محطة استراحة استراتيجية على طريق الحرير وطريق قوافل الحج الشامي وسوقا كبيراً لتبادل التجار القادمون إلى الشام بضائعهم فيه، ليصبح أعظم خانات الشرق قاطبة والتي تم بناؤها في أرجاء السلطنة العثمانية.

من خلال دراسة القصر يمكن ملاحظة جميع أنواع الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية، وتأثر زخارفه بالتراث السوري المملوكي والتناوب باللون الأبيض والأسود والترابي في مداميك الحجارة، واستخدمت كافة وسائل البناء على اختلاف ألوانها وأشكالها وأنواعها كالرخام والمرمر والأحجار الملونة بالأبيض والأسود والأحمر والفسيفساء الحجرية والكلس والأخشاب.

ومن خلال دراسة الخان نلاحظ من الوصف المعماري أن خان أسعد باشا يمتاز بسعته وهندسته الدقيقة وبنائه وفق فنون العمارة العربية الإسلامية مع اهتمام وعناية باختيار العناصر المعمارية الزخرفية، وأهم ما يلفت النظر في المبنى حجارته المؤلفة في اللونين الأبيض والأسود المستعملة بالتناوب والتناظر.

قائمة المصادر والمراجع

1- قائمة المصادر:

البديري(أحمد):

حوادث دمشق اليومية (1154-1175هـ/1741-1762م)، تح: أحمد عزت عبد الكريم، نقحها: محمد سعيد القاسمي، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة،ط1، 1959م.

الحصني(محمد أديب آل تقي الدين):

منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم: كمال سليمان الصليبي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1979م.

الحموي (ياقوت بن عبد الله):

معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1993م.

النعيمي(عبد القادر):

الدارس في تاريخ المدارس، تقديم: عمار محمد النهار، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2014م.

2- المراجع العربية:

بارودي(صفاء رضوان):

أعمال أسعد باشا المعمارية في المدن السورية، منشورات جامعة حلب، حلب، 2000م.

بدران (عبد القادر):

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تح: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 1985م.

البهنسي(عفيف):

علم المتاحف والمعارض، دار الشرق، دمشق، ط1، 2004م.

الحمصي(أحمد):

روائع العمارة العربية الإسلامية في سوريا، دققه: حسن كمال، قدم له: محمد الخطيب، دمشق، 1982م.

الخضر(عبد المعطي):

تاريخ العمارة، العمارة في العصور الوسطى – العمارة الإسلامية والأوروبية، منشورات جامعة حلب، حلب، 1990م.

دحدل(كوثر):

خان أسعد باشا من روائع صروح العمارة الإسلامية العالمية في دمشق الفيحاء، دمشق، 2014م.

الدغلي(عماد):

الخصائص والمزايا العمرانية لخانات دمشق الأثرية، دار الفكر، القاهرة، 1994م.

ديوب(طالب):

تاريخ العمارة، العمارة في العصور الوسطى – العمارة الإسلامية الأوروبية، منشورات جامعة البعث، حمص، 2002م.

رضا(أحمد):

معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م.

الريحاوي(عبد القادر):

العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1879م.

زين العابدين(محمود):

تقويم تجربة إعادة تأهيل بعض المباني التاريخية العثمانية في سوريا بوظائف ثقافية – حالة التوظيف المتحفي، منشورات جامعة حلب، حلب، 2010م.

سراج الدين(إسماعيل):

التجديد والتأصيل في عمارة المجتمعات الإسلامية، تجربة جائزة الأغا خان للعمارة، مكتبة الإسكندرية، مصر، 2007م.

الشهابي(قتيبة):

سورية التاريخ والحضارة، منطقة دمشق وريفها، وزارة السياحة، دمشق، 2001م.

معجم دمشق التاريخي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999م.

صارم (وفاء):

الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، منشورات جامعة تشرين، اللاذقية، 2015م.

الصواف(حسن زكي):

دمشق أقدم عاصمة في العالم، دار قتيبة، دمشق،ط1، 2004م.

العشى(أبو الفرج):

آثارنا في الإقليم السوري، المطبعة الجديدة، دمشق،ط1، 1960م.

العلبي(أكرم حسن):

خطط دمشق، على مدى ألف عام من 400 هجري ل 1400 هجري، دار الطباع، دمشق،ط1، 1989م.

عمر(عمر):

تاريخ المشرق العربي1516-1922م، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م.

عمران، دبورة (هزار وجورج):

المباني الأثرية- ترميمها- صيانتها - الحفاظ عليها، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1997م.

العمري ، جبور(إبراهيم، خزامى):

خان أسعد باشا، دار الفكر، دمشق، 1996م.

كرد علي(محمد):

خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، 1983م.

قدور(محمد سالم):

قصر العظم متحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية القديمة، بيروت،ط1، 1997م.

قصر العظم، الموسوعة العربية، دمشق، ط1، 2006م.

القساطلي(نعمان):

الروض الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، بيروت،ط2، 1982م.

قنواتي(بدر الدين):

در الأقاصر في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مكتبة المجد، حلب، 2001م.

المصري، شحادة(عبد الرحيم ، كامل):

قصر العظم في حماة، مطابع الإصلاح، حماة، 1965م.

المعلوف(عيسى):

قصر آل العظم في دمشق، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012م.

3- المراجع المُعرَّبة:

ريمون(أندريه):

العواصم العربية وعمرانها في الفترة العثمانية، تعريب: قاسم طوير، دار المجد، دمشق، 1986م.

فيدك(سيرغي):

سوريا تاريخ كبير لبلد عريق، تر: عياد عيد، دار الينابيع، دمشق،ط1، 2002م.

كولار(بول):

سوريا قضايا حفظ الآثار والمواقع الأثرية والاستفادة منها، تر: اليونيسكو مديرية الآثار العامة، مطبعة الترقي، دمشق، 1955م.

4- المراجع الأجنبية:

Michell George:

Architecture of the Islamic World, its history and social meaning, thames and Huason, London, 1995.

Wulzinger, Watzinger:

Damascus Die Islamisch stadt 1924, Derlin, 1984.

5- المجلات والدوريات:

الريحاوي(عبد القادر):

خانات دمشق الأثرية، مجلة الحوليات الأثرية السورية، العدد 25، مديرية الآثار العامة، دمشق، 1975م.

شلهوب(ربى):

أعظم خانات الشرق، جريدة التآخي، العدد 7119، دار التآخي، بغداد، 2016م.

شملوني(هيثم):

خان أسعد باشا - أكبر خانات الشرق، جريدة الشرق الأوسط،العدد 9154، دمشق، 2003م.

عرقاوي(عبير):

التطور التاريخي لخان أسعد باشا العظم، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، العدد1، دمشق، 2006م.

دراسة تاريخية تحليلية لتحديث خانات محور سوق الصاغة البزورية في مدينة دمشق القديمة خلال القرن الثامن عشر، مجلة جامعة تشرين العلوم الهندسية، العدد 3، اللاذقية، 2014م.

المنجد(صلاح الدين):

قصر أسعد باشا العظم بدمشق، مجلة الأديب، العدد9، بيروت، 1946م.

يحيى(فؤاد):

جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية، العدد 31، مديرية الآثار العامة، دمشق، 1981م.

الآثار البيئية للحرب في سورية والإجراءات المتخذة والمقترحة لمعالجتها

أ.م.د. نسرين علي السلامه عضو هيئة تدريسية - قسم الجغرافية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية في السويداء - جامعة دمشق

ملخص

تعددت الآثار البيئية للحرب على سورية وتنوعت، ولا يمكن إغفال أن بعضها كان واضحا قبل بداية الحرب، ولكن لم يلق الاهتمام والمتابعة والمعالجة اللازمة، وهذا ما أدى إلى تعزيز المنعكسات السلبية لهذه الآثار البيئية في مختلف المجالات البشرية والاقتصادية والطبيعية، وجاءت الحرب لتفاقم هذه المشكلات القديمة وتزيد حدتها، ولتنتج أيضا آثارا بيئية جديدة طارئة بسبب الحرب وتبعاتها، وعلت الأصوات التي تقول بأن هناك قضايا سببتها الحرب أكثر إلحاحا لمعالجتها في سورية من القضايا البيئية ناسية أو متناسية عمق الأثر البيئي في كل ما يخص الإنسان والوسط الذي يعيش به، وبأن تعافي البيئة سيكون الخطوة الأهم لاسترداد التعافي الاجتماعي والاقتصادي والتنموي، وبالرغم من عمق هذه الآثار وما سببته من كوارث اقتصادية واجتماعية وصحية، وتفاقم التدهور البيئي، وتراجع مقومات الحياة الصحية، فإنه لم يتم حتى الوقت الحالي إنشاء قاعدة بيانات تقيّمها، ورغم التزام الجمهورية العربية السورية بالاتفاقيات والبروتوكولات البيئية إلا أن التدابير الاقتصادية القسرية أحادية الجانب التي فرضتها بعض الدول والكيانات الإقليمية ضدها منذ العام 2011 والتي ما تزال مستمرة حتى تاريخه ألحقت خسائر هائلة في الجهود المبذولة من قبل الحكومة والمجتمع المحلي الهادفة لحماية

البيئة والاقتصاد السوري، وعرقلت الحرب متابعة تنفيذ مكونات الخطة الإستراتيجية الهادفة إلى حماية البيئية الوطنية، وقد خلص البحث لجملة من النتائج أهمها: تأثر مختلف القطاعات الاقتصادية سلبا نتيجة الآثار البيئية للحرب على سورية، وعانت الموارد الطبيعية من تدهور شديد، فقد زادت الحرب من الكوارث البيئية لاسيما فيما يخص المناخ والتنوع الحيوي وواقع المحميات والغابات الطبيعية والحراج، كما أن كل المنظمات الدولية تنصلت عن دعمها لسورية بيئيا بالرغم من دخول الأخيرة في معظم الاتفاقيات العالمية التي تخص البيئة، والتزامها بما هو مطلوب منها طيلة سنوات الحرب، ولكن حال نقص التمويل دون استمرار العمل في استراتيجيات التنمية البيئية المستدامة، وقد أدت الحرب إلى تكدس الكتلة البشرية في مناطق معينة مما ولد ضغطا شديدا على البيئة في هذه المناطق، في حين حرمت مناطق أخرى من استثمار مواردها البيئية بسبب نزوح سكانها منها بسبب المجموعات الإرهابية .

Environmental effects of the war on Syria and actions taken and proposed to address them

Summary

The environmental effects of the war on Syria were numerous and varied, and it cannot be overlooked that some of them were clear before the start of the war, but they did not receive the necessary attention, follow-up and treatment, and this is what led to strengthening the negative repercussions of these environmental effects in various aspects of human, economic and natural life. And let it also produce new environmental effects due to the war and its consequences, and voices were raised saying that there are issues caused by the war that are more urgent to be addressed in Syria than the environmental issues, forgetting or forgetting the depth of the environmental impact in everything related to man and the surrounding environment, and that the recovery of the environment will be The most important step for social, economic and developmental recovery

Despite the depth of these effects and the economic, social and health disasters they caused, the exacerbation of environmental degradation, and the decline in the foundations for a healthy life, a database has not yet been established to evaluate them, and the Syrian Arab Republic has adhered to environmental agreements and protocols, but the unilateral coercive economic measures imposed by some Countries and regional entities against it since 2011, which is still continuing to date, have inflicted huge losses on the efforts made by the government and the local community aimed at protecting the environment and the Syrian economy, and the war has obstructed the follow-up to the implementation of the components of the strategic plan aimed at protecting the national environment. The

research concluded a number of results, the most important of which is:

Various economic sectors were negatively affected as a result of the environmental effects of the war on Syria, and natural resources were the most affected sectors, and the war increased environmental disasters, especially with regard to climate, biodiversity, the reality of reserves, natural forests, and forests, and all international organizations disavowed their environmental support for Syria despite The latter's entry into most of the global conventions pertaining to the environment, and its commitment to what is required of it throughout the war years, but lack of funding prevented the continuation of work on sustainable environmental development strategies, and the war led to the accumulation of human mass in certain areas, which generated severe pressure on the environment in these areas. regions, while other regions were deprived of investing their environmental resources due to the displacement of their populations due to terrorist groups.

مقدمة:

أدت الحرب الإرهابية التي شنت على سورية، وما تخللها من دمار وتخريب لركائز الإنتاج، واستمرار التدابير الاقتصادية القسرية أحادية الجانب المفروضة على سورية، إلى تراجع كبير في المقومات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، وتصاعد أولويات على حساب أخرى،وضعف في الوصول إلى التكنولوجيا و تقانات الإنتاج، إضافة إلى توقف التمويل والدعم من قبل الجهات الدولية للخطط الوطنية الهادفة لحماية البيئة.

وأدت الحرب إلى الحد من المكاسب التنموية الهامة التي حققتها سورية قبل الحرب عليها في قطاعات مختلفة كالتعليم والصحة والخدمات العامة والزراعة والصناعة...، كما انعكست سلباً على الاستقرار المكاني للسكان حيث شهدت بعض المحافظات السورية حركات نزوح أدّت إلى حدوث خلل ديموغرافي للسكان كان تأثيرها الأشد على الفئات الاجتماعية الأكثر احتياجاً كالنساء والأطفال والمسنين وذوي الاحتياجات الخاصة، وزيادة الضغط على الموارد البيئية في بعض المناطق دون غيرها.

إلا أن هذه الظروف عززت قناعة الدولة السورية بضرورة العمل على جعل نهج التنمية المستدامة كأولى الأولويات الوطنية، وخاصة من خلال ترميم ما فقدته من المكتسبات التنموية السابقة، وتجاوز مفاعيل الحرب ومواجهة التحديات الصعبة للمجتمع السوري، وذلك من خلال المضي بإعادة تأهيل واستدامة البنى التحتية الفيزيائية والخدمية والبيئية، وزيادة استخدام الطاقات البديلة، وتقليل النفايات، والعمل على ترشيد تدويرها، وإعادة تطبيق مفهوم العمارة الخضراء، والاعتماد على رفع كفاءة المساكن والمباني بيئيا من خلال خفض استهلاك الطاقة، وتقليل النفايات، واستخدام وسائل النقل المستدام التي تسهم في التقليل من انبعاثات الغازات الدفيئة، وبالتالي التخفيف من آثار التغير المناخي.

أهمية البحث: تتأتى أهمية البحث من أهمية البعد البيئي ودوره الجوهري والفاعل في مختلف مجالات الحياة البشرية والاقتصادية والاجتماعية، ومن تسليط الضوء على الدور السلبي للآثار البيئية الناتجة عن ظروف الحرب على سورية منذ العام2011وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية.

إشكالية البحث: تخلف الحروب آثارا كارثية على مختلف الأصعدة، وبالرغم من عمق الآثار البيئية للحرب على سورية وما سببته من كوارث اقتصادية واجتماعية وصحية ، وتفاقم التدهور البيئي، وتراجع مقومات الحياة الصحية، فإنه لم يتم حتى الوقت الحالي إنشاء قاعدة بيانات تقيّم الآثار البيئية لهذه الحرب، لذا كان هذا البحث الذي حاولنا من خلاله تصنيف هذه الآثار البيئية، و جمع البيانات الممكنة، ورصد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة السورية وخططت لها في سبيل مواجهة هذه الآثار.

أهداف البحث: يتمثل الهدف الرئيسي للبحث بتقييم الآثار البيئية للحرب على سورية، وينبثق عن هذا الهدف الأهداف الفرعية الآتية :

1- دراسة الآثار البيئية للحرب في المناخ، والنظم الزراعية، وقطاع الطاقة، والغابات والحراج والتنوع الحيوي والمحميات الطبيعية،وقطاع الزراعة والإسكان والنفايات الصلبة في سورية.
2- رصد الإجراءات والتدابير التي اتخذتها الحكومة السورية بهدف التقليل من حدة الآثار البيئية للحرب التي شنت عليها منذ العام 2011م.
3- اقتراح جملة من الإجراءات الأخرى الواجب اتخاذها للتخلص من الآثار البيئية التي خلفتها الحرب على سورية.

منهجية البحث وأدواته: تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي بهدف وصف حالة القطاعات المتضررة من جراء الآثار البيئية للحرب على سورية، وتم استخدام الأسلوب الإحصائي الكمي لجمع ومعالجة البيانات ذات الصلة لقياس حجم الضرر المترتب من الآثار البيئية للحرب على سورية.

وتم استخدام أدوات بحثية تتمثل بالبحث المكتبي، والبحث عبر الشابكة.

الدراسات السابقة: تناول العديد من الباحثين في سورية وخارجها الآثار التي نتجت عن الحرب على سورية،ولكن لاحظنا وجود نقص حاد جدا في الأبحاث التي تناولت الآثار البيئية للحرب وأثرها في مختلف مجالات الحياة، فهناك الكثير من الآراء لدى الباحثين بأن هناك قضايا بحثية أكثر إلحاحا من دراسة الآثار البيئية فيما يخص آثار الحرب على سورية، وقد رصد التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي الصادر عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016بعض الآثار البيئية للحرب في الغابات والتنوع الحيوي والمحميات الطبيعية، وصدرت أيضا وثيقة المساهمات المحددة وطنيا في إطار اتفاق باريس للمناخ عن الجمهورية العربية السورية لعام2018م، بينما كانت معظم الدراسات الخارجية في هذا السياق هي لغايات كيدية ضد سورية، غايتها تهويل الواقع وتحميل الحكومة السورية المسؤولية في تدهور البيئة.

النتائج والمناقشة :

أولا: الآثار البيئية للحرب على سورية :

تعد معالجة الآثار البيئية للحرب المستمرة على سورية منذ ما يزيد عن عشرة أعوام والتخريب الممنهج الذي طال كافة البنى التحتية من أهم التحديات التي واجهت الحكومة السورية، وما خلفته هذه الحرب من آثار بيئية على الموارد الطبيعية خاصة الأراضي والمياه، ومن تلك الآثار الألغام التي زرعتها المجموعات المسلحة في الأراضي الزراعية، كذلك تلوث الهواء والتربة نتيجة تكرير النفط بطرق تقليدية من قبل المجموعات الإرهابية التي سيطرت ولا تزال على حقول النفط، كذلك قطع الأشجار وحرق المحاصيل والتعدي على الغابات والمراعي الطبيعية، وقد تعرضت أيضاً شبكات الري والآبار ومحطات الضخ إلى تخريب ممنهج أدى إلى خروج مساحات كبيرة من العملية الإنتاجية، إضافة إلى تخريب المراكز البحثية والخدمية وسرقة التجهيزات،ومن التحديات الأخرى أيضاً عدم حصول حكومة الجمهورية العربية السورية على تمويل أي مشروع من قبل الاتفاقية الإطارية للصندوق الأخضر حتى الآن وتم تمويل مشروع إعداد البلاغ الوطني الأول

للجمهورية العربية السورية وإستراتيجية التكيف في عام 2006 من قبل مرفق البيئة العالمي (GEF) [1]، وتناولنا في هذا البحث تقييم الآثار البيئية للحرب في المجالات التالية :

1- المناخ:

عززت الحرب المشكلات المناخية في سورية سواء لجهة استخدام المجموعات الإرهابية للغازات السامة والمواد المتفجرة المحظورة عالميا، أم لجهة عدم توفر التمويل الكافي لمواكبة إجراءات التصدي لتغيرات المناخ عالميا حيث شاركت سورية في معظم المؤتمرات والاجتماعات العالمية حول التغير المناخي، وكانت من أوائل الموقعين على الاتفاقيات الدولية، ما عدا اتفاق باريس، إذ لم تتم دعوتها إليه لأسباب سياسية، وعملت سورية على إدماج إصدار التشريعات والإجراءات التي تساهم في الحد من آثار التغير المناخي، غير أن ظروف الحرب حدت من تطبيق هذه التشريعات والإجراءات، وانضمت سورية إلى الاتفاقية الإطارية الدولية للتغيرات المناخية في عام 1995، كما تمت المصادقة على بروتوكول كيوتو في عام 2005، ويؤثر تغير المناخ في المحددات الاجتماعية والبيئية للصحة، مثل الهواء النقي ومياه الشرب المأمونة والغذاء الكافي والمأوى الملائم، ويمكن أن يتسبب ارتفاع درجات الحرارة وتغير أنماط الهطول في انخفاض إنتاج الأغذية الأساسية بمقدار قد يصل إلى50% حسب منظمة الصحة العالمية، وسيؤدي ذلك إلى زيادة معدل انتشار سوء التغذية ونقص التغذية، وهما يتسببان حاليا في 3.1 ملايين وفاة سنويا على مستوى العالم.[2]

عانت سورية من مستويات عالية من تلوث الهواء حتى قبل اندلاع الحرب الإرهابية ضدها، فقد تعرض 69% من السكان في عام 2010 إلى مستويات عالية من

[1] مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.

[2] مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.

الجسيمات الدقيقة (وهي ملوثات على شكل جسيمات دقيقة كالرصاص وغيرها... التي يبلغ قطرها أقل من 2.5 ميكرومتر PM2.5) الناتجة عن الانبعاثات الصناعية وعوادم المركبات، وحرق النفايات، فقد ساهمت الجسيمات الخطرة في الإصابة بالعديد من الأمراض المزمنة وأمراض التنفس، وقد كان من نتائج الحرب على سورية في بداياتها خفض نسبة السكان المعرضين للجسيمات الدقيقة (بنسبة 7% عام 2011)، وذلك نتيجة خروج بعض السكان من المدن والاتجاه نحو الأرياف هربا من بطش الجماعات الإرهابية، وانخفاض النشاط الصناعي واستهلاك الطاقة، ولكن سرعان ما أصبحت المدن الآمنة من بطش الإرهاب والواقعة تحت سيطرة الدولة كما هو الحال في العاصمة دمشق مركزا لجذب السكان بحثا عن فرص العمل والخدمات الأفضل، وبلغت ذروة هذه الهجرة عام 2015 مما سبب ضغطا بيئيا كبيرا على هذه المناطق، وقد حلت سورية في المرتبة 18 بين أكثر الدول تلوثاً في العالم (من بين 92 دولة) عام 2019 وفقاً لتصنيف منظمة الصحة العالمية، إذ بلغ تركيز الجسيمات الدقيقة (PM2.5) ثلاثة أضعاف مستوى التعرض الموصى به من منظمة الصحة العالمية[1].

يؤثر مستوى الجسيمات الدقيقة تأثيراً مباشراً على الصحة العامة، فقد ازدادت تقديرات الوفيات الناجمة عن الأمراض التي يسببها تلوث الهواء في الأماكن المفتوحة بنسبة 17% بين عامي 2010 و2017 بإجمالي 7684 شخص في سورية، وتُشكل الحالات المرضية الناجمة عن التعرض إلى الجسيمات الدقيقة 1625لكل 100 ألف شخص في سورية، فضلاً عن ذلك فإن معدلات المرض المرتفعة هذه تؤثر أيضاً على تكاليف الرعاية الصحية، إذ يُقدَّر العبء الاقتصادي للأمراض والوفيات المبكرة المرتبطة بتلوث الهواء في سورية بنحو 0.6% – 1.42% من الناتج المحلي الإجمالي، في حين زادت المخاطر البيئية المرتبطة بطبيعة المهنة التي تؤدي إلى الوفاة والعجز بنسبة16.5% بين عامي 2007 و2017م، وتؤثر المستويات العالية من الجسيمات

[1] وثيقة المساهمات المحددة وطنيا في إطار اتفاق باريس للمناخ عن الجمهورية العربية السورية لعام2018م.

الدقيقة أيضاً على الإنتاجية الزراعية وتقلل من غلّة المحاصيل، لا سيما بذور القمح والبذور الزيتية التي تتأثر أكثر من غيرها .[1]

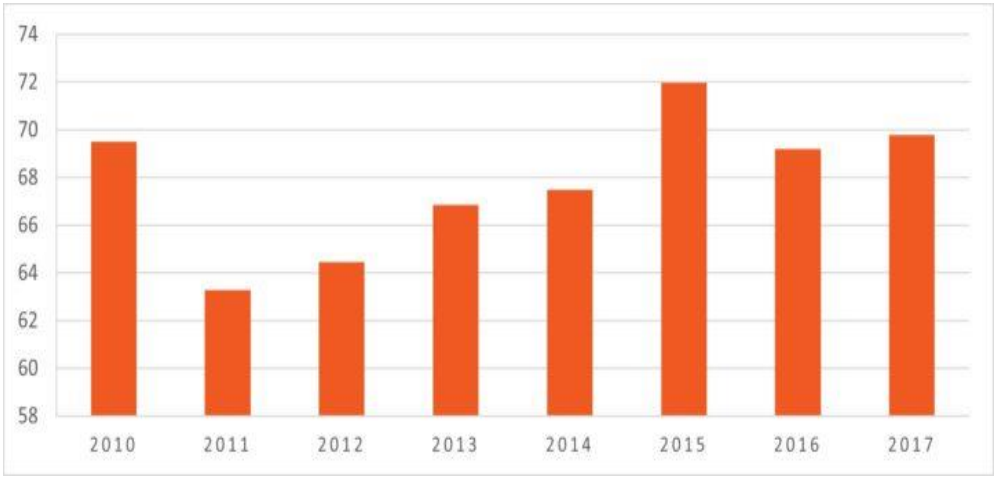

الشكل (1) النسبة المئوية للسكان المعرضين للتلوث بالجسيمات الدقيقة (PM2.5) في سورية في الفترة بين عامي 2010 و2017 (البنك الدولي، 2017)[2]

2- زيادة انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون:

انخفضت انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون في بداية الحرب منذ العام 2011م وذلك بسبب الدمار الذي لحق بقطاع الطاقة (المصدر الرئيسي للانبعاثات)، وتراجع الأنشطة الزراعية، وتراجع عمليات التصنيع، وتعطل إنتاج النفط والغاز بسبب الأضرار التي

[1] البنك الدولي، 2017.

[2] تلوث الهواء: حالة للعمل بعد عام PM2.5 تكلفة الصحة العالمية من .2022 .بنك عالمي" البنك © .واشنطن العاصمة: البنك الدولي . ؛ .التنمية الدولية تحت المجهر. 2021 . https://openknowledge.worldbank.org/handle/10986/36501: CC BY 3.0 IGO. "

لحقت بخطوط الأنابيب وغيرها من البنية التحتية في المصافي الرئيسية في مدينتي بانياس وحمص(الشكل2)

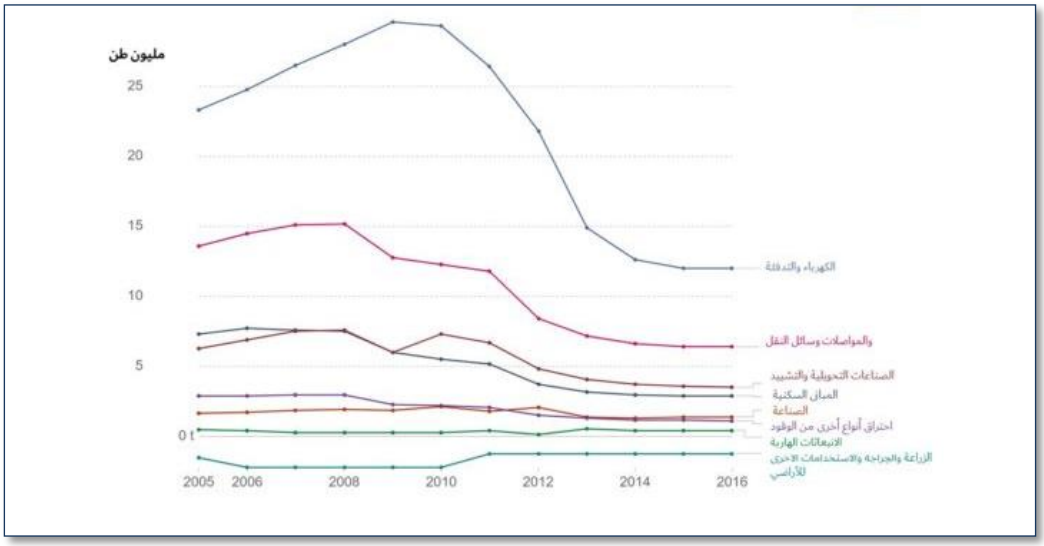

الشكل(2)انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون في سورية (حسب القطاع) بين عامي 2005 و2016م.[1]

يشكل النفط والغاز المصدرين الرئيسيين لانبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون (الشكل 2)، وقد انخفضت هذه الانبعاثات انخفاضاً كبيراً في بداية الحرب على سورية بالتوازي مع تراجع إنتاج المواد المرتبطة بالنفط والغاز، وتقلصت هذه الانبعاثات بنسبة 28% بين عامي 2011 و2015، وقد تعرضت محطات الطاقة في العديد من المدن للتدمير التام أو تعرضت لأضرار جسيمة نتيجة لأعمال المجموعات الإرهابية والنهب وتفكيك المعدات المعدنية في المنشآت، وحال نقص الغاز الطبيعي والمشتقات النفطية وزيت الوقود الثقيل

[1] مركز تحليل معلومات ثاني أكسيد الكربون، شعبة العلوم البيئية، مختبرات أوك ريدج الوطنية، تينيسي، الولايات المتحدة
https://data.albankaldawli.org/indicator/EN.ATM.CO2E.PC?locations=SY

دون تشغيل هذه المنشآت، وانخفضت انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن صناعة الأسمنت خلال فترة الحرب.[1]

ولكن لا يعطي انخفاض انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون في بداية الحرب مؤشرا إيجابيا مطلقا فقد ظهرت أنشطة جديدة فيما بعد عام 2015 تزيد من نسبة انبعاثات هذا الغاز مثل استخراج النفط بشكل بدائي وقطع الأشجار وغيرها من مفرزات الحرب على سورية مما جعل هذه الانبعاثات أعلى من المستويات الموصى بها، فقد وصلت في سورية إلى26.96 مليون طن عام 2019، وهو ما أسفر عن تكبد البلاد 1.4 تريليون دولار من التكاليف الاجتماعية* (إذ تُقدَّر التكاليف الاجتماعية الحالية للكربون بنحو 50 دولار لكل طن من انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي)، إضافة إلى زيادة احتمال حدوث ظواهر جوية قاسية مثل فترات الجفاف، مع انقطاع في سلاسل الإمدادات الغذائية.[2]

[1] الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، 2017م.

[2] Our World in Data، موقع الكتروني.

* التكاليف الاجتماعية : هي رسوم تفرض على دولة ما بموجب موافقة هذه الدولة على الانضمام لاتفاقيات ومعاهدات دولية فيما يخص ضبط انبعاثات غاز ثاني اكسيد الكربون تدفعها عندما تتجاوز هذه الانبعاثات فيها الحد المسموح به وفق هذه الاتفاقيات.

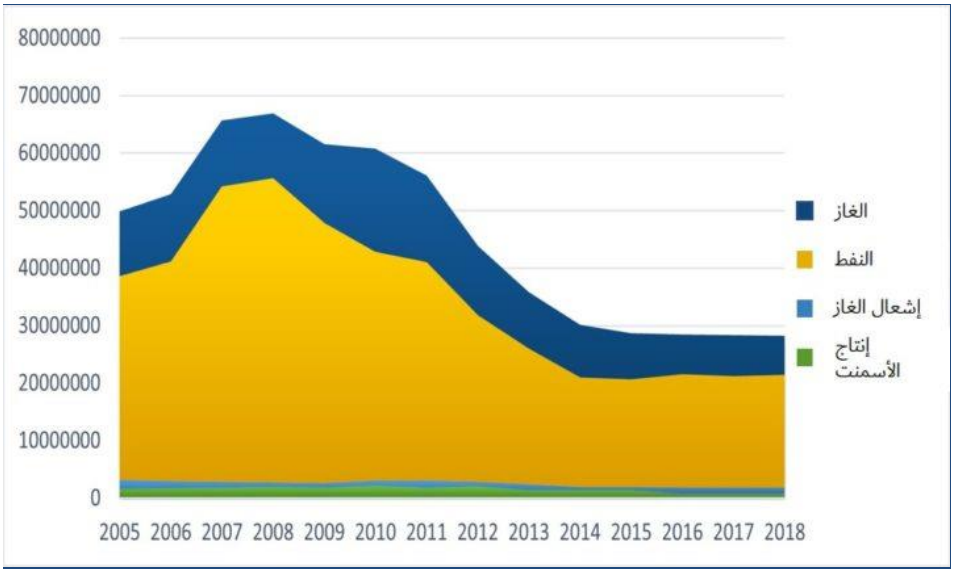

شكل(3) انبعاثات غاز ثاني أكسيد الكربون في سورية (حسب مصدر المواد) بين عامي 2005 و2018[1]

3- الآثار البيئية للحرب في النظم الغذائية في سورية :

قامت المجموعات الإرهابية المسلحة بالاستيلاء على المساحات المزروعة بالحبوب في المنطقتين الشمالية والشرقية والتي تشكل أكثر من70%من إجمالي مساحات الحبوب المزروعة في سورية، وتدمير المنشآت الإنتاجية في بعض المحافظات السورية، وحرق الأراضي الزراعية وإتلاف المحاصيل وسرقة الثروات الحيوانية والأسمدة وتفخيخ السدود المخصصة لري الأراضي، الأمر الذي أدّى إلى صعوبة تأمين مستلزمات الإنتاج الزراعي والصناعي، كما أثرت الأسعار بشكل ملحوظ على ارتفاع نسبة السكان الذين يعانون من الفقر بفعل الإجراءات الاقتصادية القسرية أحادية الجانب (خارجياً) وضعف

[1] مركز تحليل معلومات ثاني أكسيد الكربون، شعبة العلوم البيئية، مختبرات أوك ريدج الوطنية، تينيسي، الولايات المتحدة
https://data.albankaldawli.org/indicator/EN.ATM.CO2E.PC?locations=SY

النشاط الاقتصادي الإنتاجي الذي خرج قسم كبير من منشآته خارج الدورة الاقتصادية (محلياً)، مما انعكس سلباً على مؤشرات الفقر كافة واتساع نطاقه وتعمق حدّته وفجوته، وبالتالي على عدم تمتع معظم السكان في سورية بمستويات أمن غذائي جيدة طوال سنوات الحرب عليها.[1]

ساهم ارتفاع نسبة الجفاف والتصحر التي بلغت ذروتها في عام 2014 نتيجة انحباس الأمطار وتراجعها إلى مستويات قياسية إلى تعزيز المشكلات البيئية التي خلفتها الحرب ومنها مشكلة تدهور التربة الناتج عن الأنشطة الجائرة لاستخدام الأراضي، والاستخدام المفرط للموارد المائية وخصوصاً في المناطق التي كانت خارج السيطرة، مما أثر سلباً على سلاسل الإمداد بالغذاء وخاصة ما يتعلق بعمليات التصنيع الغذائي، حيث ازدادت تكاليف جميع المدخلات الزراعية (العمالة والآلات والبذور وأعلاف الحيوانات) نتيجة لتضخم الأسعار، مما أدى إلى تراجع القدرة الشرائية للمواطنين وبالتالي انخفاض فرص الحصول على الغذاء والوصول إلى الأسواق وخاصة في المناطق خارج سيطرة الدولة.[2]

تعرضت النظم الزراعية إلى أضرار كبيرة خلال الفترة 2011–2021 نتيجة عوامل طبيعية ولكن الضرر الأكبر كان نتيجة الحرب التي أنتجت أزمات بيئية على الصعيد الداخلي منها:[3]

1. توقف وانخفاض نسبة تنفيذ الكثير من مشاريع استصلاح الأراضي المتدهورة ومشاريع مكافحة التصحر وتثبيت الكثبان الرملية والمحميات الرعوية والطبيعية وإعادة تأهيل المراعي المتدهورة وتطوير الثروة الحيوانية بوجه عام وتنمية إنتاجية المراعي الطبيعية والأغنام بشكل خاص.

[1] المعلومات المتعلقة بالنظم الغذائية وحقوق الإنسان، في إطار الرد على أسئلة المقرر الخاص المعني بالحق في الغذاء للمساهمة في إعداد تقريره المواضيعي الذي قدمته البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة إلى الدورة (76) للجمعية العامة للأمم المتحدة، جنيف 2021م.

[2] برنامج الأغذية العالمي للأمم المتحدة (WFP)

[3] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي في سورية، مكتب التخطيط ،2022م.

2. عدم توفر بعض مستلزمات الإنتاج والنقص في بعضها كالأسمدة والمبيدات والمعدات.
3. زيادة تلوث ترب البادية السورية وخاصة في المناطق المحيطة بآبار النفط ومناطق التكرير البدائي للنفط .
4. تعرضت الكثير من النظم البيئية والزراعية ومراكز الإنتاج الزراعي إلى العديد من الاعتداءات الجائرة من المجموعات الإرهابية التي أدت إلى تدهور كبير في هذه النظم البيئية.
5. تراجع نسب تنفيذ التحصينات الوقائية للثروة الحيوانية نتيجة عدم تمكن الفنيين البيطريين من الحصول على اللقاحات وعدم تمكنهم من الوصول إلى مناطق وجود الثروة الحيوانية.

أما الأزمات البيئية التي نتجت على الصعيد الخارجي:

1. الإجراءات الاقتصادية أحادية الجانب التي حجمت حركة استيراد وتصدير مستلزمات الإنتاج الزراعي مما أدى إلى انخفاض كميات الإنتاج الزراعي في معظم المحافظات السورية.
2. الانخفاض الكبير في عمليات تصدير المنتجات الزراعية .
3. تذبذب أسعار الصرف وانعكاساته السلبية.
4. انعدام توفر التمويل المقدم من مرفق البيئة العالمي والبنك الدولي أو أي جهة ممولة لبرامج حماية التنوع الحيوي والمحميات خلال الفترة من 2011 حتى تاريخه.

أثرت هذه التحديات البيئية تأثيراً مباشراً على حق المواطنين السوريين في الحصول على الغذاء من خلال تأثيرها السلبي على مستويات الأمن الغذائي في سورية، حيث عانى حوالي 33%من الأسر السورية من انعدام الأمن الغذائي عام2015 (وفق نتائج مسح الأمن الغذائي لعام2015)، وشكلت الأسر المعرضة لانعدام الأمن الغذائي ما نسبته 51% بينما بلغت نسبة الأسر الآمنة غذائياً حوالي 16%، كما شهدت الفجوة الغذائية

اتساعاً بسبب انخفاض الكمية المستوردة من المواد الغذائية من حوالي 4750 ألف طن عام 2010 إلى 3700 ألف طن عام 2013م، وذلك رغم أنّ قيمة هذه الواردات قد ارتفعت من123 مليار ليرة سورية إلى 138 مليار ليرة سورية عام 2013نتيجة لارتفاع الأسعار وانخفاض سعر صرف الليرة السورية، كما تراجع مستوى الإنتاج الزراعي بشكل واضح والذي يشكل الدور الأبرز في تحديد سبل العيش وتأمين فرص العمل ، مما ساهم في ازدياد معدلات التضخم وارتفاع الأسعار بشكل عام، وأسعار الغذاء بشكل خاص مما أدى لزيادة عدد الأسر الفاقدة لأمنها الغذائي.[1]

أثر استخدام بعض النظم البيئية الزراعية للمبيدات بشكل مفرط وعدم استخدام طرق تصريف أو ريّ جيّدة سلباً في خسارة الموائل شبه الطبيعية والتنوع الحيوي والمناظر الطبيعية المتصلة بها، وهناك اعتراف متزايد بتأثير نظم الإنتاج الزراعي على صحة الإنسان بصورة مباشرة (الصحة التشغيلية للمزارع) أو بصورة غير مباشرة (صحة المستهلك من خلال الأغذية) باعتبار أنها عنصر ملازم للتقييم الأشمل للمخاطر على البيئة المتصلة بالزراعة.[2]

كما أن بعض النظم البيئية الزراعية تساهم في تفاقم المشكلات الناتجة عن غازات الاحتباس الحراري، حيث أن هناك ثلاثة مصادر رئيسية لانبعاثات غازات الاحتباس الحراري في الزراعة: انبعاثات N2O (ثاني أكسيد النترات) من التربة لا سيما نتيجة التخصيب بواسطة الآزوت،و انبعاثات CH4 (الميتان) من التخمير الداخلي، وانبعاثات CH4 وN2O نتيجة إدارة السماد الطبيعي، والذي يؤثر بشكل كبير على إمداد الغذاء ويساهم في تلوث المياه الصالحة للشرب (تلوّث المياه بالنترات من مصادر زراعية كالأسمدة الآزوتية حيث يعتقد أنّ أساليب الزراعة هذه التي تعتمد على التسميد الكيماوي بشكل كبير تساهم في زيادة التلوث، لاسيما وأن الحرب قد أدت إلى استغلال الأراضي

[1] برنامج الأغذية العالمي للأمم المتحدة (WFP).
[2] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية. 2022م.

الزراعية بشكل غير مستدام بيئيا لسد الحاجة المتزايدة للغذاء مع ارتفاع العائد لتجار المواد الغذائية.[1]

4- قطاع الطاقة: يعد قطاع الطاقة في سورية قطاعا استراتيجيا، فهو العامل الأهم في تحقيق معدل النمو المطلوب لناتج كافة قطاعات الاقتصاد،حيث يشكل النفط والغاز مصدريه الأساسيين ويعد من أكثر القطاعات المتضررة بالحرب على سورية، حيث لحق به دمار هائل بالبنى التحتية في معظم منشآت الإنتاج والمعالجة ونقل النفط والغاز لا سيما هذه المنشآت في بانياس وحمص، وتعرض لخسائر هائلة نتيجة للتدابير الاقتصادية القسرية أحادية الجانب وغير المشروعة التي فرضت على سورية، وقدرت خسائر قطاع النفط والغاز المباشرة وغير المباشرة منذ بداية الحرب وحتى نهاية شهر آذار 2016 نحو /62/ مليار دولار، كما بلغت خسائر منظومة الكهرباء /2/ مليار دولار، الأمر الذي دفع إلى رفع أسعار المشتقات النفطية، وبالتوازي مع انخفاض النشاط الاقتصادي الإنتاجي والخدمي وانكماش الناتج المحلي الإجمالي، فقد انخفض الطلب الملبى على مصادر الطاقة بين العام 2011 والعام 2016 إلى دون النصف (من 25 إلى حوالي 10 مليون طن مكافئ نفط)، مع الإشارة إلى توقف عمل العديد من محطات التوليد وانخفاض الطلب الكلي على استهلاك الطاقة كمواد أولية أو احتراقية، بما فيها في قطاع النقل والصناعة والقطاع المنزلي، وبالرغم من أن هذا كله قد أدى إلى انخفاض جوهري في الانبعاثات السامة الملوثة لا سيما اكاسيد الكربون فقد واكب ذلك حدوث أضرار بيئية أخرى، فقد تشكلت مواد خطرة بسبب استهداف مصافي تكرير النفط في حمص من قبل المجموعات الإرهابية، وإنشاء مصافٍ مؤقتة جديدة من قبل (داعش)، و أدى تسرب النفط من المصافي والآبار والشاحنات وخطوط الأنابيب والصهاريج المتضررة التي تستخدمها (داعش) في عمليات التكرير إلى تلوث الأرض والمياه السطحية والتربة، الأمر الذي أدى إلى تلوث مياه الشرب والأراضي الزراعية، وقد

[1] المرجع السابق.

أدى التلوث والآثار الناجمة عن حرائق النفط إلى تدمير مساحات واسعة من الأراضي المزروعة والرعوية وقتل الماشية [1].

كما اتجه الكثير من السكان لاستخدام بدائل طاقة غير آمنة، كتكرير النفط بأساليب بدائية، واستخراج الوقود من النفايات البلاستيكية بأساليب كارثية على البيئة، والاستعاضة عن التدفئة بواسطة الكهرباء وبالمشتقات النفطية غير المتوافرة باللجوء لقطع الأخشاب من الحراج والغابات وحتى قطع الأشجار المثمرة، ومن جهة ثانية أدى سعي السكان نحو مصادر طاقة أكثر موثوقية إلى الاتجاه نحو المدن، مما زاد الضغط على مصادر الطاقة فيها وتسبب بخلق عوز في الطاقة وعدم كفاية ما هو متاح لا سيما في الأحياء العشوائية المحيطة بالمدن.

ولكن وكناحية ايجابية فبالإضافة لتراجع نسبة الانبعاثات من غاز ثاني أكسيد الكربون بسبب النقص في توريدات الوقود الأحفوري، فإن هناك اتجاه واضح نحو الطاقات المتجددة والتي يقف ارتفاع أسعار استخدامها عائقا أساسيا ووحيدا أمام اتجاه غالبية السكان لها، لاسيما الطاقة الشمسية، ومن المتوقع أن يصل استخدام الطاقات المتجددة في سورية إلى نحو 10 %من نسبة إنتاج الكهرباء حتى عام 2030 ،وذلك في حال توفر دعم حقيقي من المانحين الدوليين لاستدامة المبادرات وتنفيذ المشاريع في مجال الطاقات المتجددة، ومن جهتها فقد أصدرت الحكومة السورية مؤخرا تسهيلات مالية لاقتناء منظومات الطاقة الشمسية لتوليد الكهرباء للاستخدامات المنزلية من خلال قروض بلا فوائد تصل ل10 مليون ليرة سورية.[2]

5- المراعي الطبيعية والغابات والحراج: قدرت المساحة الإجمالية للمراعي الطبيعية والمروج في سورية بنحو 8212 ألف هكتار لعام 2010 بنسبة 35.44 %من إجمالي المساحة، بينما كانت مساحتها 8.33 مليون هكتار لعام 2003، وشكلت الغابات الطبيعية ما يزيد عن 15%من مجمل الأراضي السورية لعدة قرون مضت، ولقد طرأ

[1] وزارة النفط والثروة المعدنية،المؤسسة العامة لتكرير النفط وتوزيع المشتقات النفطية،2022م.
[2] وزارة الكهرباء،المركز الوطني لبحوث الطاقة،2020م.

على هذه الغابات تراجع كبير نتيجة التوسع الزراعي والسكني على حسابها، والقطع الجائر بهدف الوقود أو التفحيم أو الاستخدام الزراعي والمنزلي، و الرعي الجائر غير المنظم، والحرائق، والسياحة الشعبية غير المنظمة، مما أدى إلى تناقص هذه النسبة إلى 1.26 %من مساحة الأراضي السورية.[1]

فقدت سورية 20.4% من الغطاء الشجري في الفترة بين عامي 2012 و2019، وقد تأثرت محافظتي اللاذقية وإدلب بقدر كبير من هذه الخسارة، التي بلغت في اللاذقية 10% وفي إدلب 27% من مساحة الغطاء الشجري بين عامي 2011 و2014 (أي ما يعادل 89% من إجمالي الفاقد في الغطاء الشجري في سورية)، وقد ارتبط نضوب الغطاء الحراجي في بعض المناطق بمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية المختلفة المرتبطة بالحرب على سورية، منها حرائق الغابات المتكررة،وقطع الأشجار بصورة غير قانونية،والتوسع الزراعي، وإنتاج الفحم النباتي، وضعف الرقابة في إدارة الموارد الطبيعية والتنمية البيئية.[2]

تعد حرائق الغابات من الأسباب الرئيسية لاجتثاث الغابات، وقد ازداد تواتر اندلاعها وشدتها بشكل كبير خلال سنوات الحرب على سورية، ففي عام 2020 تسببت الحرائق في القضاء على ما يزيد عن 9 آلاف هكتار من الأراضي الزراعية والغابات، مما ألحق الضرر بنحو 140 ألف إنسان، من خلال تدمير بيوتهم وممتلكاتهم وتخريبها [3].

ومن الأسباب الأخرى المتعلقة بالآثار البيئية للحرب في اجتثاث الغابات هو قيام المجموعات الإرهابية بقطع الأشجار من أجل بيع الأخشاب بقصد التدفئة، وتعرضت40% من خطوط الكهرباء في سورية في العام 2013 للهجوم وتعطلت30محطة مما جعل من أخشاب الأشجار مصدرا لمتاجرة ضعاف النفوس بها بقصد التدفئة، فقد قطعت 7 آلاف شجرة في تل كلخ وفي الهامة، بما في ذلك محمية

[1] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي،مديرية الحراج،2022م.
[2] التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016.
[3] مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، 2020.

البلعاس حيث خسرنا مئات الأشجار التي تصل أعمارها إلى قرون، وقطعت 7500 شجرة في الحسكة معظمها من محمية جبل عبد العزيز، فيما أُزيلت غابات بأكملها في محمية جباتا بمحافظة القنيطرة، ويُقدَّر عدد أشجارها بحوالي 100إلى 300 شجرة، بينما قطعت100شجرة صنوبر حجري في الشحار جنوب جباتا، وتعرضت محمية الضمنة جنوبي سورية لتخريب شبه كامل وقطع معظم أشجارها، ومن بين تلك الخسائر أشجار معمّرة وموسمية كأشجار البلوط والبطم الأطلسي وأشجار التوت وشجيرات توت العليق وأشجار الصنوبر البري وكرز المحلب، ومئات الأنواع من النباتات الطبيعية، كالبابونج والقُرّاص والزعتر البري، وهي نباتات ضرورية للصناعات الدوائية، إضافة إلى أعشاب عطرية نادرة مثل اللافندر والكزبرة والفطر،وهذا ما حدث أيضا في مواقع كثيرة منها عين الزرقا الحراجي في حماة، إضافة إلى حرق أشجار الصنوبر، والتعدي على غابات السنديان والقطلب في محمية أبو قبيس بمساحة 60 دونما وممتلكاتها، وبعض المواقع الحراجية في السلمية وغيرها.[1]

وقد أوضحت الدراسات على المستويين الوطني والمحلي أن الحرائق تشكل التهديد الرئيس للحراج، لاسيما غابات الصنوبر الحلبي المتمركزة في الجبال الساحلية وفي جبال حلب.

6- الآثار البيئية للحرب على المحميات الطبيعية في سورية:

بلغ عدد المحميات 31محمية طبيعية و105محمية رعوية لعام 2010م، وتوزعت المحميات الرعوية كما يلي:

- 59 محمية رعوية يتم تأهيلها ضمن خطط سنوية بطريقتي زراعة الغراس الرعوية والنثر المباشر للبذور مساحتها الإجمالية 785894 هكتار.
- 8 محميات بيئية للحفاظ على التنوع الحيوي والحياة البرية مساحتها الإجمالية 121957 هكتار موجودة في بوادي المحافظات الشرقية .

[1] وكالة نورث برس، 2020.

- 15 مشروعا للحد من زحف الرمال وتثبيت الكثبان الرملية موزعة في محافظات الرقة– دير الزور– الحسكة– حمص– ريف دمشق مساحتها الإجمالية 74113 هكتار.
- 13 مشتل رعوي تنتج 10 مليون غرسة رعوية وأشجار مثمرة وحراجية موجودة على طريق عام دمشق– تدمر– دير الزور ومساحتها الإجمالية 186 هكتار.
- 10مراكز لإكثار بذور رعوية مساحتها الإجمالية 1738 هكتار.[1]

تعرضت11محمية إلى أضرار متفاوتة نتيجة الحرب على سورية، إذ تعرضت محمية جباتا الخشب في محافظة القنيطرة إلى قطع الأشجار الحراجية، بينما تعرضت محمية البلعاس في محافظة حماة إلى أضرار كبيرة نتيجة الاعتداء على كامل مساحة المحمية من خلال قطع آلاف أشجار البطم الأطلسي المعمرة، وقطع آلاف أشجار السرو والصنوبر كما تم تخريب وسرقة نقطتا حراسة بمحتوياتها وتخريب مبنى إدارة المحمية، أما محمية أبو رجمين في محافظة حمص فقد تمت سرقة وتخريب مبنى المحمية و الآليات، وتعرضت محمية الفرنلق في محافظة اللاذقية إلى الاعتداء على حوالي نصف المساحة الإجمالية للمحمية، كما تدهورت حالة مزارع النباتات العطرية والطبية التي زرعت بطريقة عضوية، وتعرضت المشاريع المنفذة لمصلحة المجتمع المحلي في المحمية إلى أضرار مادية كبيرة من خلال سلب بعض الأدوات وتخريب المنتجات، كما تعرضت محمية الأرز والشوح إلى قطع أشجار بكل الأعمار والأنواع و تعرض مبنى إدارة المحمية للنهب وسرقة جزء كبير من محتوياته، أما في محافظة السويداء فقد تعرضت محمية ضمنة و محمية الإنسان والمحيط الحيوي (اللجاة)إلى قطع كبير للأشجار، وفي محافظة ريف دمشق تعرضت محمية اللزاب إلى التخريب، بينما تعرضت غابة الباسل في إدلب إلى سرقة 33 غزال، و في الحسكة تعرضت محمية الهول ومحمية جبل عبد العزيز إلى قطع الأشجار بنسبة تتراوح بين 3 إلى 100%.[2]

[1] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي،مديرية الحراج،2022م.
[2] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية. 2022م.

7- الآثار البيئية للحرب في سورية على التنوع الحيوي:

تعرضت مكونات التنوع الحيوي والغطاء النباتي في غابات القطر للكثير من الأضرار نتيجة أعمال التخريب التي قامت وتقوم بها المجموعات الإرهابية، إضافة إلى تدهور الغطاء الشجري نتيجة عمليات القطع والحرائق التي حدثت خلال فترة الحرب على سورية، فقد تعرض الغطاء النباتي تحت الغابة من نباتات حولية ومعمرة وأعشاب ونباتات طبية وعطرية وتزيينية للتدهور نتيجة تلك الأعمال، وتخريب العديد من الموائل الطبيعية حيويا والتي يقطنها الكثير من الكائنات الحية، الأمر الذي أدى إلى اختفاء بعض الأنواع النباتية مثل بطم كنجك في المواقع الطبيعية التي تعرضت للتخريب كمحمية جبل عبد العزيز واختفاء الكائنات الحية الحيوانية التي تقطن تلك الموائل مثل طائر أبو منجل الشمالي وغزلان المها العربي.[1]

تأثر التنوع الحيوي كغيره بالحرب فتراجعت مكوناته وتدهورت لعدم القدرة على تقصيها ومراقبتها، وتم تخريب البنى التحتية الخاصة بحماية التنوع الحيوي في المحميات الطبيعية والتي ساهمت بشكل كبير في الحفاظ على التنوع الحيوي خلال السنوات السابقة للحرب، وللأسف فإن الفقد والتدهور الحاصل من الصعب جدا تعويضه وخاصة تلك الموارد الوراثية الحيوانية، وفي ظل الظروف الصعبة تراجعت مكونات التنوع الحيوي خاصة تلك التي يتم حفظها داخل الموقع في المحميات ومناطق الوقاية، وحتى خارج الموقع في المجمعات الوراثية ومع ذلك فقد عملت المؤسسات المسؤولة جهدها للحفاظ على ما يمكن، ولكن تعرضت أنواع كثيرة من الكائنات الحية في موائلها الطبيعية إلى القتل من قبل العصابات الإرهابية بهدف التغذي عليها أو سرقتها بهدف نقلها بطريقة غير قانونية إلى الدول المجاورة مثل غزال المها العربي، وغزال الريم.[2]

[1] التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016.
[2] المرجع السابق.

كما تعرضت بعض الأنواع الحيوانية كالسلاحف البرية إلى تعديات كبيرة والتي تتجلى في الجمع غير القانوني من موائلها البرية وذلك بهدف التجارة الداخلية والخارجية غير القانونية.

بالإضافة إلى ذلك وبعد أن تم تسجيل حوالي 222 طائر من نوع القطقاط الاجتماعي في البادية السورية حتى عام 2010م ،وهذا النوع من الأنواع المهددة بالانقراض ومدرج على قوائم ملاحق اتفاقيتي CITES ، CMS فقد تعرض هذا النوع إلى القتل وتخريب الموائل الطبيعية التي يرتادها أثناء هجرته، وقد تعرض طائر أبو منجل الشمالي للقتل في موئله الطبيعي في محمية طائر أبو منجل في مدينة تدمر الأثرية إذ كانت الأفراد الموجودة في سورية في بادية مدينة تدمر هي أخر أفراد هذا النوع، في الوقت الذي قدمت فيه الجهات الوطنية المسؤولة عن حمايته ورعايته الكثير لمحاولة إكثاره في الموئل وخارج الموئل، وتعرض أيضا للقتل كل من طائر الحبارى،النعام،والأرنب البري والكثير من الأنواع الموجودة في الحياة البرية السورية.[1]

ولم يسلم التنوع الحيوي البحري من التعديات، فازداد الصيد الجائر واستخدام الوسائل والطرق غير القانونية في عمليات الصيد البحري، وخاصة للأنواع المهمة والمهددة بالانقراض وخاصة أسماك القرش.

أثرت الإجراءات الاقتصادية أحادية الجانب على تنفيذ الإجراءات المتعلقة بحماية التنوع الحيوي فقد ساهمت مثل هذه المشاريع الممولة من قبل المنظمات والبرامج البيئية الدولية مثل برنامجي وUNEP وGEF وغيرها قبل الحرب في تأمين الاحتياجات الوطنية اللازمة لدعم حماية التنوع الحيوي من جهة، ومن جهة أخرى العمل على بناء القدرات الوطنية الداعمة لحمايته ، وقد انضمت سورية عام2011– 2012 إلى بروتوكول ناغويا للحصول على المنفعة من الموارد الوراثية البرية النباتية والحيوانية، والتقاسم العادل والمنصف للمنافع الناشئة عنها، وبرتوكول ناغويا – كوالالمبور التكميلي لبروتوكول قرطاجنة للسلامة الإحيائية الخاص بالمسؤولية والجبر التعويضي للأضرار

[1] التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016.

الناتجة عن الكائنات الحية المعدلة وراثيا والتزمت سورية كدولة طرف في اتفاقية الـ CBDوالبروتوكولات الناتجة عنها، في الوقت الذي تخلت عنها المنظمات الممولة الداعمة للتنوع الحيوي، بالرغم من كونها دولة نامية تنطبق عليها المعايير الدولية للدعم المادي، إضافة إلى حاجتها الماسة لدعم مكونات التنوع الحيوي بسبب التعدي الكبير عليها من قبل المجموعات الإرهابية ، فخلال الفترة من 2012 إلى يومنا هذا لم تحصل سورية على الدعم المالي والفني في تنفيذ المشاريع التالية مثل البلدان الأخرى:[1]

1- عدم القدرة على تطوير وتحديث الإستراتيجية الوطنية للتنوع الحيوي بما يتوافق مع أهداف ايتشي العالمية، رغم تسليم سورية وثيقة المشروع إلى مرفق البيئة العالمي في الوقت المحدد.

2- عدم حصول سورية على الدعم المالي لإعداد التقرير الوطني الخامس أسوة بالدول الأطراف في الاتفاقية، ولكن تم إعداد التقرير الوطني الخامس لوصف الحالة الراهنة.

3- عدم قبول التقدم للحصول على مشروع إعداد الأطر الوطنية لتطبيق بروتوكول الـ 4ABS- عدم تنفيذ مشروع تطبيق الهيكلية الوطنية للسلامة الإحيائية في سورية رغم توقيعه مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة منذ العام 2011م.

5- عدم الحصول على أي نوع من الدعم الفني والتقني والمالي من الجهات الدولية الممولة.

6- عدم الحصول على مشروع إنشاء شبكة وطنية لجنوح الحيتان في سورية بتمويل من أمانة اتفاقية ACCOBAMS(رغم تقديم وثيقة المشروع في الوقت المحدد).

[1] مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.

7- عدم القدرة على دفع المساهمات الوطنية للاتفاقيات الدولية المنضمة إليها سورية، وذلك بسبب مقاطعة البنك الوسيط للمصارف السورية وبالتالي عدم إمكانية تحويل الأموال اللازمة.

وفي هذا السياق، تؤكد سورية على ضرورة الإنفاذ الفوري لقرارات الأمم المتحدة ذات الصلة، ومنها إلزام الكيان الصهيوني الغاصب أن يتحمل المسؤولية عن الكارثة البيئية الذي لحقت بشواطئ الجمهورية العربية السورية من أضرار، خاصة تكاليف إصلاح الضرر البيئي، بما في ذلك إعادة البيئة البحرية إلى سابق حالها، وذلك بفعل الدمار الكبير الناجم عن استهداف الطيران (الإسرائيلي) في العام 2006 لمحطة الجية اللبنانية لتوليد الكهرباء والذي أدى لانسكاب نفطي غطى شواطئ لبنان وجزء من الشواطئ السورية، وأعاق جهود تحقيق التنمية المستدامة.[1]

8- قطاع الزراعة والأراضي الزراعية: أدى تظافر آثار التغيرات المناخية مع آثار الحرب إلى كوارث كبيرة في قطاع الزراعة تمثلت بخروج مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية (مروية- بعلية) من الخدمة، وتضرر الآلات والمعدات الزراعية ونقص القطع التبديلية، إضافة إلى التخريب الذي تعرضت له الآبار وشبكات الري والقنوات المائية التي أدت إلى تراجع مساحة وغلة المحاصيل الزراعية ورداءة نوعيتها، و الذي رافقه انخفاض غير مسبوق في أعداد الأغنام و الأبقار والجمال .[2]

وقد تسبّبت سنوات الجفاف الطويلة التي شهدتها البلاد بين عامي 2006 و2010 في تدهور التربة وانحسار الغطاء النباتي، وهي مشكلات تفاقمت مع اندلاع الحرب، وتمثّل تهديداً لإنتاجية الأراضي والتنوع الحيوي والإنتاج الزراعي في فترة ما بعد الحرب حيث وصلت نسبة الأراضي الزراعية في سورية المعرضة لتآكل التربة إلى 58%من مجمل

[1] مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.

[2] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية. 2022م.

المساحات الصالحة للزراعة فيها، وقد انخفض استخدام الأراضي الصالحة للزراعة بنسبة 21٪ بين عامي 2010 و2014 .[1]

أدى الاستغلال الكثيف للأراضي الزراعية وخصوصاً في منطقة زراعة المحاصيل الأساسية التي كانت على طول الساحل السوري إلى مزيد من التدهور إلى جانب تلوث الأراضي الزراعية والتربة بمخلفات الإرهاب، الأمر الذي أدى إلى خسائر في الإنتاج الزراعي في تلك المناطق، ولم يؤدِّ تآكل التربة إلى فقدان الأراضي الخصبة فحسب، بل أدى أيضاً إلى زيادة الرواسب والتلوث في الأنهار والمصارف مما سبب تراجع الإنتاج السمكي بنسبة 63٪ بين عامي 2010 و2020م.

ووفقاً لتقارير منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة، فقد عانى قطاع الزراعة في سورية من خسائر بلغت قيمتها 16 مليار دولار بين عامي 2011 و2016 مما سبب انخفاضاً بنسبة41% من مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي من المنتجات الزراعية، وذلك نتيجة الفاقد في الإنتاج ونتيجة تدمير البنية التحتية (كالأضرار اللاحقة بنظم الري، والنقص في المدخلات مثل الأسمدة والوقود والبذور)، فقد أدت الحرب إلى انخفاض مساحة الأراضي المزروعة في عام 2019م بنسبة 30٪ عما كانت عليه في عام 2010، والأراضي المروية بنسبة 50٪،وانخفض إنتاج القمح إلى النصف، فبعد أربع سنوات فقط من اندلاع الحرب على سورية أصبحت البلاد مستورداً صافياً للقمح، وفي حين أن قطاع الزراعة السوري ما يزال يوفر50% من الإمدادات الغذائية للبلاد وفقاً لإحصاءات في 2019، إلا أن هذا يعدّ تراجعاً بنسبة40% عن مستويات مساهمته ما قبل الحرب، إضافة إلى ارتفاع أسعار الوقود للاستخدامات الزراعية، وارتفاع تكاليف البذور التي كانت مدعومة في الماضي، والرسوم المفروضة على المواشي، ونقص العاملين المتخصصين، وارتفاع تكاليف العمالة ونقص الأيدي العاملة، إضافة إلى الاقتصادات المجزّأة، وانقطاع سلاسل الإمداد_والتوريد، أدى كل ذلك إلى ارتفاع أسعار الأغذية، الأمر الذي جعل 60% من السكان في سورية يعانون حالة من انعدام

[1] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية. 2022م.

الأمن الغذائي، فقد تراجعت الإنتاجية الزراعية بشكل حاد، الأمر الذي دفع الناس إلى تحويل زراعتهم إلى محاصيل أقل استهلاكا للموارد، ولقد قدّرَت منظمةُ الأغذية والزراعة العالمية التكلفةَ المبدئية لإصلاح القطاع الزراعي وإعادة تأهيله في سورية بما يتراوح بين11إلى17مليار دولار.[1]

دُمّرت بين شهري تشرين الأول وكانون الأول في عام 2016 أكثر من 251 ألف شجرة فاكهة نتيجة امتداد حرائق الغابات التي اندلعت بمحافظة اللاذقية في مناطق الحَفّة وجبلة والقرداحة واللاذقية المركز إلى بساتين أشجار الفاكهة القريبة، وقد كانت سورية من كبار منتجي زيت الزيتون في المنطقة، حيث كان هناك أكثر من 79 مليون شجرة زيتون تنتج تقريباً ما يصل إلى 1.1 مليون طن من الزيتون، يستهلك منها 250 ألف طنّ في كزيتون مائدة، ويدخل 850 ألف طن في إنتاج 200 ألف طن من زيت الزيتون سنويا مما يسهم في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة تتراوح بين1.5 إلى 3.5٪ قبل اندلاع الحرب، ومثّلت زراعة الزيتون قطاعاً اقتصاديّاً مهما في سورية،ووفرت وظائف لحوالي 337 ألف أسرة في عام 2003، ففي محافظة اللاذقية على سبيل المثال كانت هناك 57 ألف أسرة تعيش على زراعة 45900 دونم من الزيتون، فيما كانت هناك 44700 أسرة تنتفع بزراعة 43500 دونم من الحمضيات، وشكل زيت الزيتون نسبة 3٪ من الصادرات السورية غير النفطية، واعتمد حوالي 10٪ من السكان في سورية جزئياً أو كلياً على قطاع الزيتون مصدراً للدخل، سواء من خلال زراعة الزيتون أم حصاده أو إنتاجه أو بيعه، ومع بداية الحرب على سورية انخفضت الصادرات الرسمية من زيت الزيتون إلى أقل من 20 ألف طن، ثم ارتفعت إلى 32 ألف طن و30 ألف طن في موسمي 2016–2017 و2017–2018على التوالي، ولكن ما تزال هذه الكمية أدنى بكثير مقارنة بما كانت عليه قبل الحرب حيث وصلت في وقتها إلى 110ألف طن،

[1] منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة FAO.2020م.

وقامت الجماعات الإرهابية المدعومة من قبل تركيا في آذار 2018 بإزالة نصف مليون شجرة زيتون على الأقل في عفرين.[1]

9- قطاع النفايات الصلبة: واجه قطاع إدارة النفايات الصلبة خلال سنوات الحرب الكثير من العقبات، وتعرض لكثير من الضغوط التي أدت إلى تراجع الأداء في هذا القطاع، حيث أن عدم تمكن عناصر الوحدات الإدارية في بعض المناطق من الوصول إلى أماكن عملها لترحيل النفايات الصلبة بسبب انتشار المجموعات الإرهابية، أدى إلى تراكم كميات كبيرة منها مع عدم القدرة على ترحيلها والتخلص الآمن منها، واضطرار سكان بعض المناطق إلى حرقها و التسبب بانبعاث ملوثات ضارة.[2]

عانت سورية في فترة ما قبل الحرب أيضا من مشكلة تتعلق بالنفايات الخطرة، نتيجة الافتقار إلى نظم ولوائح مناسبة لإدارة النفايات، وأدى سوء الإدارة للنفايات الخطرة على المدى الطويل وفي المقام الأول النفايات الصناعية والطبية (80٪ منها شديد السمية والتلوث كالحقن المستخدمة وعينات الدم والبراز وغيرها، و15٪ كيماوية، و5٪ مشعّة)إلى توليد مستوى عالٍ من التلوث خاصة في محافظتي حلب ودمشق الأكثر اكتظاظا بالمنشآت الصناعية والطبية، ومخاطر صحية جسيمة مرتبطة بهذه النفايات [3].

ومع الانعدام التام لخدمات إدارة النفايات في بعض المناطق التي سيطرت عليها المجموعات الإرهابية أحدثت الحرب مشكلة كارثية فيما يتعلق بالتخلص من النفايات، وأسهمت في إنتاج المزيد من النفايات الخطرة عبر عمليات حرق النفايات وإلقائها بدون ضوابط أو رقابة،وقد أدى تدمير المصانع المختلفة والمستشفيات والمدن إلى انبعاث مستويات عالية من السموم في الهواء، وإلى تسرّب كميات من المواد الكيماوية إلى التربة ومنابع المياه الجوفية، ويقدر حجم النفايات الصلبة المفرزة من النشاط اليومي في سورية في عام 2022م حوالي850 طن يومياً، وهي ضعف الكمية التي كانت تفرز قبل

[1] وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية ، والمكتب المركزي للاحصاء 2022م

[2] الدراسة الميدانية،2022م.

[3] المرجع السابق.

الحرب، وتجتذب تلك النفايات البلدية والمنزلية غير المجمعة القوارض والحشرات التي تحمل وتنقل الأمراض المعدية، الأمر الذي يعرّض الأطفال وجامعي القمامة للخطر،ويؤدي أيضاً إلى تلويث التربة والمياه، ويجلب مخاطر صحية وتكاليف اقتصادية، وخصوصاً في قطاعي الزراعة والصيد[1].

10- قطاع الإسكان :تعرض قطاع الإسكان في عدة محافظات إلى سلسلة من أعمال التدمير والتخريب من قبل الجماعات الإرهابية التي طالت البنى التحتية والأبنية السكنية ودور العبادة والأبنية الحكومية، لذلك يواجه هذا القطاع معضلة إعادة تأهيل المناطق المتضررة بسبب عدم توفر الآلات والمعدات اللازمة للتخلص من أنقاض الأبنية المتضررة وهدمها وفرزها وتدويرها والاستفادة منها حسب مجالات محددة لها، إضافة إلى إعادة تأهيل البنى التحتية بشكل مستدام.

وبلغت نسبة المساحة السكنية التي تعرضت للدمار بشكل كامل في سورية 23% من مجمل المساحة المبنية في سورية لعام2010 وهي بحاجة لهدم وإعادة بناء من جديد ،بينما بلغت نسبة المساحة السكنية التي تعرضت لدمار جزئي15% وهذه يمكن ترميمها من قبل الحكومة أو مالكيها.

ناهيك عن زيادة الضغط على الأحياء الهامشية للمراكز الحضرية، وأحياء المخالفات، وارتفاع نسبة قاطنيها، والمهاجرين إليها نظرا لانخفاض بدل الإيجار في بيوتها مقارنة بالسكن المنظم، وهذا الضغط السكاني الهائل في هذه الأحياء زاد الطلب على الكهرباء والمياه والمحروقات التي تعاني مسبقا من أزمة عدم كفايتها، مما زاد من التلوث البيئي في هذه الأحياء وتدني مستوى نوعية الحياة لعدم توافر مصدر مياه نظيف، أو الشروط الصحية للمسكن، أو في ترحيل النفايات المتكدسة، أو في وسائل التدفئة التقليدية التي يستعين بها سكان هؤلاء الأحياء.[2]

[1] Our World in Data، موقع الكتروني.
[2] وزارة الأشغال العامة والإسكان، المؤسسة العامة للإسكان والهيئة العامة للتطوير والاستثمار العقاري،2022م.

ثانيا: الإجراءات التي اتخذتها الحكومة السورية في مواجهة الآثار البيئية للحرب:[1]

إن ضمان أنماط استهلاك وإنتاج مستدامة بيئيا هو الهدف (12) من أهداف التنمية المستدامة المعلنة عالميا، وتتعلق أنماط الاستهلاك والإنتاج المستدامة بتعزيز كفاءة استخدام الموارد، والحصول على الخدمات بتحسين البنية الأساسية، وجودة الحياة لمصلحة الجميع، وتوفير فرص العمل اللائق،وخفض حدة الفقر، وتوطيد القدرة التنافسية الاقتصادية لإنجاز خطط التنمية الشاملة، فعلى المستوى الوطني سعت سورية لإحراز تقدم لتحقيق مقاصد هذا الهدف من خلال:

1. إقرار مشروع التنمية الريفية وتشكيل مجموعات ريفية لضمان استدامة الموارد، كإدارة وترشيد استخدام المياه في الري ودعم خدمات الإرشاد الزراعي وتوفير فرص العمل والمشاريع المولدة للدخل.
2. السعي إلى رفع كفاءة استخدام الموارد المائية وخاصة المياه من خلال تبني طرق الري الحديث، ورفع كفاءة شبكات الري، والسعي نحو إدارة الطلب على مياه الري من أجل زيادة المساحات المروية.
3. إنتاج أصناف نباتية أكثر مقاومة للجفاف، وأقل حاجة لمياه الري، واعتماد تركيبة محصولية تعتمد على الميزة النسبية، والاستفادة من مياه الصرف الصحي المعالجة.

[1] المعلومات المتعلقة بالنظم الغذائية وحقوق الإنسان، في إطار الرد على أسئلة المقرر الخاص المعني بالحق في الغذاء للمساهمة في إعداد تقريره المواضيعي الذي قدمته البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة إلى الدورة (76) للجمعية العامة للأمم المتحدة، جنيف 2021م. بالإضافة إلى مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.

4. الاستفادة من المخلفات النباتية وبقايا المحاصيل في إنتاج الأسمدة والأعلاف والتي تساهم في زيادة الإنتاج وتخفيض استخدام الأسمدة الكيماوية، إضافة إلى معالجة المخلفات الناتجة عن التصنيع الزراعي.

و أصدرت سورية جملة من الأحكام الدستورية، والتشريعات،واللوائح، والمعايير،والسياسات والبرامج التي تطبق نهجاً قائماً على الحقوق لضمان الغذاء الصحي والمنتج على نحو مستدام،سواء خلال الحرب على سورية أم قبلها، وفيما يلي ذكر للصكوك التي تشير مباشرة إلى الحق في بيئة صحية بعضها أصدر كإجراء علاجي وبعضها تم التأكيد على تفعيله كونه أصدر قبل فترة الحرب على سورية :

1. القانون12لعام 2012م إرساء القواعد الأساسية اللازمة لسلامة البيئة وحمايتها من التلوث، ويهدف هذا القانون إلى إرساء القواعد الأساسية لسلامة البيئة وحمايتها من التلوث وتحقيق التنمية البيئية وتحديد المهام المنوطة بوزارة البيئة الإدارة المحلية وكذلك المهام التي تقوم بها بالتعاون مع الجهات المختصة لمتابعة تنفيذ أحكامه وأحكام القوانين والأنظمة المتعلقة بالشؤون البيئية بما يحقق هذه الأهداف.
2. القانون 9 لعام 2006 قانون حماية البيئة البحرية ومنع التلوث البحري.
3. المرسوم التشريعي11لعام 1991إحداث مجلس أعلى وهيئة عامة لشؤون البيئة تهدف الهيئة إلى إرساء القواعد الأساسية لسلامة البيئة وحمايتها من التلوث.
4. تصديق مذكرة التفاهم في مجال حماية البيئة الموقعة في موناكو.
5. القانون 14 لعام 2015 قانون التجارة الداخلية وحماية المستهلك وتعديلاته: يهدف هذا القانون إلى ضمان ممارسة النشاط الاقتصادي للجميع ومنع الاحتكار وحماية حقوق المستهلك والعمل على تحقيق الآتي:

أ- تلبية احتياجات المستهلك من المنتجات والخدمات المختلفة.

ب-ضمان سلامة المستهلك وصحته عند استعمال المنتج أو تلقي الخدمات.

ج- الحصول على المعلومات والإرشادات والإعلان الصحيح عن كل ما يقدم إلى المستهلك من منتجات وخدمات.

د- تثقيف المستهلك وتوعيته بحقوقه والتزاماته الاقتصادية وتوجيهه من حيث الاستهلاك وسبل التطوير بشكل مستمر ليتمكن من ممارستها.

هـ- ضمان ممارسة المستهلك لحقوقه في الاختيار الأنسب للمنتج والخدمة المتاحة في الأسواق وفقا لرغباته.

6. القانون 24 لعام 2012 قانون الأمان الحيوي للكائنات الحية المعدلة وراثياً ومنتجاتها و هدف هذا القانون إلى :

أ- ضمان مستوى آمن لصحة الإنسان والحيوان والنبات والبيئة بوضع ضوابط لإدخال وإخراج ونقل وإنتاج وتداول واستخدام الكائنات الحية والمعدلة وراثياً ومنتجاتها.

ب- المساهمة في وضع إطار تنظيمي للبحث والتطوير في مجال الهندسة الوراثية.

7. قانون رقم 20 لعام 2009، القاضي بحماية الموارد الوراثية النباتية .

8. قانون 19 المتعلق بسلامة الغذاء لعام 2015: يهدف هذا القانون إلى تحقيق الآتي:

أ- ضمان سلامة وصحية وجودة الأغذية المنتجة محليا والمستوردة والمصدرة والمتداولة في الجمهورية العربية السورية.

ب- تنظيم الرقابة على المستوردات والصادرات والمنتجات المحلية الغذائية بما يتوافق مع المواصفات الوطنية والمعايير الدولية المعتمدة من الجهة المختصة.

ج- تطبيق الممارسات الزراعية الجيدة وتتضمن: الاستخدامات الآمنة الموصى بها وطنياً للمبيدات والأسمدة والهرمونات وغيرها من الكيماويات بما يتوافق مع المعايير الدولية والظروف الفنية لاعتبارات الصحة العامة والسلامة المهنية وسلامة البيئة سواء في مرحلة الإنتاج أو التخزين أو النقل أو التوزيع أو تصنيع الأغذية والأعلاف الحيوانية وتحليل المخاطر ومراقبة النقاط الحرجة ونظام يحدد المخاطر المحتملة ذات الأثر الخطر على سلامة الغذاء وتطبيق الممارسات الصحية الجيدة وتتضمن الشروط الصحية المطبقة أثناء الإنتاج والتصنيع

والتسويق والتوزيع وتداول الأغذية التي تؤدي لضمان منتج سليم وصحي وصالح للاستهلاك البشري...

سعت الحكومة لتطوير قطاع الزراعة ككل ومعالجة الآثار الناجمة عن الاحتباس الحراري ومفاعيل الحرب الإرهابية، من خلال اتخاذ الإجراءات التالية:

1. تنظيم الإنتاج الزراعي وفق خارطة استعمالات الأراضي وتحديد الدورات الزراعية الملائمة حسب قدرة الموارد الطبيعية بما يضمن استدامتها ورفع كفاءة استثمارها والاستفادة من بقايا النفايات بدلا من حرقها .
2. إعادة تدوير المخلفات الزراعية لإنتاج طاقة بديلة، وإعادة تأهيل المراعي المتدهورة وتطبيق الزراعة الحافظة للموارد.
3. دعم مشاريع الطاقات المتجددة للاستخدامات الزراعية.
4. تعزيز القدرات و تدريب الكوادر البشرية في كافة فروع هذا القطاع.
5. تحقيق الإدارة المستدامة للثروة الحراجية، و زيادة رقعة الحراج وتطويرها وإعادة تأهيل الغابات التي تعرضت للحرائق والمتدهورة، و تطبيق الإدارة المتكاملة لمكافحة حرائق الغابات الطبيعية والاصطناعية واعتماد النهج التشاركي وزيادة العمل الإرشادي، وزيادة إنتاج مشاتل الغراس الحراجية ومساحة الغابات في سورية للمساهمة و لتعزيز دور الغابات في احتجاز الكربون.
6. تطوير الإنتاج والإنتاجية وتعزيز القدرة على مواجهة أثر التغيرات المناخية والجفاف، من خلال إصدار مجموعة من القوانين والبلاغات الوطنية، كتنظيم استثمار أراضي أملاك الدولة لإقامة المشاريع الإنتاجية والخدمية للقطاع، وإصدار الشروط الفنية الناظمة لتجارة وتصنيع الأسمدة، وتراخيص المبيدات، والحجر الصحي النباتي، وحماية الثروة الحيوانية ومتطلباتها، وحماية البادية، وزراعة الشجيرات الرعوية، وتفعيل العمل بقانون الحراج رقم /6 /لعام 2018.

وفيما يتعلق بإستراتيجية الحكومة السورية فيما يخص قطاع النقل بهدف التخفيف من الانبعاثات تم اعتماد الخطط والمشاريع التالية:

1. تحديث وتفعيل إجراءات الفحص الفني وذلك للتقيد بالنسب المسموحة للغازات الصادرة عن عوادم السيارات وتأهيل مسارب الفحص الفني في مديريات النقل، وتزويدها بأجهزة حديثة ومتطورة كأجهزة فحص الغازات المنطلقة من عوادم المركبات.
2. تطوير أنظمة النقل في المدن و تشجيع استخدام الحافلات الكبيرة واعتماد أسلوب النقل الجماعي، إضافة إلى تأهيل وتطوير خطوط السكك الحديدية لا سيما وأن النقل عبر السكك يسهم في خفض نسب التلوث الناجمة عبر الوسائل الأخرى.
3. تحسين نوعية الوقود المستعمل في وسائط النقل .
4. تشجيع استعمال الحافلات العاملة على الغاز والسيارات الصديقة للبيئة التي تعمل بالتكنولوجيا الحديثة (غاز، كهرباء، هجينة).
5. عدم السماح باستيراد أو إدخال السيارات المستعملة إذا تجاوز عمر استخدامها 3 سنوات، إضافة إلى متابعة الدراسات المتعلقة بمشروع استبدال المركبات القديمة .

وفيما يخص مواجهة الآثار البيئية للحرب في قطاع الصناعة تم اعتماد الخطط التالية:

1. الاعتماد على الطاقات المتجددة ودراسة إمكانية استثمار الموارد المتاحة محليا والاستفادة من الطاقة الشمسية كطاقة بديلة ومتجددة في الصناعة واستبدال الفيول بالغاز الطبيعي في الصناعات كثيفة الاستهلاك الطاقوي مثل صناعة الإسمنت.
2. تحسين مواصفات المشتقات النفطية المستخدمة في الصناعة.
3. كما تم تطوير البيئة الاستثمارية لإقامة المعامل والمنشآت الكبيرة والمتوسطة والحرفية وإعادة تأهيل المتضرر منها.
4. اتخاذ التدابير اللازمة لمنع استقدام خطوط الإنتاج والآلات والمعدات المستعملة.

5. يتمثل التحدي القائم الآن بتنظيم الخارطة الصناعية التي تلبي المعايير البيئية والإقلاع بالنشاط الصناعي بسلاسل الإنتاج المتقدمة بما فيها لإنتاج التجهيزات اللازمة لتعزيز مكانة الطاقات المتجددة والجديدة وتلك المستخدمة في استهلاك الطاقة، والتخفيف الشامل من الانبعاثات، من خلال مشاريع معالجة منصرفات المياه الملوثة عن عمليات الصناعة والاستفادة منها في الري، وتأهيل محطات معالجات الصرف الصناعي للمعامل وتطوير الجديد منها .

أما فيما يخص معالجة النفايات الصلبة فإن الحكومة تسعى إلى تحسين واقع الخدمة في هذا القطاع وخاصة بعد انتهاء المعوقات التي فرضتها الحرب من خلال عدد من الإجراءات:

1. تقييم الوضع الحالي لإدارة النفايات الصلبة وتطوير الإستراتيجية الوطنية في هذا المجال.
2. إيجاد الحلول المناسبة للمكبات العشوائية ومنع الحرق العشوائي وتحديث أسطول الآليات الخاصة بإدارة النفايات.
3. تشجيع تنفيذ مشاريع رائدة بما يتعلق بفرز النفايات الصلبة ابتداء من المصدر، وصناعة إعادة التدوير، ومعامل المعالجة خاصة في المدن الكبرى وذات الأنشطة الاقتصادية الكثيفة ووضع معايير للمرافق والمعدات الضرورية.
4. البحث في مجال تحويل غازات المطامر الصحية إلى طاقة والاستفادة من الغاز الحيوي.

تبذل الحكومة السورية جهودا كبيرة في مجال معالجة الآثار البيئية للحرب في مرحلة إعادة الإعمار من خلال تصميم وتطوير مجتمعات عمرانية متوازنة وعصرية تحقق معايير الإسكان واعتماد التدخلات المطلوبة للاستدامة من خلال خارطة السكن وإصدار الدلائل لتقييم الأثر البيئي الذي يلبي المعايير الإنشائية والبيئية والحفاظ على الطاقة من خلال:

1. وضع معايير وأنظمة تراعى فيها العوامل البيئية وتسمح باستثمار الطاقات البديلة والمتجددة والحفاظ على الأراضي الزراعية ومنظومة بنى تحتية وخدمات عصرية.
2. تطوير المناطق الواقعة خارج المدن للحد من الهجرة من الريف إلى المدن عن طريق تأمين فرص العمل وسبل العيش الكريم والمسكن الذي يلبي شروط العمارة الخضراء المتوافقة مع الشروط البيئية فيما يخص حفظ الطاقة سواء بالإضاءة الطبيعية أم التدفئة والتهوية وغيرها .
3. متابعة تطبيق دليل العمارة الخضراء بفعالية، وتشجيع استخدام التقنيات البيئية الحديثة مثل إنتاج واستخدام مواد البناء الصديقة للبيئة،واستخدام تقنيات العزل الحراري...الخ

وفيما يخص الإجراءات المتعلقة بتخفيف الآثار البيئية للحرب في الموارد المائية فقد قامت الحكومة السورية بجملة من الإجراءات منها:

1. إدارة الموارد المائية والتكيف مع ندرة المياه، و الحد من مواطن الضعف.
2. حماية الموارد المائية ومنع تلوث الموارد المائية السطحية والجوفية.
3. تقليل الفواقد المائية، والحد من تسرب المياه من القنوات، والمحافظة على رطوبة التربة بتحسين محتواها من المواد العضوية.
4. رفع كفاءة استخدام مياه الري و دعم مشاريع حصاد المياه، و استخدام طرق الري عالية الكفاءة، واستخدام الري التكميلي لري المحاصيل المطرية بكميات المياه التي يحتاجها النبات فعليا خلال فترات الجفاف.
5. تعزيز استخدام الموارد المائية غير التقليدية (مياه الصرف الصحي والصرف الزراعي المعالج و دعم مشاريع محطات معالجة الصرف الصناعي للمنشآت الكبيرة على الأنهار كالفرات والعاصي،ومحطات معالجة نموذجية للقرى، ومحطات معالجة مكانية للتجمعات السكنية الصغيرة وإنتاج مياه صالحة للري)

.

استمرت الجمهورية العربية السورية بمتابعة التزاماتها في الاتفاقيات والبرتوكولات الدولية التي وقعت عليها، ومنها اتفاقية التنوع الحيوي والبروتوكولات الهامة ومنها (بروتوكول ناغويا لحماية المصادر الوراثية النباتية والحيوانية والتقاسم العادل والمنصف للمنافع الناشئة عنها في العام 2012،والانضمام لبروتوكول ناغويا كوالالمبور التكميلي لبروتوكول قرطاجنة للسلامة الإحيائية في العام 2012م،كما عملت وتعمل للوصول إلى حماية مكونات التنوع الحيوي و التنمية المستدامة للموارد الطبيعية من خلال الإجراءات التالية:

1. إنشاء مشاتل مؤقتة من أجل إكثار النباتات المهددة بالانقراض.
2. إعادة تأهيل المحميات المتضررة وتعميم مبدأ التشاركية في إدارتها.
3. إجراء المسوحات وتوثيق مساحات الغابات المتدهورة و الأنواع الحيوانية والنباتية المتضررة.
4. دعم تحريج الغابات والمحميات الحراجية وزيادة عدد المحميات الطبيعية.
5. مكافحة تدهور الأراضي والتصحر.
6. تحييد تدهور الأراضي وتحسين ممارسات إدارتها ولاسيما فيما يتعلق بالزراعة والحراجة.
7. إعداد برامج وخطط وإجراء قياسات الانجراف في المناطق المتضررة وإعادة تأهيلها والحد من تدهور التربة من خلال إقامة محطات اختبارية وإعداد خرائط مخاطر تدهور التربة باستخدام تقنيات الاستشعار عن بعد والرصد ونظم المعلومات الجغرافيةGIS .
8. تطوير الدراسات وطرق تحديد ومكافحة بؤر العواصف الغبارية في المناطق المتضررة أو المهددة بها،من خلال استخدام الأحزمة الخضراء والحواجز ودراسة الأنواع النباتية المناسبة للتخفيف من آثار العواصف الغبارية على المدى الطويل والتي تتلاءم مع ظروف المنطقة.
9. تفعيل خطط الإدارة المتكاملة للمناطق الساحلية واتخاذ الإجراءات الضرورية لوضع خطط إدارة متكاملة للموارد الطبيعية في المناطق الساحلية وتنفيذها،

بحيث تأخذ بالحسبان حماية الموارد الطبيعية الساحلية من خلال دعم البنى التحتية الساحلية مثل الطرق والأبنية و الموانئ ...إلخ، إضافة إلى بناء قدرات المؤسسات ذات الصلة والتوعية الجماهيرية.

10. بناء القدرات و الخبرات والكفاءات الوطنية بما يخدم تنفيذ هذه المساهمات.
11. نشر التوعية وتطوير الوعي المستدام والتشاركي، وتعزيز دور المجتمعات المحلية في صياغة وتنفيذ البرامج التنموية.
12. دعم وتطوير البحث العلمي كونه أداة وعملية جوهرية لتعزيز الاستجابات التكنولوجية الجديدة الملائمة لمواجهة تأثير تغير المناخ على كافة الأنشطة والقطاعات الاقتصادية .

تم اقتراح إستراتيجية وخطة عمل وطنية للتكيف مع التغيرات المناخية من خلال إعداد البلاغ الوطني الأول حول التغيرات المناخية الذي يهدف إلى تحسين إدارة الموارد الطبيعية وتعزيز الاستدامة البيئية، وقد حددت خطة العمل تدابير ذات أولوية للتكيف مع تغير المناخ،وبسبب الظروف الحالية،لم يتم تنفيذ أي من هذه التدابير،علماً بأن تنفيذ هذه الإجراءات سيحتاج إلى تعاون بين كافة القطاعات على المستوى المحلي،ودعم دولي وتوفير الموارد المالية لتمكين سورية من حماية النظم الطبيعية وصحة الإنسان.

الاستنتاجات:

1- تأثرت مختلف القطاعات الاقتصادية سلبا نتيجة الآثار البيئية للحرب على سورية.
2- حالت ظروف الحرب على سورية دون إكمالها لاستراتيجياتها فيما يخص البعد التنموي البيئي المستدام.
3- تنصلت كل المنظمات الدولية عن دعم سورية بيئيا بالرغم من دخول سورية في معظم الاتفاقيات التي تخص البيئة، والتزامها بما هو مطلوب منها طيلة سنوات الحرب، ولكن حال نقص التمويل دون استمرار العمل في استراتيجيات التنمية البيئية المستدامة.

4- أدت الحرب على سورية إلى تكدس الكتلة البشرية في مناطق معينة مما ولد ضغطا شديدا على البيئة في هذه المناطق، في حين حرمت مناطق أخرى من استثمار مواردها البيئية بسبب نزوح سكانها منها بسبب المجموعات الإرهابية .

5- بالرغم من أنه في بداية الحرب كان هناك مؤشرات بيئية آنية ايجابية تخص انخفاض الانبعاثات الملوثة السامة بسبب تراجع النشاط الصناعي والنقل، ولكن ذلك كان آنيا ولا يمكن عده إيجابيا لأن هذه الحرب قد أفرزت أنشطة بديلة ذات آثار بيئية أشد ضراوة، كبدائل نقص الوقود.

المقترحات :

1. إصلاح قنوات الري المتضررة في المناطق التي تعرضت للضرر بسبب المجموعات الإرهابية، وتحسين أداء أنظمة الري،و إصلاح الهياكل الأساسية الضرورية من أجل تخزين المحاصيل والمستلزمات بطريقة آمنة،وتوفير اختبارات فحص التربة المنقولة خاصة في المناطق المستهدفة من المجموعات الإرهابية،وتطوير أساليب اختيار المحاصيل المناسبة للحفاظ على الربحية الاقتصادية، من خلال تجنب المحاصيل التي تحتاج إلى الري الغزير والتوجه نحو المحاصيل المقاومة للجفاف والأكثر توفيراً للمياه، ودعم استخدام أصناف البقوليات والقمح المحلية المناسبة للمناخ في سورية والمقاومة للجفاف والأمراض.
2. تدريب المزارعين، حتى الذين يتمتعون بعشرات السنوات من الخبرة، على الابتكارات الجديدة والتطورات التكنولوجية، وتطبيق أساليب الزراعة المحافظة على الموارد لتقليل الاحتياجات المائية وتوفير الأسمدة، بما في ذلك إتباع الأساليب المراعية للبيئة الطبيعية،والمساعدة في تنمية المشروعات الخاصة من خلال إتاحة إمكانية الحصول على الموارد الزراعية،مثل تقديم القروض ودعم عملية التسويق،وهو ما سيسهم في زيادة الإنتاج الزراعي وتحقيق الأمن الغذائي.
3. ينبغي على المتعهدين استثمار فرصة إعادة إعمار سورية لاعتماد قيم ومبادئ الاستدامة والعمارة الخضراء،وتطبيق القواعد التنظيمية والمعايير الخاصة بالمباني الخضراء مثل قوانين (كفاءة استخدام الطاقة في المباني) الصادر عن مختبر

علم طبقات الجليد والجيوفيزياء البيئية،واستخدام مواد البناء المعاد تدويرها بدلاً من المواد الجديدة.

4. التوجه لاستخدام الطاقة البديلة بأنواعها (الرياح، الشمس،....).
5. لمعالجة المشكلة المستعصية التي تطرحها النفايات الصلبة والأنقاض، ينبغي الأخذ بالحسبان العناصر الرئيسية الآتية:

- تقييم الحاجة إلى إدارة النفايات الصلبة والأنقاض في المناطق شديدة الخطورة.
- تحديد الشركاء المحليين والتعاون مع الشركاء من المنظمات غير الحكومية لوضع برنامج لإدارة النفايات الصلبة في كافة الأحياء والمناطق المستهدفة.
- تطبيق برامج الأجر مقابل العمل وبرامج العمالة الطارئة لإدارة النفايات الصلبة والأنقاض.

6. استخدام وسائل تنقية المياه، مثل المواد المشتتة والحواجز العائمة والكاسحات في المناطق التي حدث بها تسرب نفطي، وتعزيز التوعية في مجال النظافة الصحية لإدارة مخاطر المشكلات الناتجة عن تلوث مياه الري، وتنظيم أنشطة تطوير القدرات التي تستند إلى الأولويات والاحتياجات المائية من خلال التدرب على أساليب الاستخدام المستدام للمياه والعمل على إعدادها وصياغتها وإدارتها وتطبيقها، وإصلاح شبكات الإمداد بالمياه العذبة للشرب وإعادة تشغيلها.
7. تجميع مياه الأمطار وفصلها عن شبكات مياه الصرف الصحي لاستخدامها في الري والإنتاج الزراعي.

وختاما لا بد من معالجة المنظومات الإنتاجية والخدمية والنظم البيئية التي تأثرت بفعل الحرب، ومن ثم توفير متطلبات الربط بين التكيف والتخفيف من آثار تغير المناخ، وذلك من خلال المشاريع التنموية المحلية وتحقيق مساهمتها في الملكية الوطنية لمشاريع إعادة الإعمار، وتعزيز البيئة القانونية الهادفة للحفاظ على الموارد الطبيعية والبيئية واستثمارها، وتحقيق الاستجابة الوطنية للحاجات الملحة مع الحاجات بعيدة المدى، لبلوغ مرحلة الاقتصاد ذاتي النمو وببعده البيئي.

المصادر والمراجع:

1. Our World in Data، موقع الكتروني.
2. برنامج الأغذية العالمي للأمم المتحدة (WFP)، تقارير متفرقة لعام 2022م.
3. البنك الدولي،تقرير مرفق البيئة العالمي GEF ،2017.
4. التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016.
5. التقرير الوطني الخامس للتنوع الحيوي عن وزارة الإدارة المحلية والبيئة في سورية لعام 2016.
6. مذكرة وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي حول " المساهمة في مسألة التزامات حقوق الإنسان المُتعلقة بالتمتع ببيئة آمنة ونظيفة وصحية ومستدامة "،البعثة الدائمة لدى مكتب الأمم المتحدة، جنيف،2019م.
7. المعلومات المتعلقة بالنظم الغذائية وحقوق الإنسان، في إطار الرد على أسئلة المقرر الخاص المعني بالحق في الغذاء للمساهمة في إعداد تقريره المواضيعي الذي قدمته البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة إلى الدورة (76) للجمعية العامة للأمم المتحدة، جنيف 2021م.
8. مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، 2020.
9. منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدة FAO.2020م.
10. وثيقة المساهمات المحددة وطنيا في إطار اتفاق باريس للمناخ عن الجمهورية العربية السورية لعام2018م.
11. وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي في سورية، مكتب التخطيط ،2022م.
12. وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية. 2022م.

13. وزارة النفط والثروة المعدنية،المؤسسة العامة لتكرير النفط وتوزيع المشتقات النفطية،2022م.

14. وزارة الكهرباء،المركز الوطني لبحوث الطاقة،2020م.

15. وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي،مديرية الحراج،2022م.

16. وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي، الهيئة العامة للبحوث الزراعية ، والمكتب المركزي للاحصاء 2022م.

17. وزارة الأشغال العامة والإسكان، المؤسسة العامة للإسكان والهيئة العامة للتطوير والاستثمار العقاري،2022م.

18. الوكالة الأميركية للتنمية الدولية،تقرير الشرق الأوسط، 2017م.

19. وكالة نورث برس،تقارير بيئية، 2020.https://npasyria.com ./